



العرب والتحديات الخارجية عبر العصور

(حصـاد)

الندوة العلمية الدولية لقسم التاريخ

بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة

(١٧-١٨ أبريل ٢٠٠٧م)

" عدد خاص من المؤرخ المصري "

رئيس التحرير

أ.د. محمد بركات البيلي

رئيس قسم التاريخ

تقديم

من هم العرب ؟ سؤال لم يفقد بعد قيمته ولا أهميته التاريخية، وتجاوزت الإجابة عليه الإطار التقليدي الذي تحدده عوامل المكان والزمان والعرق واللسان والثقافة إذ أضيف إليها حاليًا عوامل أخرى كالمصلحة والسياسة وأصبحنا نرى كيانات سياسية تدخل تحت المظلة العربية بعد أن كان يعز عليها ذلك فيما مضى، ونرى كيانات أخرى تلوح أحيانًا بالتنكر للهوية العربية والخروج من الجامعة العربية وكأن الهوية العربية لديها اختيار لا انصهار، وهذا يضفي على قضية الهوية العربية أهمية بالغة ويجعل من الضروري فهم التطور التاريخي الذي ألم بها والتحديات التي واجهتها عبر العصور.

لقد كان وجود العرب فعليًا سابقًا على ظهور اسمهم تاريخيًا، إذ سكن العرب جزيرتهم قبل أن تسجل اسمهم النقوش التاريخية. ولم يكن أول ظهور لاسمهم تاريخيًا في نقش النمارة (أو نقش أمرئ القيس) سنة ٣٢٩م ــ كما افترى إسرائيل ولفنسون ــ اليهودي المتعصب ــ وإنما ظهر اسمهم قبل ذلك بكثير في غزو سرجون الأكدي وحفيده نارام سين لشبه جزيرة العرب في أواخر الألف الثالث ق.م وقتالهما فيها " عرب ملوكا " و" عرب مجان ".

وبين النقش الأكدي في الألف الثالث ق.م ونقش النمارة في القرن ٤م توجد إشارات عديدة إلى العرب منها إشارة لمحالفة جنديبو العريبي أو جندب العربي لملك دمشق في قتال شلما نصر الأشوري في معركة قرقر الأولى ٨٥٣ ق.ك، ومنها أيضًا إشارة هيرودوت إلى العرب قبل الميلاد بنحو خمسة قرون.

ولقد حاول البعض طمس الهوية العربية فجعلوها في ذنب السامية حينًا أو أخرجوها منها حينًا آخر، ومع أننا نرى أن السامية مصطنع ــ ولا أقول مصطلح ــ حديث لم يكن له وجود قبل شلوترز. فإننا إذا جاريناهم في القول بالسامية فإن العرب في اعتقادنا هم جذع هذه الشجرة أو فرعها الرئيسي الذي تتفرع عنه سائر فروعها فأصل الأكديون عرب وأصل الكنعانيين عرب وأصل الآراميين عرب. وإذا كان نزوح

هذه الفروع إلى المناطق التي نزحوا إليها في الهلال الخصيب وغيره قد جعل الأمم المجاورة تعرفهم وتذكرهم بمسمياتهم الجديدة بعد الهجرة وأكثرها نسبة إلى مدن استوطنوها مثل أكد وبابل وآشور أو غير ذلك من دواعي المسميات فلا يضير الأصل الذي ظل مقيمًا في الموطن الأصل أن عمى الآخرون عنهم، وصدق الشاعر إذ يقول :

الشمس إن طلعت وسطع بريقها ما ضرها ألا يراها الأرمد

وحاول البعض أن يطمس الهوية العربية بأن ينسبها إلى البداوة ويجردها من الحضارة متعامين عن دلائل الحضارة في مواضع متفرقة من جزيرة العرب وتوهموا أن العروبة تعني البداوة استنادًا إلى أدلة لغوية مع أن اللغة التي يؤولونها هذا التأويل جماعة لمعاني عديدة أقلها شأنًا معنى البداوة بل إنهم في هذا الصدد فئتان : عرب وهم أهل الحضر وأعراب وهم من نزل البادية، وكان البدوي يسموا إلى التحضر حتى إذا قيل له يا عربي فرح بذلك وكان العربي يأنف من التبدي حتى إذا قيل له يا أعرابي غضب لذلك.

ولا شك أن العروبة قد أخذت منحىً جديدًا مع ظهور الإسلام ثم حركة الفتوح العربية الإسلامية، وإذا كان خطها البياني قد تأرجح عبر العصور التالية حتى عصرنا الحديث فقد واجهت العرب والعروبة تحديات كبيرة وخطيرة عبر هذه العصور.

ولمناقشة هذه القضايا الهامة عقد قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة منتدى دوليًا في يومي ١٨ ، ١٩ أبريل سنة ٢٠٠٧م، في إطار احتفالات كلية الآداب بالمئوية الأولى لجامعة القاهرة واتخذ عنوانًا له هو " العرب والتحديات الخارجية عبر العصور " وقد شارك فيه نخبة من الدارسين العرب بأوراق وبحوث نقدم للقارئ بعضًا منها — لا كلها — في عدد خاص من المؤرخ المصري، آملين أن يكون فيها بعض الفائدة المرجوة.

وبالله التوفيق.

رئيس التحرير

أ.د. محمد بركات البيلي

العولمة والأمن الثقافي العربي

أ. فشار عطاء الله
أستاذ مساعد مكلف
لدروس بالمركز الجامعي بالجلفة الجزائر

عادة ما تقدم العولمة باعتبارها مصطلحاً قلقاً يرتبط ذكره بالتوجس والتحفظ بالنظر لتعدد حضوره في مختلف الخطابات السياسية والاقتصادية والثقافية المعاصرة، دون أن يكون هناك سياق جامع مانع يتحكم في سيرورة هذا المفهوم، فيسمح بوضعه في إطار تعريفي قارٌ كغيره من المفاهيم، ففي حين يبدو للوهلة الأولى أن الأمر يتعلق بمصطلح جديد يكاد تداوله الإعلامي يتجاوز البضع سنوات، فإن كل من هانز بيتر مارتين وهارولد شومان في كتابهما "فخ العولمة" يرسمان له جذوراً تاريخية عميقة تعود إلى أكثر من خمسة قرون، منذ اكتشاف أمريكا وغزوها وكونية عصر الأنوار(١).

قلق هذا المفهوم وتداخله مع مفاهيم أخرى من قبيل العالمية(٢)، هو ما يجعل بعض الدراسات الحديثة ترفض حتى الاعتراف به، إذ تعتبره مجرد خرافة وموضة عصر(٣). إننا بحسب تعبير المفكر الفرنسي ريجيس دوبري (regis debri) أمام نظام لا يزال قيد التشكل بأدوات ومحددات نظرية غير موعى بها وعياً تاماً، كما وقع بالنسبة لانتقال العالم من العصور الوسطى إلى عصر التنوير، أو من الموجة الفلاحية إلى الموجة الصناعية، أو من الموجة الصناعية إلى الموجة المعلوماتية، وهي ذروة الحداثة(٤). ولعل هذا ما جعل روبرتسون (robertson)، أحد أبرز منظري العولمة في العالم، في تحقيبه الشهير لتاريخها يطلق على المرحلة الخامسة

التي تتمثل الصورة المعاصرة التي نحن بصدد عيشها مرحلة عدم اليقين(٥)، التي تحيل بالضرورة على قلق المفهوم واستعصاء حصره اصطلاحياً أو وظيفياً، غير أن مسحاً سريعاً لمجموعة من التعاريف المقدمة من قبل مجموعة من المفكرين والأكاديميين قد تتيح لنا استخلاص بعض مؤشرات سيرورة المفهوم على الأقل:

يعرف سمير أمين العولمة بكونها الاختراق المتبادل في الاقتصاديات الرأسمالية المتطورة بدرجة أولى، ثم توسيع المبادلات بين الشمال والجنوب على اعتبار أنه يمثل سوقاً مهمة(٦)، فيما يذهب هوبرت فيدرين (Hubert vedrine) إلى أن العولمة ليست فكراً ولكنها وقائع تقنية فرضت نفسها على الساحة الكونية، وفي فرضها لنفسها أقلقت الجميع، وبخاصة الدول ومؤسسات القطاع الخاص، إنها ظاهرة لا تمس أي اقتصاد، وإنما بالحصر اقتصاد السوق والاستهلاك، واقتصاد تحويلات العملات والتدبير الاستثماري(٧). أما صادق جلال العظم فيعرفها بكونها وصول نمط الإنتاج الرأسمالي، عند منتصف القرن تقريباً إلى نقطة الانتقال من عالمية التبادل والتوزيع والسوق والتجارة والتداول، إلى عالمية دائرة الإنتاج وإعادة الإنتاج ذاتها(٨). بينما يرى عزمي بشارة أنها طغيان قوانين التبادل العالمي المفروضة من قبل المراكز الصناعية الكبرى على قوانين وحاجات الاقتصاد المحلي(٩).

هذه التعاريف وإن كانت تتقاطع فيما بينها من حيث تركيزها على الجانب الاقتصادي والتقني الذي يبلغ أوجه في المد المعلوماتي، فهي لا توازي أهمية المفهوم وحضوره المتشعب في مختلف الخطابات المعاصرة؛ لأننا بهذا المعنى بصدد اعتبار العولمة مجرد ممارسات جديدة في التجارة والاقتصاد المتبادل تستند إلى قوة التدفقات المالية في سوق عالمية واحدة، واتساع رقعة المبادلات التكنولوجية، وبخاصة عبر وسائل الاتصال والإعلام(١٠)، ما يجعل مقاربتنا للعولمة

قاصرة عن الإحاطة بشموليتها واختزالاً لها في بعض مكوناتهـا، و إهمـالا غيـر مبرر لتجلياتها المختلفة والمتعددة الأشكال والألوان، الشيء الذي يتطلب ضـرورة الوقوف بدقة وشمولية، إن لم يكن على دلالة المفهوم وهو أمـر لا زال مستعـصياً كما أسلفنا، فعلى تجلياتها على مختلف مظاهر الحيـاة الإنـسانية، وفـي مقـدمتها المعطى الثقافي والتربوي الذي يدخل بشكل مباشر في تشكيل الهوية والخـصوصية المحلية التي تشير أغلب الدراسات إلى أنها قد تكـون الـضحية الأولـى لموجـة العولمة، باعتبارها سيراً نحو التنميط من خلال تمرير نموذج ثقافي واحـد يكتـسح الثقافات الجهوية، ويضع مصيرها في خانة الموضوعات التي قـد تـشغل اهتمـام الأنثروبولوجيين بعد زمن قليل.

من هذا المنطلق نتوجه لمقاربة مفهوم العولمة من زاوية تأثيره المباشـر أو غير المباشر على الخصوصيات الثقافية الجهوية، التي قـد تـسمح لنـا باعتمـاد مصطلحات من قبيل الهوية، وفي مقدمتها المجال الثقافي العربي الذي يقع في دائرة نفوذ الاكتساح الثقافي الغربي، من خلال محاولة قراءة بعض الاجتهادات الفكريـة والأكاديمية العربية التي اهتمت بتوصيف الظاهرة وأثرها وآليات مواجهتهـا التـي من البديهي أن تقودنا إلى طرق باب الممارسة التربويـة فـي تجلياتهـا الماديـة والرمزية الجماعية والفردية، لأن من شأنها أن تشكل من وجهة نظرنا ملتقى آليات تحصين الهوية الثقافية العربية في وجه الاكتساح الثقافي العولمي الغربي.

تعريف العولمة

ليس من السهل تقديم تعريف دقيق، جامع مانع لظاهرة العولمة التـي كتـب حولها الكثير من الدراسات الفلسفية و الإجتماعية و الإسـتراتيجية و الإقتـصادية تناولتها من زوايا و مناهج متباينة و مختلفة.

ولقد عكست الكتابات العربية هذا التذبذب في فهم العولمة، و تأرجحت بين إعتبارها مقولة مرادفة لمقولة النظام الدولي الجديد التي شاعت بعد نهاية الحرب الباردة و رفعتها إدارة بوش الأب و قوامها تكريس الأحادية القطبية و هيمنة الولايات المتحدة على شؤون العالم الإستراتيجية، و النظر إليها في بعض الأدبيات اليسارية بصفتها مرحلة إكتمال مسار الرأسمالية التي تتجه موضوعيا إلى توحيد المنظومة الإقتصادية و السيطرة عليها من المركز، و إعتبارها نقطة إكتمال مسار الحداثة و من ثم التبشير بها و إعتبارها أفقا لا محيدَ عنه(11).

ومن الواضح أن هذه التعريفات تعكس تذبذبا واضحا في تفهم ظاهرة معقدة لها جوانبها المختلفة، من بينها الموضوعي الذي لا سبيل لرفضه و التنكر له مثل الثورة الإتصالية و التقنيات الجديدة التي وحدت بالفعل العالم و حولته إلى مجال مفتوح موحد، و منها الأيديولوجي الذي يتخذ من هذه الظاهرة الموضوعية بديلا فكريا يتم الدفاع عنه و التبشير به.

والخطورة في هذا الخلط تكمن في عدم إدراك الفرص التي توفرها العولمة من حيث هي محطة ضرورية في مسار الحداثة الصناعية و التقنية، و تميز هذه الفرص عن مشروع الأمركة و الأحاديث القطبية.

و كما يوضح غسان سلامة، فإن مسار التحول الإشتراكي نحو الأحادية و مسار العولمة قد تزامنا، لكنهما يختلفان من حيث المنطق و الغاية.

فقد تكون العولمة في مرحلة ما من مصلحة القوة العظمى و قد تكون في بعض جوانبها مناهضة لمصلحتها.

و للعولمة عناصر ثلاثة هي : ثورة الإتصالات الراهنة و الإزدياد الكبير في الدولية و إنتقال الرأسمالية الكبرى " إلى نوع من البداوة "، و ليست هذه العناصر في ذاتها من مقومات النظام الإشتراكي القائم.

يقول سلامة " الحقيقة أننا أضعنا وقتا ثمينا في الخلط بين الأمرين، و الحقيقة أيضا أننا إتخذنا في أديان كثيرة مواقف فقهية أولاهوتية من العولمة، فكان بعضنا القليل يدافع عنها إعجابا بالغرب بدون دراية عميقة بعناصرها المحركة، و بعضنا الكثير ينبذها لمساوئها التي لا تعد و لا تحصى "(١٢).

و الواقع إن إشكال نمط و طريقة التعامل مع إستحقاق العولمة في أوجه إستخدامها المختلفة ليس مطروحا فقط بالنسبة للمنطقة العربية، بل هو مطروح بالحدة ذاتها بالنسبة لكل الامم و البلدان التي تجرفها هذه الديناميكية التاريخية المتسارعة.

و يكفي ليتبين ذلك الرجوع إلى خطابات و تحليلات السياسيين و المفكرين الأوروبيين و اليابانيين و الآسيويين في تتبعها لآثار العولمة على مكونات النظم الإستراتيجية و السياسية و الثقافية لهذه الأمم.

و تكاد تنفرد الساحة العربية بهذا النزوع الإنكفائي الإنعزالي في مواجهة العولمة، في حين تبرز إستجابة الدوائر العالمية الأخرى لهذه التحديات الكونية في مستوى بلورة الرؤى الإستراتيجية و إبداع التصورات الناجعة الكفيلة بالتغلب على العوائق المنجرة عن إنهيار الهويات الوطنية و الإقليمية و الإستفادة من مكاسب و فوائد توحد المنظومة الإقتصادية الدولية.

و كما يقول المفكر الألماني نورمان فان شرينبرغ : " إن العولمة تعني بالمقام الأول بالنسبة لشعوب هذا العالم التحدي و القيام بالشئ الضروري و اللازم لكي تثبت أنفسها كأمم. و لا يتحقق ذلك بواسطة التقوقع أو الإختباء وراء الأسوار، من خلال إثبات الذات في تنافس الثقافات "(١٣).

و إذا كانت العولمة تطرح تحديات كبرى في مستويات مختلفة، فإن عقدتها الأساسية تكمن في ما تطرحه إشكالات جوهرية على مقومات الهوية الثقافية و نمط

الوعي بها.

العولمة و المشروع الثقافي العربي

هل للعولمة مضمونها الثقافي أم أنها مجرد ظاهرة موضوعية قوامها الإقتصاد و توحد العالم بفضا تقنيات الإتصال.

كثر الحديث و تباين حول هذه الإشكالية المعقدة التي ليس من السهل الحسم فيها. فإذا كنا نرفض القول المبسط بأن العولمة ليست سوى غزوا ثقافيا و تصديرا لنموذج حضاري غربي أو نمط حياة أمريكي، إلا أننا مع ذلك لا يمكن أن ننكر أن لها جوانبها الثقافية. ففضلا عن كون الثقافة تحولت في عصر " الموجة الثالثة " حسب عبارة عالم المستقبليات الأمريكي ألفيس توفلير إلى قاعدة الإقتصاد ذاته بدلا من المادة الصلبة التي كانت مقوم الثورة الصناعية[١٤]، فإن تحكم الدائرة الغربية (أمريكا و أوروبا) بما دعاه توني تعري و مايكل هارت بإمكانات التواصل (السلام و المال و الأثير)[١٥] ينتج عنه ضرورة التحكم في المضامين الثقافية.

إذا كانت بعض الدراسات الأمريكية تبشر بحقبة العولمة بصفتها حقبة التبادل الكوني الكثيف و الواسع من خلال الفضاءات الألكترونية المفتوحة، أي بإعادة توماس فريمان بالديمقراطيات الثلاثة[١٦] : ديمقراطية التكنولوجيا (أجهزة الكومبيوتر المنزلية للجميع) و ديمقراطية التمويل (بطاقات الإئتمان للجميع) و ديمقراطية المعلومات (الأنترنت للجميع)، فإن هذا التبادل ليس سوى وهم، بل هو تصدير ذو إتجاه واحد. فالأرقام المنشورة تفيد أن ٨٠ % من مواقع الأنترنت أحادية اللغة (الإنقليزية)، و أن الأمر يكيين يمتلكون لوحدهم من أجهزة الكومبيوتر أكثر من العالم كله، كما تتحكم الولايات المتحدة لوحدها في ٨٠ % من

منتجات الصناعة الثقافية العالمية. و لذا يمكن القول مع المفكر المغربي عبد الهادي بوطالب : " إن عولمة الإقتصاد و السياسة و نظام الحكم و التكنولوجيا تفضي حتما إلى عولمة الثقافة التي يراد لها أن تصبح نموذجا فكريا وحيدا تركزه في العقول و الضمائر و الأشرطة المتلفزة و أشرطة الفيديو أو ذلك التي تبثه قنوات الفضاء و تطرق به البيوت و تقتحم الأسر، و تقدمه كإحدى وسائل الإيضاح التربوي المعاصر، أو بواسطة شبكات الإشهار، و أغلب ذلك يبث باللغة الإنجليزية"(١٧).

فما هي هذه الثقافة التي تقدمها العولمة ؟

يذهب الكثير من المفكرين العرب إلى أنها غزو حضاري هدفه الدس و التشويه و إستهداف قيمنا الحضارية و الدينية و السلوكية، و بالتالي تكون الإستجابة هي الإنغلاق و التقوقع على الذات.

و في هذا الموقف الكثير من الخلط و الغلو، فليست العولمة إيديولوجيا نسقية جاهزة على طريقة التشكيلات الإيديولوجية التي عرفناها في حقبة الستينات و السبعينات مثل الماركسية، و إن كانت تبث نمط حياة معين و أسلوب عيش خاص بمجموعة حضارية معينة.

فالخوف هنا من المبالغة في النغمة الدفاعية الإحتمائية و إتخاذها سدا منيعا يحول دون الإنفتاح و التجدد. و ذلك هو الخط الغالب اليوم على الكتابات العربية حول العولمة، كما يصفه د. محمد سبيلا بقوله : " لقد أصبحت الوظيفة الدفاعية الحمائية و الإحتمائية خيارا إستراتيجيا في الثقافة العربية المعاصرة.. إنها ثقافة دفاعية و محافظة في المجمل يغلب عليها الدوكسا و الدوغما أكثر ما تتغلب فيها حاسة العقل النقدي "(١٨).

و مع ذلك لا يمكن أن نجاري الموقف المقابل الذي يبشر بالعولمة

بصفتها عقيدة العصر الراهن، و نمط التحديث الوحيد المتاح للعرب إن هم أرادوا تدارك الأمم المتقدمة.

فلقد إنتشر في أيامنا الخطاب النقدي للهوية، و إعتبارها وهما، من منظور نوع من القيمة الكونية الفارغة التي لا نلمسها في الواقع الإنساني الذي نسمه التعددية و الإختلاف[١٩].

فليس من الصحيح أن الدفاع عن الهوية دليل إنغلاق و تعصب و جمود، بل إن صيانة الشخصية الحضارية المستقلة شرط لا غنى عنه لحماية التنوع الثقافي الذي هو وحده شرط قيام حوار ندي بين الحضارات و الأمم.

فالمجموعات الحضارية المختلفة ترفع هذا الشعار و تذود عنه، حتى داخل المنظومة الغربية نفسها. للتدليل على هذه الحقيقة الساطعة، نشير إلى موقف النخبة الفكرية و السياسية الفرنسية الساعي لحماية " الإستثناء الثقافي " داخل بنود إتفاقات التجارة الحرة.

و قد جعلت منظمة اليونسكو من صيانة حقوق التنوع الثقافي أحد توجهاتها الإستراتيجية الرئيسية، منذ إصدارها " مبادئ التنوع الثقافي " عام ١٩٦٦ التي تنص في مادتها الأولى :

١- لكل ثقافة كرامة و قيمة، يجب إحترامها و المحافظة عليها.

٢- من حق كل شعب و من واجبه أن ينمي ثقافته

٣- تشكل جميع الثقافات، بما فيها من تنوع خصب، و بما بينها من تباين و تأثير متبادل، جزءا من التراث الذي يشترك في ملكية البشر جميعا ".

و لقد بين العديد من علماء الدراسات الإجتماعية و المستقبلية أن ظاهرة العولمة و إن كانت تبث على نطاق واسع نموذج الحياة الأمريكي، إلا أنها تؤدي إلى ما عبر عنه المفكر الأمريكي نيجاس باربر بثنائية " الجهاد " و " المال " أي

إنتشار النزعات الخصوصية داخل دائرة التبادل الكوني.

و قد أوضح الدكتور محمود عبد الفضيل هذه الملاحظة بقوله : " توجد مخاطر حقيقية تشتمل عليها ثقافة العولمة، إذا وقفنا منها موقف المتفرجين ! حيث أن هناك تعميقا للفردية و التفكيكية للأفراد، تجسيدا لما يسمى " الديمقراطية الفسيفسائية " على حد قول ألفين توفلر حيث يهيم الأفراد في فضاء كوني بلا روابط أو عقل جمعي. و ينطبق نفس الشئ على فكرة المواطن الكوني "[٢٠].

و هكذا يبدو من الواضح أن حق الإحتماء بالشخصية الحضارية و الهوية الثقافية الخاصة شرط أساسي للتعامل مع تحديات العولمة " فالخصوصية الثقافية المحلية الضرورية لنشوء هوية ظاهرة وصفية، أي واقعا فعليا لا يمكن إنكاره، و لا الوقوف معه و لا ضده، لأنها تعبر عن الصفات الخاصة بكل كائن و كل كينونة إجتماعية. و ليس هناك كينونة من دون خصائص ذاتية، أي خصوصية، و إلا إندرجت من غيرها و صارت جزءا منها "[٢١].

الاكتساح العولمي وآليات المقاومة :

إذا ركزنا زاوية الرؤية على البلدان العربية، فإننا لا نعتبر وضعها مفارقاً لمجمل البلدان المنتمية تحت لواء العالم الثالث، فالتبعية السياسية الشاملة للغرب، وضعف أداء الاقتصادات العربية، وفشل مشاريع التنمية، والاندماج السلبي في اقتصاديات الغرب القوية، لا يمنح فرصاً لتشكيل هوية اقتصادية محلية قد تفسح المجال أمام حماية وتحصين الهوية الثقافية في شتى تمظهراتها، ذلك أن ما نستورده من الغرب ليس مجرد منتوجات أو آلات، بل سلوك وقيم و معايير[٢٢] لها بالغ الأثر في مجتمعات لا زالت تعيش إشكالية الصراع بين التقليد الذي يتحدد من خلال الانتماء إلى نظام اجتماعي وثقافي يجد تبريره في الماضي، ويدافع عن مكتسباته ضد عمل قوى التغير[٢٣] والحداثة التي تقدم نماذج للسلوك والتفكير متعارضة مع

النماذج التقليدية[٢٤]. وإذا جاز لنا أن نجازف بمحاولة رصد تأثير العولمة الغربيــة في نسختها الأمريكية بالأساس على واقع الثقافة العربية، فقد يكون بإمكاننا تــسجيل بعض هذه المؤثرات التي وإن كانت تعلن عن نفسها بتجلٍ واضح في حيثيات الحياة اليومية العربية، فإن من الــصعب عزلهــا عــن التــأثيرات الأخــرى الــسياسية والاقتصادية بالأساس، هكذا يمكن الحديث عما يلي:

- تغيير شامل في القيم والسلوكــيات الاستهلاكية من خلال التركيز على العلامات التجارية العالمية، وانتشار السلوكيات الاستهلاكية الغربية، الشيء الذي من شأنه أن يهدد الموروث الثقافي والاجتماعي العربي في جملته بالاندثار، مــع تــوالي انخراط الأجيال اللاحقة في هذه الأنماط المستوردة التي تمس مختلــف أشــكال الحياة المادية والفكرية للأفراد والجماعات من المأكل، والمشرب، والملبس إلــى طرق التفكير والحياة.
- تراجع مستمر للغة العربية في شتى المجالات أمام اكتساح اللغات الأجنبيــة، إذ أصبحت اللغات الأجنبية "الإنجليزية في دول الشرق الأوسط والفرنسية في دول المغرب العربي" أكثر تداولاً من اللغة العربية حتى في العلاقات البين عربيــة، بل وداخل الدولة نفسها.
- فقدان الثقافة العربية للقدرة على التجديد المتــوازن لــذاتها، فتخلــف الآليــات والمعايير المنتهجة في هذا السياق أضحى يهدد حتى مــستقبل الإنتــاج الفنــي والأدبي بالبلدان العربية، ولسنا بحاجة للتذكير بتراجع هذا الإنتاج كماً وكيفاً.
- انكماش وسائل الإعلام العربية أمام الاكتساح الهائل للإعلام الغربي وقــصورها عن حماية وتجديد الثقافة العربية.

هذه بعض آثار الاختراق الثقافي الغربي الأمريكي للثقافة العربية، وهي على الرغم من خطورتها لا تمثل في الواقع سوى الشجرة التي تحجب الغابة أما آليــات

المقاومة وتحصين الهوية العربية، فليست مناقشتها بأقل صعوبة من عزل هذه الآثار وتوصيفها، هكذا من البديهي أن تتجاوز الحلول المقترحة من قبل المهتمين بتتبع الظاهرة وآثارها، الجانب الثقافي، لتحاول صياغة منظومة متعددة الأوجه من آليات العمل السياسي الرسمي (الحكامة) والسلوكيات الفردية والجماعية الرسمية وغير الرسمية الكفيلة، إن لم يكن بدحض آثار العولمة، فعلى الأقل تنشيط آليات المقاومة داخل المجتمعات المستهدفة التي تأتي المجتمعات العربية في طليعتها لانتمائها للحلقة السياسية الأضعف في العالم من جهة، ووقوعها في مناطق مصالح الأقوياء من جهة أخرى. في هذا السياق نتوقف عند إحدى أهم لحظات النقاش العربية حول إشكالية العولمة وآثارها الثقافية وآليات مواجهتها، ويتعلق الأمر بالندوة التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت حول موضوع: (العرب والعولمة) بين ١٨ و٢٠ كانون الأول ١٩٩٧، والتي تميزت بمشاركة نخبة من المفكرين العرب حملت أوراقهم المقدمة على هامش الندوة رؤى عميقة اتجاه العولمة الثقافية، كما قدمت مقترحات نظرية وعلمية للحد من تداعياتها السلبية١٤ فإجابة على سؤال ما العمل إزاء الأخطار التي تطبع علاقة العرب بالعولمة على مستوى الهوية الثقافية، يعرض المفكر محمد عابد الجابري لموقفين يصنفهما منذ البداية ضمن المواقف اللاتاريخية؛ يتعلق الأول بالرفض المطلق وسلاحه الانغلاق الكلي الذي ينقلب إلى موت بطيء لعدم وجود نسبة معقولة من التكافؤ بين إمكانات العولمة والثقافة المنغلقة عليها، فيما يرتبط الثاني بالقبول التام للاستتباع الحضاري والاختراق الثقافي الذي تمارسه العولمة تحت شعار الانفتاح على العصر والمراهنة على الحداثة، بما يعنيه هذا من دعوة للاغتراب واللاهوية. أما البديل حسب الدكتور الجابري فينطلق من العمل داخل الثقافة العربية نفسها من أجل تجديدها (بإعادة بنائها وممارسة الحداثة في معطياتها وتاريخها، والتماس وجوه من الفهم

والتأويل لمسارها تسمح بربط الحاضر بالماضي في اتجـاه المـستقبل ... فتجديـد الثقافة العربية، والدفاع عن الخصوصيات، ومقاومة الغزو والاختراق، كلها أمـور تحتاج إلى اكتساب الأسس والأدوات التي لا بد منها لدخول عصر العلم والثقافـة، وفي مقدمتها العقلانية والديمقراطية ... في الاتجاه نفسه سـارت ورقـة الباحـث السعودي محمد محفوظ مدير تحرير مجلة الكلمة الذي حث على ضـرورة إعـادة الاعتبار لعناصر الثقافة الوطنية، والعمل على تنشيطها في النسيج المجتمعـي، لأن بقاء عناصر الثقافة الوطنية ساكنة، يعني تحول بعضها إلى فلكلور محلي، نشجع به السياحة، ونحنطه في متاحف وأماكن أثرية لا غير، ذلك أن الارتكاز على عناصر الثقافة الوطنية ومقوماتها هو الذي يوفر لنـا أسـباب الـوعي والإدراك الكـافيين لاستيعاب تطورات العالم، وتحديد مستقبلنا. أما الدكتور عبد الإله بلقزيز فلا يـرى في إطار الورقة التي قدمها على هامش الندوة نفسها من حـل سـوى مـا أسـماه الممانعة الثقافية، عبر المقاومة الإيجابية لهذه العولمة أو السيطرة الثقافية الغربيـة، كما أسماها وهو ما لن يتحقق إلا باستعمال الأدوات عينها التي تحققت بها الجراحة الثقافية للعولمة، ذلك أن نظريات علم الاجتماع الثقافي تؤكد أن فعل العدوان الثقافي غالباً ما يستنهض نقيضه(٢٥).

إن قراءة متأنية في الآليات المقترحة من لدن نخبة من المفكرين والأكاديميين العرب الذين شكلت إشكالية الهوية العربية في مقابل الاكتساح العولمي إحدى أهـم ركائز اشتغالاتهم الفكرية، تدفعنا للإقرار بأن المعركة داخلية أكثر بكثير مما هـي خارجية، فالتصدي لآثار العولمة لا يمر عبر المواجهة المكشوفة معها في مختلـف ساحاتها الاقتصادية والسياسية و الاجتماعية، لأن هذا سيكون بمثابة ضـرب مـن الانتحار الهوياتي على الواجهات كافة، بقدر ما يمر عبر الاشتغال علـى الـذات. إنها إشكالية الأنا والنحن أكثر بكثير من كونها إشكالية الآخر؛ بمعنـى أن مـستقبل

الثقافة العربية ليس مرهوناً بالتحديات الخارجية التي تحملها العولمة على أهميتها فحسب، بل يتصل بقدرة هذه الثقافة على إقامة حوار داخلي بين اتجاهاتها وتياراتها وأفكارها، أي بقدرتنا كعرب على إعادة بناء وحدة الفضاء الثقافي العربي بما يضمن حرية تداول الأفكار والمنتجات الفنية والأدبية، إلى جانب تدعيم النشاط الإبداعي وتحريره من الممنوعات والمحرمات، بحيث يصبح الحوار الثقافي والحضاري العربي مقدمة وشرطاً لأي ممانعة ثقافية أو مبادرة منتجة للتواصل مع الثقافات الأخرى(٢٦).

من جهة أخرى، فإن الحديث عن تشكيل وتحصين الهوية الثقافية الداخلية في مقابل الاختراق الثقافي الغربي، يحيل بالضرورة على سيرورة بالغة التعقيد، ترتبط بمختلف المؤسسات الاجتماعية التي توكل إليها مهمة إنتاج القيم والرموز وضمان استمرارها، والتي تأتي المؤسسات الإدماجية التقليدية من قبيل المدرسة والأسرة على رأس قائمتها، الشيء الذي يحيل بقوة الأشياء على التطرق لموضوعة التربية كفاعلية دينامية من شأنها توفير مجال جد ملائم للمقاومة أو الممانعة بتعبير عبد الإله بلقزيز(٢٧)، فإلى أي حد يمكن اعتبار المؤسسات التربوية التقليدية جبهة ممانعة ثقافية لتحصين الذات العربية ضد آليات العولمة والتنميط الثقافي؟

التربية: ساحة ممانعة

تجعل التصورات الكلاسيكية من الممارسة التربوية في مختلف تجلياتها صمام أمان الضبط والمحافظة الاجتماعية، باعتبارها موجهة نحو إنتاج وإعادة إنتاج القيم والرموز عن طريق نقلها بشكل أمين للأجيال المتعاقبة، فعالم الاجتماع الفرنسي ديركايم (DURKHAIM) يقدم التربية باعتبارها العمل الذي تمارسه الأجيال الراشدة على الأجيال التي لم تنضج بعد، من أجل الحياة الاجتماعية. وهدفها أن تثير لدى المتلقي وتنمي عنده طائفة من الأحوال الجسدية والفكرية

والخلقية التي يتطلبها منه المجتمع السياسي في جملته، وتتطلبها البيئة الخاصة التي يعد لها بوجه خاص، ولعل هذا أبلغ تجلٍ لهذه السيرورة في اصطلاحات العلوم الإنسانية والاجتماعية هو ما يمكن اختزاله في مفهوم التنشئة الاجتماعية (socialisation) التي يقدمها السوسيولوجي الكندي غاي روتشر (Guy Rocher) باعتبارها منظومة الأوليات التي تمكن الفرد على مدى حياته من تعلم واستبطان القيم الاجتماعية الثقافية السائدة في وسطه الاجتماعي(٢٨). بهذا المعنى يمكن تصورها كمنظومة عمليات يعتمدها المجتمع في نقل ثقافته، بما تنطوي عليه هذه الثقافة من مفاهيم وقيم وعادات وتقاليد إلى أفراده ... إنها العملية التي يتم من خلالها دمج الفرد في المجتمع والمجتمع في الفرد(٢٩).

وفقاً لمختلف هذه التحديدات تتباين التربية من مجتمع لآخر بتباين النماذج الثقافية والرموز والقيم التي يستهدف كل مجتمع ضمان استمرارها من خلال السهر على تمريرها للأجيال اللاحقة، إلا أنها لا تعدو أن تكون انعكاساً لأساليب السلطة الموظفة في المجتمع وفي مؤسساته، لهذا السبب يتم الرهان في أجرأة غايات وأهداف العملية التربوية على المؤسسات التربوية التقليدية الممتدة من المدرسة إلى الأسرة باعتبارهما مؤسستين اجتماعيتين إدماجيتين تتمحور أهميتهما في المحافظة على الموروث الثقافي والاجتماعي وإعادة إنتاجه بما يضمن عملية الإدماج هاته على المستويين سابقي الذكر: إدماج الفرد في المجتمع وإدماج ثقافة المجتمع في الفرد، غير أن حالة الانفلات الهائل للثورة المعلوماتية وتأثيراتها الجمة على الأفراد والجماعات، بل وعلى الدول نفسها من شأنه أن يطرح أكثر من سؤال حول الهوامش المتاحة لهذه المؤسسات التقليدية في القيام بعملية الإنتاج وإعادة الإنتاج هذه، وبخاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار طبيعة خطاب هذه المؤسسات الأقرب ميلاً إلى المحافظة والأكثر ارتباطاً بالقهر والإكراه، في مقابل الخطاب السمعي البصري الذي يراهن على آخر تقنيات التأثير، وبخاصة أن المشروع الغربي في عصر

العولمة قد أصبح في عهدة الإمبراطوريات السمعية البصرية، بما تملكه من نفوذ وإمكانات وسلطة تمكنها من تقديم مادتها الإعلامية للمتلقي في قالب مشوق يجلب الانتباه عبر تكنولوجيا الإثارة والتشويق، ويقارب عتبة المتعة ومعها يبلغ خطابه الأيديولوجي وأهدافه الاستهلاكية، ويسهم في وأد حاسة النقد لدى المتلقي الذي يصبح قابلاً لتمرير وتلقي جميع القيم والمواقف السلوكية دون اعتراض عقلي أو معاداة نفسية(٣٠). الشيء الذي يجعل المعركة محسومة سلفاً لصالح الخطاب الإعلامي القادم من ما وراء البحار، محملاً بأبطال ورموز جديدة تعيد تشكيل مخيلة المشاهد بدءاً بعارضات الأزياء ونجوم الكرة، وصولاً إلى رموز الفن والسينما والأعمال والألبسة والأطعمة وأنماط السلوك والمفردات اللغوية(٣١)، فيقلل من قدرة المؤسسات التربوية العربية في صورتها الحالية على المنافسة ومقاومة هذه الصور المبثوثة عبر القنوات الفضائية التي أضحت في متناول الجميع بأقل التكاليف في نسختها الأصلية المرتبطة بالإعلام الغربي، أو حتى في امتداداتها الوطنية التي تعيد إنتاج الخطاب نفسه بالآليات نفسها بانتصارها للمنتوج الغربي على حساب المنتوج الوطني إن وجد أصلاً.

الواقع أن هذه المؤسسات لا تستطيع تحقيق اكتفاء ذاتي ثقافي عربي كما لم تستطع الاقتصادات المترهلة ضمان اكتفاء ذاتي غذائي عربي مع خطورة زائدة متضمنة في المقارنة تتمثل في أن اكتساح الإعلام الغربي للمجال الثقافي العربي من شأنه أن يحول هذا الفضاء الداخلي إلى فضاء للإقصاء، فهيمنة أدوات الاتصال السمعي البصري الغربية واكتساحها لكل الفضاءات الممكنة واستئثارها بحيز زمني مهم من وقت المتلقين الذي يبلغ ذروته في النمط التلفزيوني، يجعل الجميع أقرب إلى العيش في عالم افتراضي أثيري يتألف من الصور والإشارات والنصوص المرئية والمقروءة على الشاشات الإلكترونية، بما بات يشكل تهديداً لمنظومات القيم الرموز وتغييراً في المرجعيات الوجودية وأنماط الحياة(٣٢)، إذ أن العالم المرغوب

فيه بالنسبة لزبناء الفضاء السمعي البصري التلفزيوني خاصة لم يعد، بالضرورة، هو العالم الحقيقي الذي يتحرك في إطاره هؤلاء بقدر ما هو هذا العالم الأثيري الافتراضي الذي تنقله وسائل الإعلام الغربية وامتداداتها المحلية أيضاً، فتسهم به في تغيير البنى الذهنية والتشويش، إن لم نقل التضييق، على الأجهزة التقليدية الوصية على الممارسة التربوية، وهذا من شأنه أن يحول المجتمع الحقيقي إلى مجتمع للاغتراب والإقصاء، فالرموز والقيم التي يتشبع بها المتلقي يومياً عبر الفضاء السمعي البصري مختلفة كلياً عن رموز وقيم المجتمع الأصلي ما دامت تصنع خارج حدوده، كما من شأنه أن يفقد المنتوج التربوي المحلي كل قدرة على جلب اهتمام متلقيه ما دام خطاب الأوامر والنواهي الذي يشكل عصبه غير ذي إغراء أمام ثقافة الصورة المشوقة والممتعة.

إن هذه الصورة القاتمة وإن كانت تشكل توصيفاً لحقيقة وضع المؤسسات التربوية والثقافية في دول العالم الثالث، ومن ضمنها الدول العربية لا تعفي هذه المؤسسات من التمسك بأداء الوظائف المنوطة بها، والمتمثلة -كما أسلفنا- في صناعة الرموز والقيم التي تشكل عمق الهوية المحلية، والعمل على ضمان استمرارها، لأن مستقبل الثقافة العربية رهين بإعادة النظر في آليات اشتغال المدرسة والأسرة، فإذا كان من البديهي أن تسعى الولايات المتحدة الأمريكية جاهدة إلى عولمة التربية تحت شعار حماية حقوق الإنسان، ناظرة إلى نموذجها كشرط أساسي لنجاح عولمتها الاقتصادية، مؤمنة بأنه عن طريق التربية التي ترغب في فرضها يمكن تنمية النزعات الاستهلاكية[٣٣]، فإنه من الضروري والملح أن تسعى هذه المؤسسات إلى حماية الأمن الثقافي العربي من خلال إعلان القطيعة مع الآليات التقليدية الموظفة في المجال التربوي العربي عبر صياغة باراديغم تربوي جديد[٣٤] واعٍ بطبيعة المرحلة التي يجتازها العالم والمنطقة، وبطبيعة المسؤولية الجسيمة المنتظرة منه، وهو ما لن يتأتى إلا من خلال تجديد آليات اشتغال هذه

المؤسسات عبر تطوير الأنساق التربوية التقليدية، وإنتاج خطاب تربوي وأسري بديل، أساسه الاشتغال على ميكانيزمات جديدة تهدف إلى تنمية الحس النقدي لدى المتلقي، بما يضمن تجاوباً عقلانياً مع المنتوج الإعلامي الغربي الذي أصبحت إمكانية تفاديه ضرباً من الخيال، وهو ما يسمح بالحديث عن منظومة تربوية تضمن توازناً معقولاً بين ضرورة الحفاظ على معالم الهوية المحلية وحتمية الانفتاح على الثقافات الإنسانية في مختلف تمظهراتها وامتداداتها، فتجعل الماضي في خدمة المستقبل وليس المستقبل رهينة للماضي(٣٥). غير أن معركة المؤسسات التربوية التقليدية لن تحقق أهدافها بأية حال في غياب دعم حقيقي من الفضاء الإعلامي العربي، الذي يجب أن يخرج بدوره من موقف اللعب على ثنائية الاندماج اللامشروط في النموذج الثقافي الغربي تحت يافطة الحداثة والانفتاح، أو إعادة إنتاج نفس آليات المؤسسات الإدماجية التقليدية ممثلاً في خطاب الأوامر والنواهي تحت يافطة الإنتاج الإعلامي الأسري الهادف، والاندماج في مشاريع جديدة أساسها التطلع إلى إشباع حاجات المواطن العربي الثقافية والجمالية من خلال بناء صورة سمعية بصرية خاصة بالذات العربية[٣٦]، تحقق بنجاعة ثلاثية الإخبار والتثقيف والترفيه، بكثير من الجمالية وقليل من الخطابة، صورة سمعية بصرية تسير في تناغم مع ضرورة الحفاظ على الخصوصية المحلية من جهة، والانفتاح على تجليات الثقافة العالمية من جهة أخرى، بما يعنيه ذلك من انتصار للقيم العالمية التي ترتقي بالقيم المحلية إلى مستوى عالمي، دون أن تحرمها من حقها في الوجود، ومواجهة لثقافة العولمة كإرادة للهيمنة واكتساح للخصوصيات الجهوية، ولعلنا لا نجد ما ننهي به هذه المقالة أبلغ من هذه العبارة العميقة المنسوبة لأحد رموز التحرر في التاريخ الإنساني المهاتما غاندي: "أرغب أن تهب رياح جميع الثقافات على نوافذ بيتي، لكني أرفض أن تقتلعني أي منها من جذوري!".

الهوامش

[١] راجع بهذا الخصوص: هانز بيتر مارتين وهارولد شومان. "فخ العولمة"، ترجمة عدنان عباس علي، **عالم المعرفة**، العدد ٢٩٥، الكويت آب ٢٠٠٣.

[٢] انظر التمييز الذي يقترحه حسام الخطيب في: حسام الخطيب. "العالمية والعولمة من منظور مقارني"، **عالم الفكر**، العدد١، المجلد ٣٤، تموز – أيلول ٢٠٠٥.

[٣] راجع بهذا الخصوص: بول هيرست وغراهام طومبسون. "ما العولمة؟ الاقتصاد العالمي وإمكانات التحكم"، ترجمة فاتح عبد الجبار، **عالم المعرفة**، العدد٢٧٣، الكويت أيلول ٢٠٠١.

[٤] انظر: محمد مصطفى القباج. "التربية والثقافة في زمن العولمة"، **المعرفة للجميع**، العدد ٢٤، المغرب، آذار نيسان ٢٠٠٢.

[٥] انظر: رونالد روبرتسون. **العولمة، النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية**، ترجمة أحمد محمود ونورا أمين، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٨.

[٦] سمير أمين. "تحديات العولمة"، **شؤون الأوسط**، العدد ٧١، نيسان ١٩٩٨.

[٧] Hubert vedrine. Mondialisation et pensée unique. In "la méditerranée a l'heur de la mondialisation", cahiers de la fondation abderrahim bouabid .N ٢٧. ١٩٩٧.

[٨] صادق جلال العظم. "ما هي العولمة؟" **الطريق**، العدد الرابع، تموز– آب ١٩٩٧.

[٩] عزمي بشارة. "إسرائيل والعولمة"، **فكر ونقد**، السنة١، العدد ٧، آذار ١٩٩٨.

١٠ محمد مصطفى القباج " التربية والثقافة في زمن العولمة " مرجع سابق.

١١ مفهوم العولمة في الخطاب العربي راجع مثلا :

- ندوة العروبة و العولمة - مركز دراسات الوحدة العربية ط٣ ٢٠٠٠

- أحمد صدقي الدجاني : زلزلة في العولمة و سعي نحو العالمية - دار المستقبل العربي ٢٠٠٣

- جلال أمين : العولمة - دار المعارف القاهرة ط٢ ١٩٩٩

- السيد ولد أباه : إتجاهات العولمة - المركز الثقافي العربي - بيروت ٢٠٠١

١٢ _ غسان سلامة : من الإرتباك إلى الفعل : التحولات العالمية و أثارها العربية دار النهار بيروت ٢٠٠٣ ص ٣٥ - ٣٦

١٣ نورمان فان شربنبرغ : فرص العولمة ترجمة : حسين عمران مكتبة العبيكان ٢٠٠٢ ص ٢٠.

١٤ Alvin Toffler : Powershisft. Knoweldge, wealth and violence at the edge of the ٢١st century Bantam Books ١٩٩٠

١٥ مايكل هارت، أنطونيو نغري - الإمبراطورية : إمبراطورية العولمة الجديدة ترجمة فاضل جتكر - مكتبة العبيكان ٢٠٠٢ ص ٥١٧

١٦ Thomas Friedman : the Lexus and the olive tree Anchor Books ٢٠٠٠

١٧ عبد الهادي بوطالب : " لا بد من تكامل العولمة و الهوية ليكون العالم واحدا و متعددا " ندوة العولمة و الهوية (ص ١٢٦).

١٨محمد سبيلا : الثقافة العربية في عصر العولمة في المجلة العربية للثقافة (الألكسو) العدد ٤٣ سبتمبر ٢٠٠٢.

١٩) على حرب : أوهام النجمة – المركز الثقافي العربي بيروت ١٩٩٨

٢٠) محمود عبد الفضيل : مصر و العالم على أعتاب ألفية جديدة دار الشروق القاهرة ٢٠٠٠ ص ١١٨

٢١ برهان غليون : رهانات العولمة www.mafho

٢٢- نبيل علي. "العرب وعصر المعلومات". **عالم المعرفة**، العدد ١٨٤، الكويت، نيسان ١٩٩٤.

٢٢- G.balandier. tradition. Conformité .historicité.

كما وردت في:

عز الدين الخطابي. **سوسيولوجيا التقليد والحداثة بالمجتمع المغربي- دراسة تحليلية لدينامية العلاقة الاجتماعية**، الدار البيضاء: منشورات عالم التربية، ٢٠٠١.

٢٣ "guy rocher. Le changement social. Introduction à la sociologie generale. Coll.point. paris. 1972. tome III.

٢٤ انظر أعمال ندوة "العرب والعولمة" التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت بين ١٨ – ٢٠ كانون الأول ١٩٩٧.

٢٥ يتم الحديث عن أن الاكتساح العولمي نفسه من شأنه أن ينشط آليات المقاومة داخل المجتمعات المستهدفة، فالشعور بالخطر علامة على ضرورة التحرك الآني، ولعل تنامي الحركات المتطرفة في مختلف بقاع العالم ليست إلا محاولة يائسة من قبل هؤلاء للتصدي للعولمة الثقافية وإن من خلال الانغلاق على الذات ورفض الآخر بشكل جذري. إننا بصدد آليات مقاومة قاسية وآليات

اكتساح قاسية أيضاً.

[٢٦] حامد خليل. "الثقافة العربية وحوار الحضارات"، كما وردت في: أحمد زايد، **عولمة الحداثة وتفكيك الثقافات الوطنية**، مرجع سابق.

[٢٧] عبد الإله بلقزيز، "العولمة والهوية الثقافية: عولمة الثقافة أم ثقافة العولمة"، تقييم نقدي لممارسات العولمة في المجال الثقافي، مرجع سابق.

[٢٨] Guy rocher. Action sociale: introduction à la sociologie generale. ١٩٦٨. M. H. paris ١٩٨٣.

[٢٩] علي وطفة. "المظاهر الاغترابية في الشخصية العربية"، بحث في إشكالية القمع التربوي، **عالم الفكر**، المجلد السابع والعشرون، العدد الثاني، أكتوبر– كانون الأول ١٩٩٨.

[٣٠] عبد الإله بلقزيز. **في البدء كانت الثقافة**، الدار البيضاء: دار إفريقيا الشرق، ١٩٩٨.

[٣١] كريم أبو حلاوة. **الآثار الثقافية للعولمة، حظوظ الخصوصيات في بناء عولمة بديلة**، مرجع سابق.

[٣٢] المرجع نفسه.

[٣٣] نبيل علي. "الثقافة العربية وعصر المعلومات"، **عالم المعرفة**، العدد ٢٦٥، الكويت، كانون الثاني، ٢٠٠١.

[٣٤] نبيل علي. نادية حجازي. **الفجوة الرقمية، رؤية عربية لمجتمع المعلومات**، مرجع سابق.

[٣٥] محمد فاضل. "الإعلام والتربية، بين الحفاظ على الهوية المحلية والانفتاح على الثقافات الإنسانية"، **ملحق تربية وتعليم، الصباح**، العدد ١٦١٤، ١٥ حزيران ٢٠٠٥.

[٣٦] راجع بهذا الخصوص: محمد شكري سلام. "ثورة الاتصال والإعلام: من الأيديولوجيا إلى الميديولوجيا، نحو رؤية نقدية"، **عالم الفكر**، العدد ١، المجلد ٣٢، تموز- أيلول ٢٠٠٣.

مراجع

أولاً- الكتب:

- هانز بيتر مارتين وهارولد شومان. "فخ العولمة"، ترجمة عدنان عباس علي، عالم المعرفة، العدد ٢٩٥، الكويت آب ٢٠٠٣.
- بول هيرست وغراهام طومبسون. "ما العولمة؟ الاقتصاد العالمي وإمكانات التحكم"، ترجمة فاتح عبد الجبار، عالم المعرفة، العدد٢٧٣، الكويت، أيلول ٢٠٠١.
- محمد مصطفى القباج، "التربية والثقافة في زمن العولمة"، المعرفة للجميع، العدد ٢٤، المغرب، آذار – نيسان ٢٠٠٢.
- رونالد روبرتسون. العولمة، النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية، ترجمة أحمد محمود ونورا أمين، القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٨.
- مايك كرانغ. "الجغرافيا الثقافية، أهمية الجغرافيا في تفسير الظواهر الإنسانية"، ترجمة سعيد منتاق، عالم المعرفة، العدد ٣١٧، الكويت، تموز ٢٠٠٥ .
- المهدي المنجرة. الإهانة في عهد الميغا إمبريالية، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٤.
- نبيل علي، نادية حجازي. "الفجوة الرقمية، رؤية عربية لمجتمع المعلومات"، عالم المعرفة، العدد ٣١٨، الكويت، آب ٢٠٠٥.
- نبيل علي. "العرب وعصر المعلومات"، عالم المعرفة، العدد ١٨٤، الكويت، نيسان ١٩٩٤.
- عز الدين الخطابي. سوسيولوجيا التقليد والحداثة بالمجتمع المغربي، دراسة تحليلية لدينامية العلاقة الاجتماعية، الدار البيضاء: منشورات عالم التربية،

٢٠٠١.

- عبد الإله بلقزيز. في البدء كانت الثقافة، الدار البيضاء: دار إفريقيا الشرق، ١٩٩٨.
- نبيل علي. "الثقافة العربية وعصر المعلومات"، عالم المعرفة، العدد ٢٦٥، الكويت، كانون الثاني ٢٠٠١.

ثانياً- المقالات:

- حسام الخطيب. "العالمية والعولمة من منظور مقارني"، عالم الفكر، العدد١، المجلد ٣٤، تموز - أيلول ٢٠٠٥.
- سمير أمين. "تحديات العولمة"، شؤون الأوسط، العدد ٧١، نيسان ١٩٩٨.
- صادق جلال العظم. "ما هي العولمة؟"، الطريق، العدد الرابع، تموز- آب ١٩٩٧.
- عزمي بشارة. "إسرائيل والعولمة"، فكر ونقد، السنة١، العدد ٧، آذار ١٩٩٨.
- عزيز مشواط، "إشكالية الهوية في العلوم الإنسانية، مأزق الإشكال وقلق المفهوم"، جريدة المنعطف، العدد ٢٣٧٧، ٢٨ أيلول ٢٠٠٥.
- محمد عابد الجابري. "العولمة ومسألة الهوية بين البحث العلمي والخطاب الأيديولوجي٢"، فكر ونقد، السنة الثالثة، العدد ٢٢ تشرين الأول ١٩٩٩.
- أحمد زايد. "عولمة الحداثة وتفكيك الثقافات الوطنية"، عالم الفكر، العدد ١، المجلد ٣٢، الكويت، تموز-أيلول ٢٠٠٥.
- محمد علي الفرا. "العولمة والحدود"، عالم الفكر، العدد ٤، المجلد ٣٢، الكويت، نيسان- تموز ٢٠٠٤.
- محمد عابد الجابري. "العولمة والهوية الثقافية: عشر أطروحات"، ورقة مقدمة

في إطار ندوة حول: "العرب والعولمة" نظمها مركز دراسات الوحــدة العربيــة في بيروت بين ١٨ – ٢٠ كانون الأول ١٩٩٧.

- سيد أبو ضيف أحمد. "الهيمنة الأمريكية: نموذج القطب الواحــد وســيناريوهات النظام الدولي الجديد"، عالم الفكر، العدد ٣، المجلد ٣١، الكويت، كانون الثاني– آذار ٢٠٠٣.
- عبد الإله بلقزيز، "العولمة والهوية الثقافية: عولمة الثقافة أم ثقافة العولمة"، تقييم نقدي لممارسات العولمة في المجال الثقافي، ورقة مقدمة في إطار ندوة حــول: "العرب والعولمة" نظمها مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت بــين ١٨ – ٢٠ كانون الأول ١٩٩٧.
- كريم أبو حلاوة. "الآثار الثقافية للعولمة، حظوظ الخصوصيات في بناء عولمــة بديلة"، عالم الفكر، العدد ٣ المجلد ٢٩، كانون الثاني– آذار ٢٠٠١.
- علي وطفة. "المظاهر الاغترابية في الشخصية العربية"، بحث في إشكالية القمع التربوي، عالم الفكر، المجلد السابع والعشرون، العدد الثــاني، تــشرين الأول– كانون الأول ١٩٩٨.
- محمد فاضل. "الإعلام والتربية، بين الحفاظ على الهوية المحلية والانفتاح علــى الثقافات الإنسانية"، ملحق تربية وتعليم، الصباح، العــدد ١٦١٤، ١٥ حزيــران ٢٠٠٥.
- محمد شكري سلام. "ثورة الاتصال والإعلام: من الأيديولوجيا إلى الميديولوجيا، نحو رؤية نقدية"، عالم الفكر، العدد ١، المجلد ٣٢، تموز– أيلول ٢٠٠٣.

حرب الثغور بين الدولة العباسية والبيزنطيين

أ.د. عطية القوصي
قسم التاريخ ــ كلية الآداب
جامعة القاهرة

وقع الصدام بين العرب والروم الشرقيين (البيزنطيين) منذ ظهور الإسـلام، تبعًا لتطبيق الأمر الإلهي للرسول ﷺ بضرورة نشر الإسلام في جميع أصقاع الأرض حيث أنَّ رسالته جاءت آخر رسالات السماء إلى الأرض ودعوته آخر الدعاوى يقوم بها نبي ورسول بوحدانية الله تعالى.

وقد وُلد الهدى محمد رسول الله ﷺ وأشرقت شمس النور والهداية على الدنيا من بلاد الحجاز بعد طول ظلام، وبعد ألف وثلاثمائة عام مضت على تأسيس مدينة روما، وأكثر من خمسمائة عام بعد ميلاد السيد المسيح، وبعد مائتي عام من تأسيس مدينة القسطنطينية على يد الإمبراطور قنسطنطين الأكبر على ضفاف القرن الذهبي والبسفور عام ثلاثمائة وأربعة وثلاثين للميلاد بداية تاريخ إمبراطورية الروم البيزنطيين.

وجاء الإسلام، في أعقاب المسيحية، ليصحح للناس مفاهيم الدين وليعيدهم إلى الوحدانية وعبادة الله الواحد الأحد رب العالمين، وليكون آخر دعوات السماء إلى أهل الأرض وأخر عناق بين السماء والأرض على يد محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين وآخر المبشرين والمنذرين.

وكانت المسيحية قد سادت العالم آنذاك كديانة كتابية بعد أن انتصرت في

حروبها خلال سنين طويلة على الوثنية، وبعد أن اعترف بها أباطرة الروم كديانــة رسمية لدولتهم. ولقد جاء انتصار المسيحية على الوثنية وإقبال شعب الإمبراطورية الرومانية عليها منذ القرن الأول الميلادي بسبب زهد الناس في الــديانات الوثنيــة وعجز تلك الديانات عن إشباع المتطلبات الروحية عندهم بعد التغيرات الكبرى التي حدثت نتيجةً لتوحيد الرومان للعالم ونشر السلام فيــه ممــا أدى إلــى الازدهــار الاقتصادي وطغيان الجانب المادي على الجانب الروحي. ولمَّا تاق النــاس للعــودة إلى الروحانيات، وكانوا قد سئموا الوثنين تمامًا، أخذوا يستجيبون لتعاليم المــسيحية التي رأوا فيها ديانة روحانية سامية وليدة جاءتهم مــن فلــسطين لتــروي ظمــأهم الروحي وتحلق بهم في عالم السماء اللانهائي.

ولقد أقبل على هذه الديانة فئات معينة من الناس شــملت الطبقــات الفقيــرة المطحونة وطبقة الرقيق المستعبدة وشــعوب الــبلاد التــي اســتعبدها الرومــان واضطهدوها وحرموها من حق المواطنة الرومانية، وكان إتباعهم لها معيًــا مــنهم وراء وعهدها لهم بالتعويض عن ظلم الدنيا بسعادة الروح في الآخرة وأملاً في نعيم الفردوس الأخروي.

ولقد اعتبرت الإمبراطورية الرومانية، المسيحية، فــي أول الأمــر، حركــة منشقة عن اليهودية، واعتبر المسيحيين طائفة من اليهود يسرى عليهم مــا يــسرى على بني جلدتهم من اليهود. وكان الرومان يعترفون بوجود الديانة اليهودية كديانــة قائمة ومسموح بممارستها مقابل أن يدفع اليهود جزية سنوية على رأس كــل بــالغ منهم. وقد وقف الرومان موقف الحياد، أول الأمر، أثناء دعوة السيد المــسيح ولــم يعترضوا سبيله، واعتبروا دعوته خلافًا مذهبيًا بينه وبين جماعة من بني إســرائيل. لكن اليهود أنفسهم لم يرتاحوا لدعوى السيد المسيح لأنه نادى بعبادة إله غير (يهوا)

إله بني إسرائيل ونادى بالمساواة بين كل الناس ولم يجعل الأفـضلية لـشعب بنـي إسرائيل، شعب الله المختار بحسب زعمهم، وحرضوا الوالي الروماني في فلسطين على القبض عليه والخلاص منه، فاضطر الوالي الروماني إلى فعـل ذلـك، وهـو كاره. وبعد غياب السيد المسيح عن الساحة أعلن أتباعه الانفصال التام عن المعبـد اليهودي وتأسيس ديانتهم التي نسبوها للمسيح وسموا أنفسهم المسيحيين christiani بعد اجتماع عقوده سنة ٤٨ ميلادية في بيت لحم بفلسطين في عهـد الإمبراطـور الروماني " كلاديوس ".

غير أنَّ الرومان لم يعترفوا بهذا الانفصال الجديد للمسيحيين، فحرموهم مـن الامتياز الممنوح لليهود مِنْ قِبل الدولة والمتضمن إعفائهم من عبادة الإمبراطـور، وهو امتياز مُنح لليهود فقط دون سائر أصحاب العقائد والديانات الأخرى المنتـشرة في ربوع الإمبراطورية. فكان لزامًا إذن آنـذاك يعبـد المـسيحيون الإمبراطـور الروماني إلى جانب عبادتهم إلههم، لكن المسيحيين رفضوا ذلـك رفـضًا قاطعًـا، وأعلنوا ذلك في تحدٍ سافرٍ للإمبراطور الروماني دون مبالاة منهم لِما سيدفعونه من ثمن نتيجة هذا التحدي.

ومضى المسيحيون قُدمًا في تحديهم، وبالتالي اعتبـرهم الأبـاطرة الرومـان خارجين على الدولة ومنشقين ومتآمرين عليها وخائنين لهـا. ولمّـا كـان المـوت والتعذيب جزاء الخارج المنشق كان الموت والتعذيب جزاء المسيحيين، فوقع بـذلك الاضطهاد الشديد على المسيحيين الذين تحملوها ببسالة وصـبروا فـي مجابهتـه وضربوا في ذلك أروع الأمثلة في التضحية والاستشهاد. وبرغم هـذا الاضـطهاد الذي وقع على أتباع المسيحية فإن هذه الديانة انتشرت في العالم انتـشارًا واسـعًا خلال القرن الثالث الميلادي وأصبح لا ينافسها، على مـستوى العـالم، إلا الديانـة

المجوسية الفارسية.

وكانت أكثر فترات الحكم الروماني اضطهادًا للمسيحيين حين حكم الإمبراطورية الرومانية أباطرة عسكريون من منطقة إيلليريا في الفترة من سنوات (٢٣٥-٢٨٥م)، بداية بعهد حكم الإمبراطور ديثيوس ونهاية بعد حكم الإمبراطور دقلديانوس، وقد وقع أشع البطش بالمسيحية في عهد دقلديانوس، الذي عُرف عهده عند النصارى اسم " عصر الشهداء."، حتى أنَّ كنيسة الإسكندرية جعلت تقويمها يبدأ بسنة ٢٨٤م وهي سنة جلوس هذا الإمبراطور على العرش احتفاءًا بعصر الشهداء.

ولم يتنفس المسيحيون الصعداء إلا بداية من عهد الإمبراطور الروماني قنسطنطين الذي اعترف بالديانة المسيحية ديانة قائمة شأنها في ذلك شأن باقي الديانات الوثنية في الإمبراطورية، وذلك حين أصدر مرسومه الشهير المعروف بمرسوم " ميلان " سنة ٣١٣م.

وتطور الأمرُ بعد ذلك بالمسيحية حين صارت ديانة دولة الروم الوحيدة الرسمية حين دخل أباطرة الروم، بعد قنسطنطين، في هذا الدين واختفى ما دونها من الديانات الوثنية الأخرى، وصاو أولئك الأباطرة حماة للمسيحية ورعاة لكنيستها. وما كادت المسيحية تتسيد الديانات في العالمْ وتنتشر في أنمائه إلا وانقسمت على نفسها إلى طوائف ومذاهب متنافرة مختلفة في صميم العقيدة ذاتها وفي تحديد طبيعة المسيح. وصارت المشكلة المسيحية وانشقاقها على نفسها من أهم المشاكل التي كان على أباطرة الروم أن يواجهوها وأن يعالجوا آثارها فانعقدت، تبعًا لذلك، المجامع الكنسية المسكونية في نيقية سنة ٣١٥م وفي صور سنة ٣٣٤م، وفي القسطنطينية سنة ٣٨١. ونتيجة لخلاف أحكام هذه المجامع وُجد شرخٌ فاصل

بين كنائس الشرق وكنائس الغرب مما أدى إلى انقسام الكنيسة المسيحية إلى شقين : الشق الأول وتمثله كنيسة القسطنطينية ويرأسها بطريركها، وهي التي تحولت، فيما بعد إلى كنيسة الروم الأرثوذكسي، والشق الثاني وتمثله كنيسة القديس بطرس في روما ويرأسها البابا، والتي تحولت فيما بعد إلى الكنيسة الكاثوليكية. وبين الاثنين بدأت كنيسة الإسكندرية في الاستقلال بشخصيتها وآرائها وهي التي تحولت فيما بعد إلى الكنيسة القبطية اليعقوبية.

وبسبب هذا الاختلاف بين المذاهب المسيحية عاشت الإمبراطوريتان الرومانيان الغربية والشرقية في خلاف وعداء، وصارت كل فرقة من هذه الفرق تدّعي أنها الأصح وتكفر الفرق المخالفة لها في الرأي والاعتقاد، وظل المسيحيون في المشرق والمغرب في حيرة بين هذه المذاهب والفرق دون الوصول إلى رأي نهائي ومذهب موّحد يجتمع تحت رايته جميع المسيحيين في العالم.

ولم يكن الصراع الديني وحده هو الذي يمزق إمبراطورية الرومان، بل قاست إمبراطورية الغرب من هجمات القبائل الجرمانية التي أغارت على أراضيها من شمال أوربا، كذلك قاست إمبراطورية الشرق من حربها مع الفرس وعدوانهم على مستعمراتها الشرقية في بلاد الشام ومصر وشمال أفريقيا وحوض البحر المتوسط. وما كادت تلك الحروب تتوقف بين الدولتين الكبيرتين في العالم القديم، حتى واجه البيزنطيون خطر الزحف الإسلامي على مستعمراتهم في الشرق كما واجه الفرس نفس هذا الخطر على مُستعمراتهم وعلى دولتهم جميعًا.

وما كادت الحرب تتوقف بين الفرس والروم في بداية العصور الوسطى ويقع الصلح بينهما سنة ٦٢٨م، وقد أضعفت هذه الحروب كلا الطرفين وأنهكت قواهما، لم تكن أي من الإمبراطوريتين على علم بذلك التطور الذي حدث ف جزيرة العرب

بقيام دولة الإسلام هناك لتنشر الدين الخاتم في كل العالم، وليدعو نبي الإسـلام ﷺ شعوب الروم والفرس إلى الإسلام تنفيذًا لأمر الله تعالى له. وقد كتب الرسـول ﷺ، بعد عقده صلح الحديبية، سنة ٦ هجرية يدعو الإمبراطور البيزنطي إلى الإسلام في كتاب أرسله له رسوله من عنده، ضمن مجموعة الكتب التي أرسلها عليـه الـسلام لملوك وحكام العالم آنذاك. وقد جاء نص كتاب الرسول ﷺ إلى هرقل عظيم ملـك الروم البيزنطيين كالآتي :

" بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد بن عبدالله ورسوله إلى هرقـل عظـيم الروم، سلامٌ على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلِم تـسلم يؤتِك الله أجرك مرتين فإنْ توليت فإن عليك إثم الأريوسيين. يا أهل الكتاب تعـالوْا إلى كلمةٍ سواء بيننا وبينكم ألا نعبدُ إلا الله ولا نشرك به شـيئًا ولا يتخـذ بعـضُنا بعضًا أربابا مِنْ دون الله فإنْ تولو فولوا اشهدوا بأنَّا مسلمون ".

وبعد أن بلَّغ محمد ﷺ الرسالة وأدى الأمانة على مستوى العالم وأوضح لقادة هذا العالم أنه البشير والنذير وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين، ولمّا لم يـستجب حكـام شعوب العالم لهذه الدعوة وفي مقدمتهم إمبراطور بيزنطة كان عليه هو ومنْ تـولى قيادة دولة الإسلام منْ بعده أن يعملِ على إزالة هؤلاء الحكام عن طريق شـعوبهم حتى يضعوا هذه الشعوب أمام حقيقة هذه الدعوة الأخيرة المنزلة إلى الأرض مـن رب السموات والأرض، ومن هذا المنطلق كان الجهاد الإسلامي والحـرب ضـد ملوك الفرس وأباطرة الروم حكام العالم آنذاك الذين وقفوا حـاجزًا بيـنهم وبـين شعوبهم دون التعرف على الإسلام.

وقد بدأ رسول الله ﷺ الجهاد ضد الروم لتوصيل رسـالة الإسـلام وتبليغهـا لأهل المناطق الواقعة إلى شمال المدينة عند حدود دولة الروم، هذه المنطقـة التـي

كان حكمها الغساسنة، أتباع دولة الروم. وقد وقعت معركة مؤتة بين المسلمين والغساسنة وحلفائهم الروم في جمادي الأول سنة ٨ هجرة، وكانت تتكون من سبعمائة مقاتل كان قد نبدهم رسول الله ﷺ للمسير إلى تخوم البلقاء (الأردن الحالية) حيث دارت معركة مؤتة، التي لم تحقق من أغراضها سوى إظهار قوة دولة الإسلام الوليدة للروم. وتبع هذه الغزوة، غزوة قام بها رسول الله ﷺ وقادها بنفسه إلى بلاد الروم، بعد فتح مكة سنة ٨ هجرية، بحوالي عشرة شهور، انتقامًا لما حدث للمسلمين ف معركة مؤتة، وتوجه بها إلى تبوك التي تقع على بُعد حوالي ٦٠٠كم من المدينة في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة. وعُرف الجيش الذي قاده في هذه الغزوة "بجيش العسرة"، وقد بلغ عدد رجاله ثلاثين ألف مقاتل، وقد سُموا بذلك بسبب أنَّ وقت إنفاذها كان صيفًا شديد الحرارة وأصاب البلاد سنتها جدب شديد. وأقام رسول الله ﷺ عشرة ليال في تبوك لم يفارقها دون أن يظهر له الروم ثم قفل راجعًا إلى المدينة بعد أن حقت الغزوة الأهداف التي خرج من أجلها وهي التحدي الحقيقي لدولة الإسلام الناشئة لدولة الروم الكبرى. وبحملة رسول الله ﷺ هذه إلى بلاد الروم أوحى عليه السلام لمن سيحكم بعده دولة الإسلام أن يتعهد بحرب الروم وغزو بلادهم وهذا ما تم في عهد الراشدين والأمويين.

وتوالت الانتصارات العربية على قوات الفرس والروم، وسقطت في يد العرب، في فترة وجيزة لم تتجاوز العشر سنوات، كل الإمبراطورية الفارسية، كما سقطت في أيديهم بلاد الشام ومصر وأفريقية التي انتزعوها من يد الروم.

واستمرت الحرب بين العرب والروم (البيزنطيين) طوال عهد الراشدين والعهد الأموي، وقد هددت الفتوح العربية القسطنطينية ذاتها، عاصمة بيزنطة ثلاث مرات ورامت فتحها والاستيلاء عليها وإسقاط الدولة البيزنطية جميعها، المرة

الأولى في عهد الخليفة عثمان بن عفان، والمرة الثانية في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان، والمرة الثالثة والأخيرة في عهد الخليفة الأموي سليمان بن عبدالملك.

وكان الأمويون قد استطاعوا، منذ أن اتخذوا بلاد الشام قاعدةً لهم، ودمشق حاضرة لحكمهم، أن يستفيدا من الموقع البحري لبلاد الشام على البحر المتوسط ومن خبرة أهلها وخبرة أقباط مصر في إنشاء البحرية الإسلامية لتقف في وجه الأسطول البيزنطي الذي كان يتسيد البحر المتوسط آنذاك حتى عُرف بأنه " بحيرة رومية ". وسرعان ما تحولت هذه السيادة للبحرية الإسلامية في العهد الأموي، فتحول هذا البحر إلى بحيرة عربية، وتحول المسلمون، حين صارت لهم السيادة على مياه هذا البحر، من موقف المدافعين عن شواطئهم الواقعة عليه إلى المهاجمين للقواعد البحرية البيزنطية في شرق البحر المتوسط، تلك القواعد التي كان يثب منها البيزنطيون على سواحل مصر والشام الإسلامية. وتأتي جزيرة قبرص في مقدمة هذه القواعد، وهي لا تبعد عن سواحل الشام سوى أميال قليلة.

ولقد نجح معاوية بن أبي سفيان سنة ٢٨ هجرية في غزو قبرص، واتجه، بعد ذلك، إلى محاولة فتح القسطنطينية منها بحرًا، وقد قام بإعداد حملتين بحريتين في هذا الصدد ولكنها منيتا بالفشل. كذلك مُنيت بالفشل المحاولة التي قام بها الخليفة سليمان بن عبدالملك، بعد ذلك، وجعل قيادتها لأخيه البطل مسلمة بن عبدالملك. ويرجع فشل هذه الحملات إلى حصانة موقع القسطنطينية وقوة تحصينها واستبسال الروم في الدفاع عنها، واستخدامهم سلاح النار الإغريقية في القتال ضد المسلمين، وهو سلاح لن يكن آنذاك في يد المسلمين في عهد حكم البيت الأيزوري للدولة البيزنطية؛ فضلاً عن البرد القارص الذي تعرض له المحاصرون للعاصمة وهو برد لم يعتادون على مواجهته.

ولقد استفاد المسلمون في حربهم ضد البيزنطيين في العهد الأموي من ذلــك الاضطراب الذي وقع في بيزنطة بسبب ما عُرف باسم الحرب اللاأيقونية (حركــة تحريم عبادة الصور والتماثيل)، والأيقونة لفظ يوناني من Icons بمعنى الصور أو الرسوم التي تمثل أشخاص السيد المسيح والسيدة العذراء والقديسين والمــسيحيين. وقد شغلت هذه المسألة المجتمع البيزنطي مدة تزيد على قرن من الزمـــان، وحمــل لواءها الإمبراطور ليو الثالث (٩٩-١٢٤هـ/٧١٧-٧٤١م) حينما صمم على وضع حد لهذه العادات الوثنية بعد أنْ أصبح ظاهرة متفشية بين رعاياه، فقام بشن حملــة على أنصارها. وقد اشتد الجدل والنزاع حول مــسألة الأيقونـــات واتهــم خــصوم الإمبراطور ليو ومعاداته للأيقونات تأثره بمؤثرات إسلامية وحزوه في ذلك حــزو الخليفة الأموي يزيد بن عبدالملك (١٠٠-١٠٥هـ) الذي أمــر بإزالــة الأيقونـــات المقدسة من جميع الكنائس الموجودة في بــلاد الدولــة الإســلامية. وقــد أصــدر الإمبراطور ليو سنة ١٠٨هـ مرسومًا يطلب فيه رفع الصور المقدسة وتــدميرها. وأدى هذا المرسوم إلى معارضة الرهبان وبطريرك القسطنطينية وبابا رومـــا لــه. وأدى ذلك إلى زياد الفوضى في الدولة وزادت الهوة بين روما والقسطنطينية حــين أصدر البابا سنة ٧٣١م قرار الحرمان ضد ليو وضد كل من يحـــارب الأيقونـــات. وترتب على كل هذا أنْ سادت الفوضى في البلاد، فاستغل المسلمون حالة الفوضى هذه في الدولة البيزنطية وزادوا من هجماتهم عليها، وحاولوا أكثر من مرة إســقاط عاصمتهم القسطنطينية.

وعلى جانب آخر، فلقد استفاد الروم، كذلك، من الاضطرابات التي وقعت في الدولة الإسلامية في أواخر العهد الأموي، الأمر الــذي أضــعف المــسلمين أمـــام البيزنطيين وصرفهم عن الجهاد ضدهم إلى مقاومة الفوضى التي ســادت بلادهــم. فنجد الإمبراطور البيزنطي " قسطنطين الرابع " يجد في هذه الاضطرابات فرصــة

سانحة لشن الغارات على البلاد الإسلامية المتآخمة لحدوده.

وفي العهد العباسي الأول تغيرت الأحوال في العلاقة بين المسلمين والبيزنطيين نتيجة لانتقال الخلافة إلى بيت حاكم جديد وما ترتب على ذلك من قلة اهتمام العباسيين بالبحرية الإسلامية في شرقي البحر المتوسط وازدياد اهتمامهم بها في الخليج العربي مع تركيزهم على القوة البرية عمومًا دون القوة البحرية، فضلاً عن عدم ثقة العباسيين بأهل الشام ثقة الأمويين بهم، ومن ثمَ قل اهتمام العباسيين على الأمويين بالبحرية الإسلامية في حوض البحر المتوسط، مثلما قل اعتمادهم على أهل الشام في دفاعهم عن دولتهم.

وقد ترتب على هذه العوامل الحادثة الجديدة أن أصبح النزاعُ بين العرب والبيزنطيين ينحصر في إغارات حدودية الغرض منها الهدم والتخريب، أي انحصرت في تلك الغارات التي كانت تقع عبر المنطقة الفاصلة بينهما، التي عُرفت عند المسلمين باسم " الثغور " أو " العواصم "، وهي تشمل الخط الممتد من جبال طوروس إلى هضبة قبا دوقيا، والثغور جمع " ثغر "، وهي تعني خط الحصون الخارجي الممتد برًا وبحرًا من بلدة ملطية على الفرات الأعلى إلى طرسوس على ساحل البحر المتوسط، وقد سُميت كذلك لمواجهتها للثغور والمنافذ التي في أرض العدو وهي مقامٌ يقيم فيه الجند لدفع العدو أو لغزو بلاده.[١]

وكانت الغازات الحدودية بين العباسيين والبيزنطيين تحدث، في أغلب الأحيان، في فصل الصيف؛ نظرًا للطبيعة الجبلية لهذه المنطقة التي يصعب التحرك فيها شتاءً لتغطية الثلوج الكثيفة لقمم جبالها، ولذلك عُرفت هذه الغارات باسم "الصوائف". كما كانت هناك غارات تتم في الشتاء لكنها كانت قليلة عُرفت "بالشواتي" وكان خروج الصوائف يتم ما بين منتصف شهر مايو ولمدة شهر،

والشواتي في منتصف شهر مارس ولا يزيد عن عشرين يومًا.

وقد لجأ العباسيون إلى تقوية الحاميات الموجودة في منطقة الثغور فنقلوا إليها كثيرًا من القبائل العربية للإقامة فيها وهم على أهُبة الاستعداد للجهاد ورد غـارات البيزنطيين. وكانوا في رباط دائم ولذلك عُرفوا باسم " المـرابطين ". وقـد وجَّـه الخليفة هارون الرشيد عنايته الخاصة بهذه المنطقة بأنْ هيأ لهم وسائل الحكم الذاتي ووسائل الدفاع الخاصة بها دون الرجوع إلى عاصمة الخلافة؛ فقام بإصلاح إداري عام، وذلك بفصلها عن ولاية الجزيرة وقنسرين وجعلها ولاية مستقلة عُرفت بولاية الثغور، وجعل عاصمتها مدينة طرسوس.

وتواصلت الهجمات بين الطرفين، وكان البيزنطيون يسارعون بمجرد تـدخل القوات الإسلامية في منطقة حدودهم إلى طلب الصلح مع المسلمين ويرتضون بدفع الجزية، وحين تتاح لهم فرصة الانقضاض ونقض الصلح كانوا يعودون إلى الهجوم والتخريب ويمتنعون عن إرسال الجزية المقدرة عليهم؛ مما يضطر الدولة الإسلامية إلى معاودة مهاجمة الحدود.

وقد حدث أول فداء للأسرى بين العباسيين والبيزنطيين سنة ١٨٩ هجرية في عهد خلافة الرشيد. ثم تتابع الفداء بعد ذلك في عهد بقيـة خلفـاء العباسـيين فـي عصرهم الأول. ولقد ورد في كتاب " تاريخ الرسل والملوك " للطبـري، وكتـاب "التنبيه والإشراف " للمسعودي، وصفًا للأفدية التي تمت بين المسلمين والروم فـي العهد العباسي. ويتضح لنا من هذا الوصف الطريقة التي أُتبعت في فداء الأسـرى وأعداد هؤلاء الأسرى الذين تم فداءهم من كلا الجانبين.

ويروي الطبري عند ذكره لأحداث عام ٢٣١هـ، أنه في شهر المحرم مـن هذا العام جرى الفداء بين المسلمين والروم، وكان عدد الأسرى الذين مع الروم من

المسلمين أكثر من عدد أسرى الروم الذين كانوا في يد المسلمين، فرأى الخليفة "الواثق" الذي كان في الخلافة آنذاك أن يُكمل من عنده من نقص بشرا رقيق الروم من أسواق النخاسة، كما أخرج من قصره كثيرًا من الجواري الروميات حتى تكافأ عدد أسارى الروم مع أساري المسلمين. وذكر الطبري أنّ عملية الفداء هذه استغرقت أربعة أيام. وبلغ عدد منْ أُفتدى أثناءها من المسلمين ٤٤٠٠ أسيرًا مسلمًا من الرجال والنساء. وأضاف الطبري بأن عملية الفداء قد تمت على نهر صغير غربي مدينة طرسوس بآسيا الصغرى، يُقال له "نهر اللامس ". وبيَّن أن المسلمين كانوا قد أقاموا على هذا النهر جسرًا وكذلك الروم، فكان المسلمون يُطلقون أسرى الروم على جسرهم وكذلك كان يفعل الروم بأسرى المسلمين.

وإذا ما تتبعنا تاريخ الإغارات بين المسلمين والبيزنطيين في العهد العباسي الأول نرى أنّ البيزنطيين بدأوا بشن غاراتهم على أرض الدولة العباسية في عهد الخليفة العباسي الثاني " أبى جعفر المنصور " سنة ١٣٧هـ. فهاجم في هذا العام الإمبراطور " قنسطنطين الخامس " بعض أراضي الشام واستولى على مدينة ملطية وقام بتخريبها؛ إلا أنّ المسلمين نجحوا في العام التالي في استردادها من أيديهم، وقاموا بإصلاح ما خربه البيزنطيون فيها، كما قاموا بترميم حصونها، وأودعوا فيها حامية كبيرة للدفاع عنها.

وفي سنة ١٥٥هـ، نرى الإمبراطور البيزنطي قنسطنطين الرابع يطلب الصلح مع العباسيين مقابل دفعه جزية سنوية.

ونقرأ في الطبري عن الصوائف التي قام بها المسلمون ضد الروم في سنوات ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨هـ على التوالي، وذلك في أواخر عهد خلافة أبي جعفر المنصور.

وفي سنة ١٥٩هـ خرج الخليفة المهدي بنفسه على رأس جيش كبير لغزو بلاد الروم. كذلك نسمع عن حملات إسلامية على بلاد الروم في سنوات ١٦٠ و ١٦١هـ كان النصر فيها يتأرجح بين المسلمين والروم.

وفي سنة ١٦٣هـ أغار الروم على حدود الدولة العباسية واستولوا على مدينة " مرعش " وأحرقوها، فأرسل المهدي لهم جيشًا، غير أنّ الروم عادوا مسرعين إلا بلادهم، ولكنهم أغاروا مرة ثانية على الحدود؛ فخرج المهدي بنفسه على رأس جيش كبير بلغ عدده (١٥٠ ألفًا) فهزم الروم هزيمة شديدة تعهدوا بعدها بدفع الجزية.

وفي سنة ١٦٥هـ، جهز المهدي جيشًا كبيرًا وخرج به إلى بلاد الروم ووصل بجيشه إلى سواحل البسفور وأوقع الهزيمة بقوات الإمبراطور " ليو الرابع " الذي تُوفى أثناء القتال سنة ١٦٤هـ، فقامت زوجته " الإمبراطورة إيرين " الوصية على ابنها الطفل " قنسطنطين السادس " بدفع جزية سنوية للمسلمين قُدرت بتسعين ألف دينار، مع تعهدها برد أسارى المسلمين.

هذا وقد تميز عهد الخليفة المهدي العباسي بكثرة حروبه مع البيزنطيين وكثرة انتصاراته عليهم؛ الأمر الذي جعل أباطرة الروم يخافونه ويهابونه ولا يتأخرون في دفع ما عليهم من جزية.

ولقد اعتلى الإمبراطور نقفور الأول عرش الإمبراطورية البيزنطية سنة ١٨٦هـ، وكان خليفة المسلمين آنذاك هارون الرشيد بعد وفاة أبيه المهدي، وأرسل نقفور إلى الرشيد سنة ١٨٧هـ كتابًا ينقض فيه الهدنة مع المسلمين، ويلح في خطابه للرشيد بأن يعيد إليه الجزية التي كانت تدفعها الإمبراطورة إيرين للمسلمين، وقد جاء في خطاب نقفور للرشيد النص التالي :

" مِنْ نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد، فإنَّ الملكة التي كانت قبلي قد أقامتك مقام (الرخ)، أي مقام الملك في لعبة الشطرنج، وأقامت نفسها مقام (البيذق) أي مقام عسكري الشطرنج، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقًا بحملِ أمثاله إليها؛ لكنَّ ذلك ضعف النساء وحُمقُهن. فإذا قرأت كتابي فأردُد ما حصَّل قبلَك من أموالها وإلا فالسيف بيني وبينك ".

فغضب الرشيد أشد الغضب من هذا الخطاب ومن لهجته الوقحة، فلم يكلف نفسه بالرد على خطاب مِنْ عنده، بل أعاد له خطابه وقد كتب على ظهره التالي :

" بسم الله الرحمن الرحيم، مِنْ هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، أمَّا بعد، فقد قرأتُ كتابك يا ابن الكافرة، والجواب سوف تراه دون أن تسمعه، والسلام ".

وخرج الرشيد على رأس جيشه إلى آسيا الصغرى لتأديب نقفور، ونجح في إيقاع الهزيمة بقواته، واضطره إلى عقد الصلح والاعتذار عما بدر منه، ومواصلة دفع الجزية.

ولم تقتصر حروب الرشيد مع الروم على منطقة الثغور بآسيا الصغرى، بل تعدتها إلى مياه البحر المتوسط، ففي سنة ١٩٠هـ غزى أسطول الرشيد جزيرة قبرص وأسر من سكانها ١٦ ألفًا، وكان أسقف الجزيرة من بين هؤلاء الأسرى.

ولم تقع حروب حدودية بين المسلمين والبيزنطيين في عهد خلافة الأمين، ابن الرشيد، بسبب انشغال الأمير بأمر الصراع على الخلافة بينه وبين أخيه المأمون.

وفي عهد المأمون (١٩٨-٢١٨هـ) عاد الصراع ثانية بين الجانبين الإسلامي والبيزنطي على الحدود، فلقد وقع في عهد الخليفة ثورة كبيرة كانت تطيح بملكه،

كما وقعت في نفس الوقت ثورة كبيرة كادت تطيح بحكم الإمبراطور " ثيوفيلوس ".

فلقد وقعت ضد المأمون ثورة قام بها " بابك الخُرمي " صاحب الدعوة البابكية التخريبية، إحدى الحركات الهدامة التي قصد بها الفرس هدم الدين الإسلامي وبالتالي هدم الدولة الإسلامية العربية واستعادة النفوذ الفارسي في حكم هذه الدولة. وقد قام باباك الخُرمي، بحركته التي عُرفت بالخرمية الثانية بعد الخرمية المزدكية الأولى سنة٢٠١هـ، في المنطقة الجبلية الواقعة بين أرمينية وأذربيجان وشمال بلاد فارس. ولقد ادعى بابك الإلوهية بقوله أنه من نسل الإله أبي مسلم الخراساني الذي انتقلت إليه الإلوهية بالتناسخ من الأئمة العلويين. وقد نجح بابك في الاستيلاء على منطقة أذربيجان وفرض نفوذه فيها، وقد حدث تحالف بينه وبين ملك أرمينية المسيحي وإمبراطور بيزنطة، وأرسلوا إليه قوات من عندهم تساعده في الحرب على قوات الخليفة. وقد أراد كلٌ من ملك أرمينية والإمبراطور البيزنطي بإشغال المأمون بالحرب ضد بابك دون الحرب معهما. ولذلك استفحل أمر بابك وأوقع الهزيمة بالجيوش التي وجهها له المأمون، ولم يُقض عليه إلا في خلافة المعتصم سنة ٢٢١هـ، بعد حملات كثيرة جُردت ضده خلال اثنين وعشرين سنة.

وفي الوقت الذي ساعد فيه الإمبراطور البيزنطي بابك الخرمي، قام المأمون بتشجيع الثائر توماس الصقلبي، الذي ثار في آسيا الصغرى ضد الإمبراطور ثيوفيلوس وأمده بالمال والرجال، وعمل على تتويجه إمبراطورًا على الدولة البيزنطية، ولكن خطته بعد ذلك لم تتم.

وفي نهاية الصراع بين المأمون وإمبراطور الروم، نجد إمبراطور الروم يستسلم في النهاية ويعرض الصلح على المأمون وعدم الاعتداء على الثغور الإسلامية، لكن المأمون رفض طلب الصلح معه لأنه كان قد اعتزم على فتح

القسطنطينية والقضاء على دولة الروم نهائيًا، ولذلك خرج في سنة ٢١٨هـ، لقتال الروم وتوجه إلى حدود الروم ووصل إلى طرسوس، لكن الأجل وافاه هناك قبل أن يتم ما شرع به من غزو، فمات في طرسوس ودُفن بها، وقبره لا يزال قائمًا تأكيدًا لصدق ما ورد في المصادر عن هذه الغزوة التي قام بها بقصد القضاء على الدولة البيزنطية.

وفي عهد خلافة المعتصم بالله العباسي (٢١٨-٢٢٧هـ) ازدادت العلاقة سوءًا بين الروم والمسلمين. وقد نجح المعتصم، بفضل قائده الشجاع الأفشين، في القضاء على جماعة الخرمية وقتل بابك الخرمي وصلبه وتفرق أتباعه وذلك سنة ٢٢٣هـ. وكان الإمبراطور البيزنطي ثيوفيلوس قد انتهز فرصة انشغال المعتصم في قتال بابك الخرمي، فأغار على مدينة " زبطرة " الحدودية وأحرقها وأسر من فيها من المسلمين وأوقع بهم أشد أنواع التعذيب. ولما بلغ الخبر المعتصم كبُر الأمرُ عنده، وقد بلغه أنّ امرأة هاشمية، صاحت، وهي أسيرة في أيدي الروم منادية باسمه قائلة : " وامعتصماه .. وامعتصماه "، فقيل أنه سمع استغاثتها وهو جالس على سريره، فنهض منزعجًا وهو يقول : " لبيك .. لبيك "، وقام من ساعته وصاح في قصره " النفير .. النفير ".

فسار المعتصم، من فوره، على رأس جيش كبير وصل به إلى مدينة "أنقره" وهناك التقى بقوات الإمبراطور وهزمه واستولى على أنقره، ثم اتجه بجيشه إلى بلدة " عمورية "، واستولى عليها وقام بتخريبها، تنكيلاً بالإمبراطور البيزنطي ثيوفيلوس الذي وُلد في هذه المدينة وكانت مسقط رأسه، وتركها المعتصم للنهب والتدمير والإحراق مدة أربعة أيام كاملة انتقامًا مما فعله الروم في زبطرة وأهل هذه البلد. ولمّا عاد المعتصم إلى عاصمته " سامرا " احتفل باستقباله احتفالاً هائلاً

بعد هذا النصر المؤزر على الروم. ولقد مدحه الشاعر العربي المشهور أبـو تمـام الطائي بقصيدته البائية التي يقول في مطلعها :

السيف أصدقُ أنباءً من الكتبِ   في حده الحد بين الجدِّ واللعبِ

وقد قرر المعتصم، بعد أن عاد إلى عاصمته، إعداد العدة لغزوة كبرى يفـتح بها القسطنطينية، وكانت آخر ما تبقى في يدها من مدن كبرى، وقـد أعـاد بـذلك الخطط الطموحة التي سبق أن رسمها الأمويون من قبل. لكنه أجَّل خطتـه، وعـاد سريعًا إلى بلاد الشام للقضاء على تمرد ضده قام به ابن أخيه العباس بن المـأمون بتأييد بعض الجنود العرب له ضد الجنود الأتراك الـذين اسـتحوذوا علـى دولـة المعتصم التركي الأم. وما أن قضى على هذا التمرد حتى وافاه الأجل، ولـذلك لـم يقم بفتح القسطنطينية. ولم يفكر ابنه الواثق، الذي تولى الخلافة بعده، في فتح هـذه المدينة واكتفى بالخطط الدفاعية لمدن الثغور مؤجلاً بذلك إسقاط هذه المدينة في يـد المسلمين مدة ست قرون، أي حتى سنة ١٤٥٣م حين سقطت علـى يـد الـسلطان العثماني محمد الفاتح.

ولقد ظلت العلاقة بين المسلمين والبيزنطيين تسير من حالـة الهجـوم إلـى الهجوم المضاد حتى النصف الثاني من القرن الخامس الهجري / الحـادي عـشر الميلادي حتى تحولت آسيا الصغرى إلى الإسلام حين نجح الأتراك السلاجقة فـي العصر العباسي الثاني في فتح تلك البلاد وقيام دولة سلاجقة الروم بها على أيـديهم وانتزاعها من أيدي الروم، الذين لم تتبقى لهم مـن بلادهـم سـوى القـسطنطينية العاصمة مدة أربعة قرون قبل أن تسقط هي الأخرى في يد المسلمين وتسقط دولـة الروم لتُصبح أثرًا بعد عين.

المصادر والمراجع

أ – المصادر :

- **ابن الأثير** : الكامل في التاريخ.
- **ابن الجزري** : المنتظم من أخبار الأمم.
- **ابن خلدون** : المقدمة.
- **أبو هلال الصابي** : تاريخ الراضي بالله.
- **الخطيب البغدادي** : تاريخ بغداد.
- **السيوطي** : تاريخ الخلفاء.
- **الصولي** : كتاب الأوراق.
- **عريب بن سعد** : صلة تاريخ الطبري.
- **الطبري** : تاريخ الرسل والملوك.
- **المسعودي** : مروج الذهب ومعادن الجوهر.
- **مسكويه** : تجارب الأمم.

ب – المراجع :

- **أحمد أمين** : ضحى الإسلام.
- **أحمد الشريف وحسن محمود** : العالم الإسلامي في العصر العباسي.
- **آدم متز** : الحضارة الإسلامية، تعريب محمد عبدالهادي أبو ريدة.
- **بارثولد** : تاريخ الترك في آسيا الصغرى، تعريب أحمد السعيد.
- **حسن إبراهيم حسن** : تاريخ الإسلام السياسي.
- **شاكر مصطفى** : دولة بني العباس.
- **عبدالعزيز الدوري** : العصر العباسي الأول.
- **عطية القوصي** : تاريخ الدولة العباسية.

- **محمد بركات البيلي** : دراسات في تاريخ الدولة العباسية.
- **محمد جمال الدين سرور** : تاريخ الحضارة الإسلامية.
- **محمد حلمي أحمد** : الخلافة والدولة في العصر العباسي.

ج – المراجع الأجنبية :

- Barthold, W. : Turkestan down to the Mongol invasion, London 1928.
- Bouvat : Les Bermécides, Paris 1912.
- Buchler : Harun al Rashid and charles thw great, Massachusetts, 1931.
- Pirenne, H. : Mahomet et Charlemagne, Paris, 1971.
- Shaban, A. : The Abbasid Revolution, London 1960.
- Sourdel, D. : Le Vezirat Abbaside, Damas, 1960.

حقيقة دعاوى المؤرخ الصليبى توديبود
حول إرتداد بعض المسلمين عن الإسلام
خلال الحملة الصليبية الأولى

د. محمد عبد النعيم محمد
قسم التاريخ – كلية الآداب
جامعة القاهرة

المقدمة :

بداية لابد أن نفرق بين الصليبية والمسيحية، كما نفرق بين الصهيونية واليهودية فقد حمل الصليبيون الصليب شعاراً لهم، ولكن كانت تحركهم دوافع عديدة تجمعت كلها فى بوتقة التعصب الدينى الذى عملت البابوية فى الغرب على إشعال نيرانه، والذى ترتب عليه كثير من الممارسات الخارجة عن تعاليم الديانة المسيحية التى تدعو إلى المحبة والإخاء والمساواة، فقد كانت الممارسات التى قام بها الصليبيين تتنافى تماماً مع هذه التعاليم.

لقد استند الغزو الصليبى للشرق الأدنى الإسلامى على أسس وضعتها البابوية بصفتها الداعى الشرعى للحركة الصليبية والمحرك الأول لها حيث كان على الصليبيين – كما حدد البابا أوربان الثانى فى خطبته فى كليرمونت سنة ١٠٩٥م الهدف من الحملة الصليبية الأولى – أن يقضوا على المسلمين ويستولوا على ديارهم، لتحرير المسيحية الشرقية والاستيلاء على الأراضى المقدسة.

ومن هنا كان القضاء على المسلمين وطردهم من مدنهم والاستيلاء عليها يمثل استراتيجية الحملة الصليبية الأولى، موائمة لتعليمات البابوية وللأهداف

الخاصة لقادة الحملة.

وكما فعل الصليبيون ذلك، فإن كتابهم ومؤرخيهم المعاصرين لأحـداث هـذه الحملة وشاهدوا العيان على هذه الأحداث، قاموا بدورهم هم أيضا فكانوا يروجـون للحركة الصليبية، ويخلطون بين الحقـائق والإشـاعات، وبـين الواقـع والخيـال ويضخمون أموراً صغيرة بهدف الدعاية الصليبية.

ومن أخطر المسائل التى روج لها هؤلاء المؤرخين اللاتين مـسألة إرتـداد بعض المسلمين عن الإسلام خلال الحملة الصليبية الأولى وهى ادعـاءات باطلـه يكتنفها الشك والتضليل وهى لا تتعدى أن تكون مجرد دعايـة صـليبية أراد بهـا هؤلاء المؤرخين إبراز النجاح الصليبى فى الشرق الأدنى الإسلامى، وحث الغـرب الأوربى على مساندة القضية الصليبية، كما أرادوا بها إثارة الحماسة الصليبية عنـد الصليبيين فى الشرق والغرب، وتمزيق وحدة الصف الإسلامى والتنكيل بأبناء الآمة الإسلامية.

وقد حاول الباحث من خلال هذا البحث المتواضع رصد المواضع والأحداث التى ورد فيها ذكر هذه الادعاءات فى المصادر اللاتينية المعاصرة، محـاولاً مـن خلال مقارنة روايات هذه المصادر اللاتينية ببعضها البعض من ناحية وبالمـصادر الإسلامية المعاصرة من ناحية أخرى، الوصول إلى تفنيد هذه الادعاءات.

مع التركيز على ما ورد عند المؤرخ اللاتينـى توديبـود بـصفته صـاحب النصيب الأكبر فى هذه الادعاءات مشاركة مع مؤلف الجستا المجهول. وفى نفـس الوقت لم يهمل الباحث ما ورد من ادعاءات فى المصادر اللاتينية الأخرى حتى تعم الفائدة.

وقد رأى الباحث أن يبدأ كل حادثة بذكر نص الرواية كما ورد عند توديبـود ومقارنته بنفس النص فى المصادر اللاتينية الأخرى حتى يتأكد القارئ الكريم مـن

المعلومة ويتمكن من التأكد من توثيقها إذا أراد، ثم حاول الباحث بعد ذلك تفنيد هذه الروايات من خلال مقارنة بعضها بالبعض الأخر من ناحية، وبالاستعانة بمـــا ورد فى روايات المصادر الإسلامية المعاصرة من ناحية أخرى.

وكان لابد أن يبدأ الباحث بإعطاء نبذه عن حياة المؤرخ الـــصليبى توديبـــود وهو واحد من أربعة مصادر لاتينية عاصرت الحملة الصليبية الأولى وتحدثت عنها بالاشتراك مع مؤلف الجستا المجهول، وريموندا جيل، وفوشيه الشارترى.

وتوديبود من مواطنى مدينة كيفراى فى بواتييه بفرنسا، رحل إلى الشرق مع قوات ستيفن كونت بلوا وشارتر، ثم التحق بقوات بوهيموند النورمانى وصحبه فـــى حملته خلال أراضى الدولة البيزنطية وشاركه فى حصار نيقيـــه وأنطاكيـــة وفـــى الانتصار على قوات كربوغا.

وبعد الاستيلاء على أنطاكية واستقرار بوهيموند بها، التحق توديبود بقـــوات ريموند الصنجيلى لكى يكمل مسيرته إلى الأراضى المقدسة، وشارك مـــع قـــوات ريموند فى كل أعمال الحملة حتى استيلاء الفرنج على المدينة المقدسة.

أما عن تاريخ توديبود المسمى "تاريخ الرحلة إلى بيت المقـــدس"(١). فهـــو يتناول أحداث الحملة الصليبية الأولى منذ دعوة البابا أوربان الثانى لـــسكان غـــرب أوربا للاشتراك فى الحملة حتى معركة عسقلان فى أغسطس ١٠٩٩م وقـــد كـــان توديبود مشاركا وشاهد عيان على معظم الأحداث التى رواها.

وكرجل دين، ومتشبع بأفكار البابوية عن المسلمين، فقد جاهـــد مثـــل بقيـــة المؤرخين اللاتين، لجعل كل ما أتى به الفرنج من أعمال ضد المسلمين وأمـــاكنهم المقدسة، عملاً من أعمال الرب. وقد أحاط رواياته عن ذلك بإطار دينى بمـــا أورده من اقتباسات دينية من الإنجيل وكتب القداس والصلوات حتى يكون لرواياته تـــأثير على قارئيه فى غرب أوربا فى عصر الإيمان، أو بالأحرى عصر تسلط الكنيـــسة

على مقدرات وحياة سكان غرب أوربا.

وكان ذلك سببا فى أن ينظر إلى المسلمين على أنهم أعداءاً للرب، فوصـــفهم فى مواضع كثيرة بأنهم وثنيون وكفره مبديا جهله بتعاليم وأركان الدين الإســـلامى مشاركاً فى ذلك كل أقرانه من المؤرخين اللاتين.

وقد تمكن الباحث من رصد تسعة حوادث منذ بداية الحملة الصليبية الأولـــى وحتى موقعة عسقلان سنة ١٠٩٩م، ورد فيها الحديث عن إرتداد بعض المـــسلمين عن الإسلام منها سبعة حوادث وردت عند توديبود وشاركه فيهـــا مؤلـــف الجـــستا المجهول، وشاركه فى بعضها كل من ريموندا جيل وفوشيه الشارترى.

إعجاب توديبود بشجاعة وقوة الأتراك السلاجقة

نص رواية توديبود:

"كيف يتأتى لأى رجل مهما بلغت به الحكمة والعلم أن يتجرأ ويصف مهـــارة وشجاعة وقوة الترك ؟ الذين ظنوا أنهم قادرون على بث الفزع فى نفوس الفرنجـــة بتهديدهم بسهامهم كما أفزعوا من قبل العرب والأرمن والسريان واليونانيين، ولكن يشاء الرب أن لا يكونوا بقوة رجالنا من حيث المظهر والفعل والفكر.

ومهما يكن من أمر، فإنهم يدعون أنهم ينحدرون مـــن أصـــل فرنجـــى، وأن الفرنج والترك هم فقط بالفطرة فرسان(٢).

وليس فى مقدور أحد أن يكذبنى إن قلت، من المؤكد، أنهم لو كانوا قد آمنـــوا بالمسيح إيماناً راسخاً، واعتنقوا المسيحية، واستوثقوا بالدستور والإيمان المـــسيحى، أى رب واحد فى ثالوث، ولد من أم عذراء، وصلب، ثم قام، وأخيرا لو أنهم سلموا ببعث الروح القدس التامة كعون، ولو أنهم اعترفوا بالمثل بحكمه فى الأرض وفـــى السماء، أقول، لو أنهم آمنوا بالروح وبالإيمان الحق، ما كان لأحد أن يكون مـــاهراً وشجاعاً ومحارباً باسلاً مثل هؤلاء الأتراك"(٣).

ذكر توديبود هذا النص بعد أن خاض الصليبيون معركة ضورليوم (بـالقرب من مدينة أسكى شهر الحالية) ضد الأتراك السلاجقة فى أول شـهر يوليـو سـنة ١٠٩٧م، وهناك نص مشابه لهذا النص جاء عند مؤلف الجـستا المجهـول حيـث يقول:

"فمن هذا الحكيم العالم الذى يجرؤ على وصف لياقة الترك ومواهبهم الحربية ومقدار بسالتهم ؟ لقد كانوا يظنون أنهم يخيفون آمة الفرنجة بتهديدهم إياهم بنبـالهم كما أخافوا العرب والشرقيين والأرمن والسريان والإغريق، لكن إذا أراد الـرب ألا يتغلبوا على رجالنا فلن يستطيعوا إلى الغلبة سبيلا.

ولقد كان حقاً ما قيل من أنه لا يجوز لأحد ما أن يسمى بالفارس إن كان من غير الفرنجة أو الترك.

وسأقول الحقيقة ولن يستطيع أحد مناقضتى، وهى لو أنهم آمنوا إيمانـاً تامـاً بالمسيح واتبعوا النصرانية المقدسة، ولو تأتى لهم أن يعترفوا برب واحد فى ثلاثـة أقانيم وهو ابن الله المولود من العذراء، الذى تألم ثم قام من بين الأمـوات وصـعد إلى السماء أمام أعين تلاميذه، وأرسل التعزية الكاملة بالروح القدس، ولو تأتى لهـم أيضاً أن يؤمنوا إيماناً صادقاً عادلاً بأن له الحكم فى السماء والأرض، لمـا وجـدنا شخصاً ما يمكن أن يساويهم فى القوة والشجاعة وفن القتال"(٤).

وقد أبدى الأتراك السلاجقة قوة وشجاعة كبيرة فـى هـذه المعركـة رغـم هزيمتهم لدرجة أثارت إعجاب المؤرخ توديبود بهم، ورغم أنه كان يـصفهم بـأنهم "أعداء المسيحيين وأعداء الرب"، إلا أنه أعجب بمهارتهم وشجاعتهم وقوتهم، وتمنى لو كانوا قد آمنوا بالمسيح واعتنقوا الديانة المسيحية، لأنـه مـن وجهـة نظـره لا ينقصهم سوى أن يؤمنوا بالمسيح، وفى هذه الحالة لن يفوقهم أحـد فـى مهـارتهم وشجاعتهم، حيث يقول:

"من المؤكد، أنهم لو كانوا قد آمنـوا بالمـسيح إيمانـاً راسـخاً، واعتنقـوا المسيحية... ما كان لأحد أن يكون ماهراً وشجاعاً ومحارباً باسـلاً مثـل هـؤلاء الأتراك"(٥).

ويتضح لنا من خلال هذا النص تعصب توديبود كغيره من المؤرخين اللاتين الذين عاصروا الحملة الصليبية الأولى ضد الإسلام والمسلمين منذ بداية كتابه.

كما يتضح من النص أن توديبود كان يعتقد اعتقاداً راسخاً أنه من ضمن أهم أهداف الحركة الصليبية التبشير بالديانة المسيحية ونشرها بين المسلمين من أهـالى تلك المناطق التى زحف عليها الصليبيون فى الشرق الأدنى الإسلامى.

لم يفرق توديبود بين المسلمين سواء كانوا من الأتراك السلاجقة أو من أهـل أنطاكية أو غيرها من البلدان، فقد كان يعتبرهم جميعا كما صرح كثيراً فـى كتابـه أنهم "أعداء الرب والمسيحية" وأنهم "أعداؤنا وأعداء الرب"، وأنهم جيش من الكفرة "والقوم الكفرة" " والكفرة أعداء الرب"، وأنهم "الوثنيـون أعـداء الـرب وأعـداء المسيحية المباركة"(٦).

وواضح أن توديبود متأثر بقانون الإيمان الكاثوليكى ويغلب على النص طابع رجل الدين المؤمن بعقيدته والمتعصب لها ويريد أن يبشر بها وينشرها حتـى بـين صفوف أعدائه.

١- قصة رينالد بروشيه وياغى سيان

نص رواية توديبود:

فى أثناء حصار الصليبيين لأنطاكية(٧) الذى استمر سبعة أشـهر (مـن ٢١ أكتوبر ١٠٩٧م حتى ٣ يونيه ١٠٩٨م) يحكى لنا توديبود قصة فارس صليبى نبيـل يدعى رينالد بروشيه وقع أسيراً فى يد المسلمين وأرادوا أن يردوه عـن المـسيحية ولكنه رفض وفضل الموت والشهادة على الارتداد عن المسيحية حيث يقول:

"أقتاد الترك فارساً نبيلاً إلى أعلى أحد أسوار أنطاكية، واسمه رينالد بروشيه، كانوا قد وضعوه فى سجن مظلم، ثم طلبوا منه أن يستفسر من الحجاج المسيحيين كم سيدفعون فدية له قبل أن تقطع رأسه."

وخاطب رينالد القادة الصليبيين من أعلى السور قائلاً: "سادتى، لا يهم أن أموت، وأتوسل إليكم يا إخوانى، أن تدفعوا فديتى. وتأكدوا باسم الإيمان بالمسيح وبالقبر المقدس أن الرب معكم وسيكون معكم إلى الأبد. لقد ذبحتم كل قادة وأشجع رجال أنطاكية، وبالتحديد اثنا عشر أميراً وخمسة عشر ألف نبيل، ولم يتبق بالمدينة من يقاتلكم أو يدافع عنها"(٨).

ويتضح من هذه العبارة أن توديبود أراد من خلال هذه القصة إثارة حماس الصليبيين المحاصرين لأنطاكية بعد أن طال الحصار لفترة طويلة وصلت إلى سبعة أشهر، وبدأت أحوال الصليبيين تتدهور خلالها ولذلك كثرت رؤى رجال الدين كرؤية الحربة المقدسة وغيرها وكان الهدف من هذه الرؤى رفع الروح المعنوية عند الصليبيين فى أوقات الشدة التى كانوا يمرون بها وإثارة حماستهم للاستمرار فى حصار أنطاكية حتى تسقط، وإلقاء التعليمات إليهم من خلال هذه القصص.

ويبدو أن قصة هذا الفارس الصليبى التى ذكرها توديبود كانت واحدة من تلك القصص فهى أقرب إلى هذه الرؤى التى انتشرت فى تلك الفترة بين صفوف الصليبيين خاصة وأنها لم ترد عند مؤلف الجستا المجهول، ولا عند ريموندداجيل ويبدو أن كل واحد من هؤلاء كان يجتهد فى اختلاق رؤية أو قصة يثير بها حماس الصليبيين ويرفع معنوياتهم ويشجعهم على الاستمرار فى القتال، فقد اتخذ توديبود من هذا الفارس الصليبى نموذجا للفارس الشجاع الذى ينبغى أن يكون عليه الفرسان الصليبيون، فرغم الموقف الصعب الذى وقع فيه كأسير عند المسلمين، إلا

أنه تماسك ولم يهاب الموت، بل وأخذ يشجع الصليبيين على الاستمرار فى حصار أنطاكية حتى تسقط ويخبرهم – كنوع من التشجيع لهم وإثارة حماستهم ليستمروا فى الحصار – أنهم قاموا بإنجازات حربية كبيرة وقتلوا أشجع رجال أنطاكية بحيث لم يتبقى بها من يقاتل الصليبيين أو يدافع عنها.

وواضح أن توديبود كان يريد أن يلقى هذه الكلمات الحماسية على الصليبيين لإثارة حماستهم ولكنه استخدمها من خلال اختلاق قصة هذا الفارس لكى يقولها على لسانه، فقد كان هدف توديبود من اختلاق هذه القصة إثارة حماس الصليبيين.

ويستمر توديبود فى سرد قصته عن هذا الفارس فيقول:

" وسأل الترك عما قاله رينالد، فرد المترجم: "لم يتفوه بشئ فى صالحكم".

وعلى الفور أمره الأمير ياغى سيان(٩) أن يهبط من أعلى السور وأن يتبادل معه أطراف الحديث من خلال المترجم حيث خاطبه قائلاً: "يارينالد، هل ترغب فى التمتع بالحياة معززاً مكرماً بيننا ؟" ورد رينالد قائلاً: " كيف يتأتى لى أن أعيش بينكم معززاً مكرماً دون ارتكاب المعاصى؟

وأجابه الأمير: "أكفر بربك، الذى تعبده وتؤمن به، وآمن بمحمد (صلى الله عليه وسلم) وآلهتنا الأخرى(١٠).

وإذا فعلت ذلك سنمنحك ما تشتهيه نفسك من ذهب وخيول وبغال وكثير من متع الدنيا التى تصبو إليها، كما سنقدم لك الزوجات والميراث، وسنملكك الأرض الواسعة التى تزيد من ثرائك". ورد رينالد على الأمير قائلاً: " إمنحنى الوقت للتفكير"، ووافق الأمير مستبشراً. وركع رينالد مضموم اليدين جهة الشرق مصلياً، وابتهل إلى الرب أن يعينه وأن يبعث بروحه كريمة إلى الجنة.

وعندما شاهد الأمير رينالد يصلى، استدعى مترجمه وقال له: " ماذا كان رد ينالد ؟" ورد المترجم: " لقد أنكر ربك تماماً، ويرفض ما قدمته له من متع الدنيا،

كما يرفض الاعتراف بآلهتك".

وبعد سماع الأمير لهذا التقرير، اشتعل غضباً وأمر على الفور بقطـــع رأس رينالد، وهكذا أطاح الترك برأسه وهم غاية فى السرور، وبسرعة أنشدت الملائكـــة مزامير داود فى بهجة، وحملت روح رينالد حيث يراه الرب الـــذى استـــشهد حبـــاً فيه"(١١).

وفى هذا الجزء من القصة يذكر توديبود أن الأمير ياغى سيان حاكم أنطاكية عرض على رينالد بروشيه أن يحفظ حياته ويعطيه كل ما يريده ويتمناه من متـــاع وعرض عليه كثير من الإغراءات، مقابل أن يرتد عن المسيحية ويدخل الإســـلام، ولكن بروشيه رفض العرض واستشهد فى شجاعة بعد أن أمر ياغى ســـيان بقطـــع رأسه.

وهنا يدعى توديبود أن المسلمين هم الذين كانوا يحاولون رد الصليبيين عـــن ديانتهم، ولكن الصليبيين كانوا يتمسكون بدينهم ويدافعون عنـــه ويستـــشهدون فـــى سبيله.

وكأنه يريد أن يوحى إلى القارئ أن المسلمين هم الذين بدأوا عملية التبـــشير بالإسلام – إذا جاز التعبير – وما حدث بعد ذلك من الصليبيين هو رد فعل لما قـــام به المسلمين.

وهذه كلها ادعاءات وأباطيل كان غرضه منها بـــث الحماســـة فـــى نفـــوس الصليبيين المحاصرين لأنطاكية ليدافعوا عن عقيدتهم ضد المسلمين ولتبرير ما قـــام به الصليبيين بعد ذلك من إجراءات عنيفة وقتل لرد المسلمين عن الإسلام وإدخالهم فى النصرانية.

ومن المعروف أن تعاليم الإسلام تقوم فى جوهرها على أساس ألا يرغم أحد من أصحاب الديانات السماوية الأخرى (أهل الكتاب) على الدخول فى الإســـلام إلا

برغبته ورضاه، بدليل أن من لا يريد أن يدخل فى الإسلام يعامــل معاملـــة أهــل الذمة، حيث يبقى على عقيدته ويتمتع بحرية دينية كاملة فـــى مقابــل أداء الجزيـــة المفروضة على أهل الذمة، مقابل الزكاة المفروضة على المسلمين.

ومن جهة أخرى لم يكن ياغى سيان فى وضع يسمح له بمجرد التفكير فـــى هذا الموضوع لأنه كان مشغولا بالدفاع عن أنطاكية ورفع الحصار الصليبى عنها، ولم يكن يفكر فى رد الصليبيين عن ديانتهم كما يدعى توديبود.

ونلاحظ أن قصة استشهاد بروشيه لم ترد عند ريمونداجيل أو عنـــد مؤلـــف الجستا المجهول، وتستخدم فى أنشودة أنطاكية كتأثير مأساوى، واستخدمها توديبـــود لنفس السبب، لكنه اجتهد ليقدم لها خلفية تاريخية.

ويستخدم رقم أثنى عشر أميراً، والخمسة عشر ألفاً من الأشراف الذين كـــان مصيرهم الموت، وقد وردت هذه الأرقام من قبل فى كتابه(١٢).

ولم يكتف توديبود بقصة رينالد بروشيه وما حدث له، ولكنه اختتمها بإدعـــاء آخر، وهو أن الأمير ياغى سيان استشاط غضبا لفشله فى حمل رينالد على الارتداد عن المسيحية فأمر بإحضار أسرى الصليبيين في أنطاكية وأمر بـــإحراقهم جميعـــاً حيث يقول: "ثم أصدر الأمير (ياغى سيان) أوامره، وقد استشاط غضباً لفشله فـــي حمل رينالد على الإرتداد عن المسيحية، أمر بإحضار كل الصليبيين الموجودين فى أنطاكية أمامه وأيديهم مشدودة إلى ظهورهم، وعندما مثلــوا أمامــه، أمـــر بنـــزع ملابسهم عنهم، وبينما كانوا يقفون عرايا أمر بأن يشد وثاقهم فى دائرة، ثم أحـــاطهم بكومه من القش والخشب، وكعدو للرب، أمر بإحراقهم"(١٣).

ولم ترد هذه الحادثة أيضا فى أى مصدر من المصادر الأخـــرى المعاصـــرة سواء اللاتينية أو الإسلامية، فلم يتحدث أحد من المصادر عن أن ياغى سيان قـــام بحرق أسرى الصليبيين، فهذه الرواية أيضا من وحى خيال المؤرخ توديبود وهـــو

مصدرها الوحيد، ويبدو أن هدفها إثارة مشاعر الصليبيين ضد المسلمين عامة وضد ياغى سيان خاصة.

فقد ساءت حالة الصليبيين أمام أنطاكية كثيرا نظراً لطول فترة الحصار وعجزوا عن اقتحامها لما أبداه حاكمها ياغى سيان من شجاعة فى مدافعتهم، ونظرا لما نزل بهم من شدائد بسبب قلة المؤن وصعوبة الحصول على شئ منها من الجهات المجاورة، وهجمات الترك على معسكرهم.

ويشهد المؤرخون المسلمون بأن ياغى سيان لم يهمل الدفاع عن المدينة وأنه أظهر من الشجاعة " وجوده رأيه وحزمه واحتياطه ما لم يشاهد من غيره"(١٤).

وتشير رواية ابن العديم إلى رد فعل ياغى سيان عندما علم بوصول الصليبيين إلى شمال الشام فيقول:

"ولما دخل يغى سيان أنطاكية أخرج ولديه شمس الدولة ومحمدا، فسار أحدهما إلى دقاق وطغتكين يستنجدهما، وبث كتبه إلى جناح الدولة ووثاب بن محمود وبنى كلاب، وسار محمد ابنه إلى التركمان وكربوغا وأمراء الشرق وملوكه، وسارت كتبه إلى جميع أمراء المسلمين"(١٥).

وعندما وصل الصليبيون إلى أسوار أنطاكية وبدأوا فى حصارها فى يوم ٢٨ شوال سنة ٤٩٠هـ/ أكتوبر ١٠٩٧م، وكان حصارا شديدا قاسيا، أعد ياغى سيان عدته للحصار، فحشد بداخل الحصن كل ما لديه من قوات، وعزز استحكامات المدينة الدفاعية، وشرع فى توفير ما يكفيه من المؤن لحصار طويل، وفى أثناء الحصار أظهر شجاعة وحزم وسداد رأى وقدرة على حسن التدبير(١٦).

وتذكر الرواية الإسلامية أن ياغى سيان "خاف من النصارى" الموجودين داخل أنطاكية، فأخرجهم بحجة حفر خندق يحمى المدينة، فلما أرادوا الدخول منعهم وتركهم يشتركون مع الصليبيين فى حصارهم، فى حين تحفظ هو على أهلهم "وكف

أيدى المتطرقة إليهم"(١٧).

ولابد أن ما قام به ياغى سيان من إجراءات قد أثار حنق وغضب الصليبيين ضده لأنه عرقل مسيرتهم وحال دون دخولهم أنطاكية بسهولة، فأرادوا تشويه صورته وإظهارها بأنه يحاول إرغام الصليبيين على الدخول فى الإسلام وإحراقهم أحياء إذا رفضوا، لإثارة حماس الصليبيين أمام أنطاكية من ناحية، وإثارة حماس الغرب الأوربى للاشتراك فى الحركة الصليبية والدفاع عن المسيحية ضد المسلمين من ناحية أخرى.

ولاشك فى أن مثل هذه الادعاءات – مثلها مثل الرؤى التى انتشرت بين الصليبيين – كان لها أثر كبير فى رفع معنوياتهم والتفافهم حول زعاماتهم، كما جاءت عاملا حاسما فى القضاء على روح اليأس الذى وجد طريقه إليهم، وبالتالى كانت سببا من أسباب إحرازهم النصر فى النهاية.

٢- اتفاقية بوهيموند وفيروز حارس أبراج أنطاكية

نص رواية توديبود:

"لا أستطيع أن أروى أو أذكر كل الأحداث التى وقعت قبل الاستيلاء على أنطاكية، ومن ثم سأسجل فيما يلى القليل، وفى رأى أنه لا يوجد الشخص – سواء كان رجل دين أو علمانياً– الذى يستطيع أن يسجل الأحداث الحقيقية بتفاصيلها الدقيقة شفاهه أو كتابة.

كان هناك أمير تركى يدعى فيروز(١٨)، وقد أصبح على علاقة ودية مع بوهيمند(١٩) وغالباً، ومن خلال الرسل بينهما، فقد عرض بوهيمند أن يدخله فيروز إلى أنطاكية، فى مقابل ذلك، عرض عليه النورماندى الدخول فى المسيحية، إلى جانب ثروة عظيمة من أملاك كثيرة، وقبل فيروز هذه الشروط قائلاً: " أتعهد بتسليم ثلاثة من الأبراج التى تحت حراستى دون مقابل، سأسلمها إليه طوعاً فى أى

ساعة شاء"(٢٠).

وقد جاءت رواية مؤلف الجستا المجهول مشابهة لرواية توديبود حيث يقول:

"إنه لمن المستحيل على أن أقص جميع ما فعلناه قبل استيلائنا على المدينـــة، كما أنه لا يمكن لأحد ما ممن كانوا فى تلك النواحى: دينياً كان أم علمانياً، أن يكتب أو يروى بالتمام كيف سارت الأمور، ومع ذلك فسأروى الشئ القليل منها.

كان هناك قائد تركى الجنس اسمه "فيروز"، قد توثقت عرى الصداقة المكينـــة بينه وبين بوهيمند الذى طالما راح يلوح له فى الرسائل المتبادلـــة بينهمـــا بمودتـــه ويمنيه بها، ووعده بالترحيب به إن هو اعتنق النصرانية، وراح يغريـــه بالـــشرف العظيم والثروة الوافرة، فوثق فيروز بتلك الأقوال وهاتيك العهود وقال: " أننى أقوم بحراسة ثلاثة أبراج، وإننى أعده بها عن طيب خاطر وسأسلمه إياها يـــوم يـــشاء، وسأرحب به فيها"(٢١).

يقرر توديبود فى بداية روايته – كما فعل مؤلف الجستا المجهـــول– أنـــه لا يمكنه أن يدعى الوقوف على كل ما جرى من أحداث تتعلق بالعلاقة بين بوهيمونـــد وفيروز وبالإتفاق الذى جرى بينهما قبيل سقوط أنطاكية، كما يقرر أنه لا يوجد من بين الصليبيين من توفرت لديه المعلومات الخاصة بذلك سواء كان من رجال الدين أو من العلمانيين.

ونلاحظ حرص توديبود وبقية المصادر اللاتينية المعاصرة علـــى تأكيـــد أن فيروز كان تركى الجنسية، وأنه اتفق مع بوهيموند على تـــسهيل دخـــول أنطاكيـــة مقابل ارتداد فيروز عن الإسلام ودخوله النصرانية وحصوله على ثـــروة وأمـــلاك كثيرة فى أنطاكية.

بينما تشير المصادر الإسلامية – وبعض المصادر اللاتينية– إلى أن فيـــروز هذا ينتسب إلى أسرة أرمينية فهوأرمينى الجنسية، وكان قد كسب ثقة يـــاغى ســـيان

وتظاهر بإعتناق الإسلام، فعهد إليه ياغى سيان بحفظ برج كبير من أبــراج مدينــة أنطاكية عرف باسم "برج الأختين"، وعلى الرغم من تظاهره بالولاء لسيده فإنه كان شديد الحقد والبغضاء له، لأن ياغى سيان قد صادره وأخذ ماله وغلته، فحمله الحنق على خيانة سيده(٢٢)، فأخذ فى الاتصال سرا ببوهيموند عن طريق الأرمن من بنى جلدته، وتم الاتفاق على تيسير استيلاء بوهيموند على المدينة فى مقابل وعــد مــن بوهيموند بالحصول على مال وإقطاع(٢٣).

ومعنى ذلك أن فيروز خان سيده ياغى سيان صاحب أنطاكية، وبالتــالى لــم يكن فيروز مسلماً مخلصاً حتى نقول أنه إرتد عن الإسلام ودخل النصرانية وإنمــا كان متظاهراً بالإسلام كما يقر بذلك كثير من المصادر الإسلامية واللاتينية(٢٤).

أما رواية فوشيه الشارترى فتختلط فيها الحقيقة بالخيال حيث حاول فوشيه أن يوحى للقارئ أن السيد المسيح هو الذى أمر فيروز بتسليم أنطاكية للصليبيين عندما ظهر له فى رؤيا أثناء نومه، وقد كان فوشيه الشارترى غائبا فى الرها مــع ســيده بلدوين خلال هذه الأحداث أما روايته فهى على النحو التالى:

"عندما رضى الله، مستجيبا لدعوات قومه بلا ريب، أن يضع حدا لمتــاعبهم، بعد أن صبوا له التضرعات والابتهالات اليومية، فمنحهم بمحبته أن يتسلموا المدينة سرا من خلال خيانة بعض الأتراك، رجعت بذلك المدينة إلى حكم المسيحيين اسمع إذن بخيانة وإن لم تكن خيانة.

لقد ظهر الرب لتركى معين، كانت قد كتبت عليه بركة الله، وقال له "انهــض إيها النائم. أننى آمرك أن ترجع هذه المدينة للمسيحيين".

استغرب الرجل ذلك ولكنه حفظ أمر الرؤيا سرا. ظهر الرب له ثانية وقــال "ارجع هذه المدينة للمسيحيين لأننى الذى آمر بذلك، أنا يسوع المسيح".

احتار الرجل فيما يفعل وذهب إلى سيده حاكم أنطاكية (يقصد يــاغى ســيان)

واعلمه بأمر الرؤيا فأجابه هذا قائلاً: " أتريد أيها الغبى أن تطيع شبحا " ؟ فعاد الرجل ولزم الصمت.

ظهر الرب له مرة أخرى وقال: " لم لم تفعل ما آمرتك به ؟ لا تتردد لأننى أنا الذى آمر بهذا أنا رب الجميع"

فلما زال الشك من نفسه بدأ الرجل يخطط سرا مع رجالنا فى مؤامرة تمكنهم من الاستيلاء على المدينة.

عندما تم الاتفاق أعطى الرجل ابنه رهينة للورد بيهمند الذى كان أول من سمع بهذه الخطة وأول من اقتنع بها"(٢٥).

وواضح من الرواية أنه يغلب عليها الطابع الدينى الذى ميز كتابات رجال الدين الصليبيين ومنهم القسيس فوشيه الشارترى وكان هدفهم بث الحماسة الدينية فى نفوس الصليبيين وإظهار أن تحركاتهم تتم وفق إرادة إلهية، ولذلك كانوا يكثرون من ذكر الرؤى خاصة فى أوقات الأزمات التى كانوا يمرون بها.

ويعترف فوشيه فى روايته بأن ما تم من فيروز يعتبر خيانة للمسلمين من أهل أنطاكية، ولسيده ياغى سيان، وإن لم يعتبره فوشيه خيانة بالنسبة للصليبيين حيث يقول: "اسمع إذن بخيانة وإن لم تكن خيانة".

أما ريمونداجيل، فقد سجل روايته عن ذلك فى ايجاز شديد حيث يقول:

"إن واحداً من الأتراك المحاصرين وثق فى أمرائنا إلى حد أنه كان سيسلمنا أنطاكية.

وفى أعقاب اجتماع مشترك أرسل الأمراء بوهيمند وجودفرى وأيضا كونت الفلاندر للتحقق من هذا العرض، وعند وصولهم إلى أحد تلال أنطاكية فى منتصف الليل أتى رسول من التركى الخائن وأمرهم " لا تتحركوا حتى يمر أمامكم مصباح"(٢٦).

وتوحى رواية ريموندا جيل أن فيروز قد اتفق على تسليم أنطاكية مـــع قـــادة الفرنج بصفة عامة، دون توضيح دور بوهيموند فى استدراج فيروز، ودون ذكـــر تفاصيل وتطور العلاقة بين بوهيموند وفيروز. وربما قصد ريموندا جيل أن يـــسجل روايته بمثل هذا الإيجاز حتى يبخس بوهيموند حقه فى تـــوفير الفرصـــة لـــدخول الفرنج أنطاكية بسهولة.

ومن الواضح أن إيجاز ريموندا جيل– إلى جانب موقفه من بوهيمونـــد– وأن اعتراف توديبود ومؤلف الجستا المجهول بعدم توفر المعلومات لـــديهما عـــن هـــذا الحادث، من الواضح أن كل هذا يرجع إلى أن هؤلاء المؤرخين – مثلهم فى ذلـــك مثل بقية الفرنج وقادتهم– لم يكونوا يعلموا شيئاً عن العلاقة بين بوهيموند وفيروز، كما لم يعلم أحد غير بوهيموند بنوايا فيروز، لأن بوهيموند تكتم الأمر، ولم يخبـــر قادة الفرنج عن وسيلته لدخول أنطاكية إلا عشية الهجوم عليها فى الثانى من يونيـــو ١٠٩٨م جمادى الآخر ٤٩١هـــ، حتى يتسنى له فرض شـــروطه علـــيهم بالتـــسليم بأحقيته فى امتلاكها دون غيره مـــنهم، والتغاضـــى عـــن حقـــوق بيزنطـــة فـــى المدينة(٢٧).

ونلاحظ أن ريموندا جيل يعترف أيضا بخيانة فيروز للمسلمين – كما اعترف فوشيه الشارترى بذلك، ولم يذكر ريموندا جيل أو فوشيه الشارترى شيئا عن دخـــول فيروز فى النصرانية وارتداده عن الإسلام لأنهما كانا يعلمان أنه خـــائن للمـــسلمين وأنه كان يتظاهر بالإسلام.

أما رواية المؤرخ وليم الصورى فتوضح حقيقة علاقة فيروز بالصليبيين فهى تثنى عليه كثيرا، وتذكر أنه من أسرة عريقة شريفه الأصـــل تـــدعى ببنـــى زردة (صناع الزرديات) وأن فيروز كان رجل قوى النفوذ، عظيم الجاه، إلى جانب أنـــه كان كبير عشيرته وأسرته، وكانت تربطه أواصر صداقة متينـــة بـــوالى أنطاكيـــة

المسلم (ياغى سيان) الذى أغدق عليه نعما كثيرة شرفه بها.

ويوضح وليم الصورى أن فيروز هو الـــذى ســـعى لكـــسب ود بوهيموننـــد والاتفاق معه "وظل فيروز طوال استمرار الحصار حريصا على هذه الصداقة، فلا ينقضى يوم حتى يوافى بوهيموند بتفصيل ما يجرى بالمدينة، ويبعث إليـــه بخطـــط ياغى سيان"(٢٨).

كما يوضح وليم الصورى رغبة فيروز فى إعادة أنطاكية إلى الصليبيين مـــن خلال الرسالة التى بعثها فيروز إلى بوهيموند يقول له فيها:

"أما عن الأمر الذى كثر تذكيرك لى به فقد أمعنت فيه النظر مليـــا، وعنيـــت ببحثه مرارا، وقلبته على شتى جوانبه، فأيقنت يقينا جازما أننـــى إذا اســـتطعت أن أعيد بلدى إلى حريته السالفة، وطردت هذه الكلاب القذرة التى نعانى تحكمها فينـــا، وأحللت بدلا منها شعبا يعبد الله، فلن يضيع أجرى يوم الحـــساب، وســـوف أنعـــم بصحبة القديسين المباركين إلى الأبد"(٢٩).

وهذا النص يوضح بما لا يدع مجالاً للشك أن فيروز الأرمنى كـــان يحـــتفظ بنصرانيته وأنه كان يتظاهر بالإسلام كذباً وبالتالى فإن ما أشار إليه توديبـــود مـــن ارتداده عن الإسلام يكون بلا معنى لأنه لم يدخل أصلا فى الإسلام حتى يرتد عنه، كما هو واضح من الرسالة السابقة.

كما تشير رواية وليم الصورى إلى أن فيروز كان يـــشجع بوهيمونـــد علـــى سرعة التحرك للاستيلاء على أنطاكية ويحذره من قرب وصـــول حملـــة كربوغـــا حيث يقول:

"وأزيدك علما بأنك إن لم تتحرك بأسرع ما يمكن، فلن تدخلوها بعد ذلك أبداً، لأن حاكم هذه المدينة (أنطاكية) تصله الرسائل، وتتوالى عليه الكتـــب كـــل يـــوم، مشيرة إلى أن الإمدادات التى تتجمع من كافة أرجاء الشرق لمساعدته قد عـــسكرت

حول نهر الفرات، فى قوة بلغت مائتى ألف فارس، فإذا وجدتكم هذه الجيوش لازلتم خارج المدينة فلن تكونوا قادرين بعد ذلك أبدا على مقاومة قوة الأهالى وجيوش حلفائهم القادمة"(٣٠).

٣- سفارة بطرس الناسك إلى كربوغا أتابك الموصل

نص رواية توديبود:

"عقد الصليبيون مجلساً لتحديد كيفية خوض المعركة ضد الترك، وفى البداية وافق الجميع على فكره إيفاد رسول إلى كربوغا(٣١) والترك أعداء الرب، ليسألهم: "لماذا تقتحمون الأراضى المسيحية؟" ومن ثم بعثوا ببطرس الناسك(٣٢) بصحبة مترجم يدعى هرلوين(٣٣) Herluin، وقالوا لهما: "اذهبا إلى الترك الملاعين وتحدثا إليهم بحكمة وأسالوهم لماذا اقتحموا بجرأة وغطرسة أراضينا المسيحية ؟"

واسألاهم أيضاً: " أتعرفون أن كثيراً من رجالنا يتسائلون عن سبب مجيئكم إلى هنا ؟. نعتقد، ربما أنكم جئتم لاعتناق المسيحية، وأنكم تؤمنون بالسيد الواحد الحق، الذى وضعته مريم العذراء، الذى نؤمن به.

وإذا كنتم قد جئتم حقاً دون الإيمان بذلك، فإن قادتنا، الكبير والصغير منهم، يرجونكم أن تسارعوا بالرحيل من بلاد الرب والمسيحيين، الأرض التى دعا فيها بطرس الحوارى المبارك بالإنجيل منذ آمد بعيد، ودعا به إلى الدين المسيحى، ثم اختير كأول أسقف.

وإذا نفذتم طلبات القادة، فإنهم سيسمحون لكم بالرحيل بكل ممتلكاتكم مثل الجياد، والبغال، والحمير، والجمال، والأغنام، كما أنهم سوف يسمحون لكم بأخذ الماشية وكل ما ترغبون فى نقله، إلى حيث شئتم، من عتاد"(٣٤).

ويتضح من هذه الرواية أن سفارة بطرس الناسك كانت تحمل عرضاً لكربوغا ومن معه من الترك برفع الحصار عن أنطاكية وترك المسيحيين وشأنهم،

لأن أنطاكية مدينة مسيحية وليس للمسلمين أدنى حق فيما يقومون بــه مــن أجــل استردادها.

وهناك مغالطة واضحة فى هذه الرواية، فقد إدعى المــؤرخ توديبــود فــى روايته أن كربوغا والترك هم الذين اقتحموا الأراضى المــسيحية فــى أنطاكيــة، والحقيقة أن الصليبيين هم الذين جاءوا من غرب أوربا لاقتحــام هــذه الأراضــى الإسلامية والاستيلاء عليها واستيطانها، وكان المسلمون يــدافعون عــن أرضــهم وأوطانهم التى اغتصبت منهم.

وتناسى توديبود أن لهؤلاء المسلمين حقوقاً فى الأرض التى ولدوا وعاشــوا وبنوا فيها وعليها، كما فعل آباؤهم وأجدادهم من قبلهم.

كما يتضح من الرواية أيضا أن السفارة الصليبية حملت عرضا آخــر وهــو إغراء كربوغا ومن معه من الترك على الارتداد عــن الإســلام والــدخول فــى المسيحية مقابل السماح له ولمن معه بالرحيل بكل ممتلكاتهم وكل ما يرغبون فــى نقله.

والحقيقة أن المصادر الإسلامية تشير إلــى أن الــصليبيين داخــل أنطاكيــة تعرضوا لأزمة قاسية بسبب قلة الغذاء والمؤن، "فعدم القوت عنــدهم حتــى أكلــوا الميته، وبلغ ثمن رغيف الخبز الصغير ديناراً والبيضة الواحدة دينارين، ولم تكــن هذه الأسعار فى متناول غالبية الصليبيين، فاضطر بعضهم إلى العيش علــى أوراق الأشجار، فضلا عن الميتات والدواب"(٣٥).

وبالتالى لم يكن الصليبيون فى ذلك الوقت فى وضــع يــسمح لهــم بفــرض شروطهم على كربوغا.

ويستطرد توديبود فى روايته حيث يذكر لنا رد كربوغا على العرض الــذى تقدمت به سفارة بطرس الناسك فيقول:

"ورد كربوغا، قائد جيش سلطان فـارس(٣٦)، وقـد ازداد هـو ورجالـه غطرسة، فرد بصلف قائلاً: "فى الحقيقـة، إننـا لا نرغـب ولا نريـد ربكـم أو مسيحيتكم، وننبذكم كما ننبذ كل معتقداتكم، هل تظنون أننا قطعنا كل هـذه المـسافة حتى هنا لنسأل لماذا يدعى نبلاؤكم، كبيرهم وصغيرهم ممن ذكرتموهم، ملكية هـذه الأرض التى سلبناها بكل شجاعة من شعب مخنث ؟

والآن هل ترغبون فى سماع ردنا عليكم ؟ عودوا بأسرع ما يمكن من حيـث أتيتم، وأخبروا قادتكم إن شاءت كل قواتكم أن تصبح تركية وأن تتبرأ مـن ربكـم منحنية الرأس، فسوف نمنحهم هذه الأرض وما هو أكثر من ذلك، وأعنى، المـدن والقلاع والزوجات وميراث عظيم لا يبقى على راجل بينكم، بل سـيكون الجميـع فرساناً مثلنا تماماً، وسوف نعززهم دوماً بصداقتنا.

وإن هم رفضوا ذلك، فليكن معلوم لديهم أنهم سيلقون حتفهم، أو سنقودهم فى الأصفاد أسرى على الدوام ليقوموا على خدمتنا فى خراسان وخدمة خلفائنـا إلـى الأبد". وسارع مبعوثونا بالعودة وأخبروا الصليبيين بكل ذلك، وكيف كان رد القـوم القساه"(٣٧).

ويتضح من هذا الجزء من الرواية أن كربوغا رفض العرض الذى تقدمت به السفارة الصليبية حيث رفض ترك حصار أنطاكية قبل أن يخرج الصليبيين منهـا، كما رفض الارتداد عن الإسلام والدخول فى المسيحية، بل أنه قدم عرضا مـضادا لعرض السفارة الصليبية، حيث طلب من السفراء أن يخبروا القـادة الـصليبيين إذا أرادوا الارتداد عن المسيحية والدخول فى الإسلام مقابل مـنحهم المـدن والقـلاع والزوجات وميراث عظيم، وإن هم رفضوا هذا العرض فسوف يلقون حتفهم علـى يديه أو يؤخذون كأسرى ليخدموا فى خراسان.

أما عن قول توديبود على لسان كربوغا "إننا لا نرغب ولا نريـد ربكـم أو

مسيحيتكم، وننبذكم كما ننبذ كل معتقداتكم" فهذا من قبيل الدعاية الصليبية، لأنه من المعروف أن الإسلام احترم المسيحية احتراماً بالغاً، وكرم نبيها عيسى بن مريم عليه السلام تكريماً لم يحظ به أحد من الأنبياء السابقين، فنادى القرآن بالسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا، ووصفه بأنه وجيها فى الدنيا والآخرة. ولكن الصليبيين لم يفهموا طبيعة الإسلام وكل ما أدركوه أن المسلمين خرجوا من شبة الجزيرة العربية ليبتلعوا بلداً بعد آخر البلدان التى كانت المسيحية قد سبقت إليها، وانتشرت فيها.

وقد جاءت رواية مؤلف الجستا المجهول المتعلقة بسفارة بطرس الناسك متشابهة مع رواية توديبود مع أن الأسلوب يختلف فى عدة مواضع وكانت رواية مؤلف الجستا على النحو التالى: "عقدنا فيما بيننا مجلساً حربياً للتشاور فيما نصنع، وحينذاك انعقد إجماع زعمائنا على المبادرة بإنفاذ رسول إلى الترك- أعداء المسيح- ليسألهم- على يد أحد المترجمين- هذا السؤال الصريح "عما دعاهم إلى اقتحام أرض المسيحيين وهم فى سورة غضبهم، وما الذى دفعهم لضرب معسكرهم هناك وفتكهم بخدام المسيح وقتلهم إياهم".

ولما انتهت المشاورة جاءوا ببعض الرجال ومنهم بطرس الناسك وهرلوان Herlouin، وألقوا إليهم بهذه التعليمات قائلين لهم: " أذهبوا فابحثوا عن جيش الترك الملعون وقصوا عليه هذا كله فى دقة، واسألوهم لماذا دعاهم غرورهم وبطشهم إلى اقتحام أرض المسيحيين التى هى أرضنا نحن أيضاً".

فلما سمع الرسل هذه الكلمات انطلقوا لتوهم وجاءوا مجمع الكفرة وأفضوا إلى كربوغا ورجاله برسالتهم التى جاء فيها: "لقد عجب زعماؤنا وساداتنا كل العجب من أن يدفعكم التهور والحمق إلى اقتحام أرض النصارى التى هى أرضهم هم أيضاً، أفهل لنا أن نظن ونعتقد أنكم قد قدمتم إلى هنا لاعتناق المسيحية، أم

ترون أن الدافع لكم للمجئ هو إنزال شتى ضروب السوء بالنصارى بمختلف الطرق ؟

وإن زعماءنا جميعاً ليسألونكم الارتداد عن أرض الرب والمسيحيين التى هدتها قديماً موعظة الرسول بطرس الطوباى إلى الإيمان بمذهب المسيح، وإن زعماءنا ليأذنون لكم بأخذ كل ما لكم من الخيول والبغال والحمير والإبل والماشية والثيران وجميع ما تملكون، كما يأذنون لكم بنقل ذلك كله معكم حيث شئتم"(٣٨).

ثم يتحدث مؤلف الجستا المجهول عن رد كربوغا على عرض السفارة فيقول:

"حينذاك أخذت العزة بالاثم كربوغا- قائد جيش ملك فارس- وجميع من معه وأجابوهم فى غلظة: "إننا لا نبالى بربكم ولا بنصرانيتكم ولا نميل لشئ منها بل نسحقها وإياكم فى آن واحد سحقاً تاماً(٣٩)، وما حملنا على المجئ إلى ها هنا إلا دهشتنا من أن يدعى السادة والزعماء الذين ذكرتموهم ملكية أرض سلبناها نحن من الأمم المدللة، أفهل تريدون معرفة ردنا عليكم؟..

عودوا على جناح السرعة إلى سادتكم وقولوا لهم إنهم إذا كانوا يريدون أن يتتركوا وينبذوا ربكم الذى تسجدون له ويهجروا شرائعكم التى أنتم عليها الآن فإننا نعطيهم هذه الأرض وما هو أكثر منها ونهبهم المدن والحصون فلا يبقى أحد منكم راجلا، بل ستكونون جميعاً فرساناً مثلنا، وستتوثق بيننا وبينكم صداقة مكينة ومودة راسخة، وإن لم يفعلوا ذلك فعليهم أن يدركوا أنهم سوف يلاقون الموت أو نقودهم مكبلين بالأصفاد إلى خراسان حيث يبقون فى أسرنا إلى الأبد، ونستعبدهم نحن وأبناؤنا على مر العصور".

سرعان ما انكفأ رجالنا إلينا وأفضوا لنا بكل ما أجابتهم به هذه الطغمة الفظة الغليظة، ويقال إن هرلوان الذى يعرف اللسانين (الفرنجى والفارسى) كان يقوم

بالترجمة لبطرس الناسك"(٤٠).

ويتضح لنا من رواية مؤلف الجستا المجهول أيضا أن الصليبيين حـــاولوا أن يتفاهموا مع كربوغا فاستخدموا معه أولا أسلوب اللين وأرسلوا له ســفارة يطلبــون منه العودة بكل ما يملك دون التعرض له، فما كان منـــه إلا أن رد علـــيهم بكتـــاب شديد اللهجة يدعوهم فيه إلى التترك وسرعة مغادرة البلاد فى مقابل عدم التعــرض لهم ولا لشئ من ممتلكاتهم، وهددهم إن أبوا بملاقاة الموت علـــى يديـــه أو نقلهـــم كأسرى إلى خراسان حيث يصبحون عبيداً إلى الأبد.

أما رواية ريموندداجيل فقد كانت مختصرة للغاية حيث يقول:

"حدد الزعماء تاريخ المعركة، ثم أرسلوا بطرس الناسك إلى كربوغا، أتابـــك الموصل، ومعه أوامر بأن يتخلى عن حصار أنطاكية، لأنها كانت تدخل فى نطـــاق اختصاص القديس بطرس والمسيحيين. إلا أن كربوغا المتغطرس، أجاب بأنه سواء كان على حق أو خطأ، فإنه يرغب فى أن يصبح سيداً على المدينة وعلى الفرنجة، وجعل بطرس الناسك يركع أمامه رغما عنه"(٤١).

ولم يشر ريموندداجيل فى روايته إلى مسألة الارتداد عـــن الإســـلام أو عـــن المسيحية كما ورد فى روايتى توديبود ومؤلف الجستا المجهول ولكنه تحدث عن أن السفارة كانت تحمل أوامر لكربوغا بالتخلى عن حصار أنطاكية، ولكـــن كربوغـــا رفض وأجبر بطرس الناسك على الركوع أمامه رغما عنه.

أما رواية فوشيه الشارترى فتقول:

"بعد التشاور، أخبر الفرنجة الأتراك عن طريق بطرس الناسك، أنهم إن لـــم يغادروا الأرض التى كان يملكها المسيحيون فـــى الماضـــى بـــسلام، فـــإنهم، أى الفرنجة، سيشنون عليهم هجوماً فى اليوم التالى. وإذا ما فضل الأتراك فإن السجال سيقع بين خمسة أو عشرة أو عشرين أو حتى مائة فـــارس يختـــارون مـــن بـــين

الطرفين، لئلا تراق دماء كثيرة إذا ما احتدم القتال بين جميع المحـاربين، وسـوف يستلم الطرف الذى ينتصر رجاله على الآخرين، المدينة بسلام ويحكمها دون نزاع بعد ذلك.

طلب الفرنجة ذلك، ولكن الأتراك لم يستجيبوا لهم إذ كانت لديهم ثقة بأعدادهم الهائلة وقوتهم واعتقدوا أنهم يستطيعون التغلب علينا وإبادتنا"(٤٢).

ومن الواضح أن رواية فوشيه الشارترى هى الأخرى لم يرد بها شـيئاً عـن مسألة عرض الارتداد عن الإسلام من جانب سفراء الفرنجة، أو عرض الارتـداد عن المسيحية من جانب كربوغا.

غير أن هذه الرواية أشارت إلى شئ جديد لم يرد فى روايتى توديبود ومؤلف الجستا المجهول، وهو أن سفراء الفرنجة عرضوا على كربوغا أنـه إذا لـم يـتم الاتفاق بين الطرفين يتم حسم المعركة عن طريق المبارزة الفردية بـين خمـسة أو عشرة أو عشرين أو حتى مائة فارس يتم اختيارهم من الطرفين، لئلا تـراق دمـاء كثيرة إذا ما احتدم القتال بين جميع المحاربين، على أن يستلم الطـرف المنتـصر المدينة بسلام، ولكن الترك لم يوافقوا على هذا العرض ثقة فى قوتهم.

ونستخلص من كل ذلك أن الصليبيين عقدوا مجلـسا وتـشاوروا، فأجمعـت آراؤهم على المبادرة بالدخول فى مفاوضات مع كربوغا وحلفائه، فأرسلوا فى يـوم ٢٧ يونيه ١٠٩٨/ ٢٥ رجب ٤٩١هـ سفارة إلى المعسكر الإسلامى للتفاوض مـع كربوغا(٤٣).

وقد اختلفت الآراء والروايات حول طبيعة المهمة التى قامت بها هذه السفارة الصليبية، وحقيقة المفاوضات التى أجرتها مع كربوغا، فذهبت الرواية الصليبية إلى أنها كانت تحمل أمرا من زعماء الحملة إلى كربوغا برفع الحصار عـن أنطاكيـة وترك المسيحيين وشأنهم، لأن أنطاكية مدينة مسيحية وليس للمسلمين أدنى حق فيما

يقومون به من أجل استردادها، كما كان من أهدافها إغراء كربوغا بالدخول في المسيحية ونبذ عقيدته، فإذا أصر على الحرب كان عليها أن تعرض عليه أن يكون القتال على شكل مبارزة يختار فيها كل من الجانبين خيرة من عنده لإنهاء هذه الحرب الضروس(٤٤).

ويبدو أن بطرس الناسك حاول في أول الأمر إخافة كربوغا وتهديده بالكلام عن إمكانيات الصليبيين وأسلحتهم وتمسكهم بأنطاكية وربما جرت اقتراحات بإجراء مبارزات فردية لحسم الأمر بين الطرفين إلا أن السفارة الصليبية اصطدمت بعناد كربوغا الذي رأى أن يستسلم الصليبيون دون قيد أو شرط، أو أن السيف هو الذي يحدد مصير أنطاكية(٤٥).

أما الرواية الإسلامية فقد ذهبت إلى أن الصليبيين طلبوا على لسان سفارتهم هذه الأمام من كربوغا وأن يخرجوا من المدينة سالمين، فرفض كربوغا إعطاءهم الأمان وأصر على إخراجهم بالقوة، حيث قال لهم " لا تخرجوا إلا بالسيف"(٤٦).

ويتناول أحد المؤرخين المحدثين هذه السفارة ويعلق على مهمتها، فذهب إلى أنها وقفت على أحوال المسلمين، ولمست عن كثب عوامل الفرقة الناشبة أظفارها بين عناصر الحلف الإسلامي، أي أن من أهدافها كان التجسس على المعسكر الإسلامي(٤٧).

وليس هناك تعليل لموقف كربوغا هذا إلا إذا وضعنا في اعتبارنا اختلاف الروايتين الصليبية والإسلامية. فإذا كان هدف السفارة هو إقناع كربوغا بالانصراف عن حصار الصليبيين بأنطاكية، أو إغرائه بالدخول في النصرانية، أو عرض أي نوع من القتال عليه، أو التجسس على معسكره، فإن فشل المفاوضات يصبح أمراً متوقعاً ويعطينا تعليلاً مقبولاً لرفض هذه المقترحات.

فلم يكن بوسع كربوغا ترك حصار الصليبيين بأنطاكية وقد أشرفوا على

الهلاك وساءت حالتهم كثيراً بما يغرى بالتخلص منهم. ولم يكن بالإمكـــان أيـــضا مجرد سماع إغراء بالارتداد عن عقيدته والدخول فى النصرانية كما تذهب الرواية، وكذلك لم يستطيع الموافقة على أن تكون الحرب على شكل مبارزة فرديـــة، وهـــو أمر يعطى للصليبيين فرصة اختيار أبرز عناصرهم وأقواها فى الوقت الذى كانـــت غالبية الجموع الصليبية تعانى شدة الجوع والضعف الأمر الذى يمـــنح المـــسلمين فرصة مواتيه للقضاء عليهم، وأخيراً فإنه إذا كان هدف هذه السفارة هو التجـــسس على معسكر المسلمين فإنها لن تكون بحال على استعداد لتقبل أية مقترحـــات مـــن الجانب الآخر، ومن هنا نجد أن فشل المفاوضات يصبح أمراً مؤكدا مـــن الجانـــب الإسلامى(٤٨).

أما إن صحت الرواية الإسلامية من أن الصليبيين طلبوا الأمان فمنعه عـــنهم كربوغا وقال: "لا تخرجوا إلا بالسيف"، فإن تعليل ذلك يرجع فى أغلب الظن إمـــا إلى رغبة كربوغا فى الانتقام لإخوانه فى الدين ممن لقـــوا حـــتفهم عنـــد اقتحـــام الصليبيين لأنطاكية وقيامهم بإحداث مذابح رهيبة بها، وإما لشعوره بأن إعطاء مثل هذه الجموع الأمان أمر لا تحمد عقباه، وهى جموع كبيرة عضها الجـــوع ونالـــت منها المحن، وبفرض سلامة قواته منها أمام أنطاكية فلابد وأنها ستنـــصرف إلـــى غيرها من مدن المسلمين وتسبب لكربوغا مضايقات هو فى غنى عنها.

لذا فقد حاول استئصال شأفتها دفعه واحدة، هذا مع ثقته التامة فى الانتـــصار على مثل هذا العدو المستسلم – حسب الرواية الإسلامية– إذ أيقن أن طلبـــه هـــذا صادر عما به من ضعف وليس عن قوة، فلا أقل من أن ينتهز الفرصـــة للقـــضاء على هذا العدو دفعة واحدة(٤٩).

وكيفما كان الأمر فقد فشلت المفاوضات ولم يكن هناك مفر من القتال.

٤- اتفاقية بوهيموند وأحمد بن مروان متولى قلعة أنطاكية

نص رواية توديبود:

"وبعد أن تسلم كربوغا القلعة، استدعى على الفور أحد أمرائه(٥٠)، توسم فيه الصدق ودماثة الأخلاق والمسالمة وخاطبة قائلاً:

"أريدك أن تقوم بحراسة القلعة بكل إخلاص، لأنني أعرف من زمن بعيد أنك أجدر رجالي بثقتي، وأرجو أن تقوم على حمايتها بحيطة تامة، وحتى الآن فإنني أعرف أنك تحسن أداء واجباتك، ولن أجد من يفوقك صدقاً وشجاعة".

وتردد الأمير قائلاً: " كنت أفضل أن لا أقوم بهذه المهمة، ولكن باقتناعي بما سمعته منك، فسوف أقبل القيام بهذه المهمة شريطة أن أسلم القلعة للفرنج إذا ما انتصروا عليك في معركة فاصلة"(٥١). فرد كربوغا وقد اقتنع برأيه قائلاً: " إنني أعرف أنك أمين وحكيم وأوافق على كل ما ستفعله من أعمال نافعة"(٥٢).

وقد جاءت رواية المؤلف المجهول مشابهة لرواية توديبود حيث يقول:

"فلما تسلم كربوقا القلعة دعى إليه قائداً من قواده يقدر فيه الإخلاص والطيبة والهدوء وقال له: "أريد منك أن تكون وفياً لي في حراسة هذه القلعة، لأنني أعرف منذ أمد بعيد قدر وفائك، وإني لموكل إياها إليك للعناية بها في المحافظة عليها، فأجابه القائد: " وددت لو أعفيتني من هذا الأمر، ومع ذلك فإنني أقبله على شرط واحد هو أن أبادر إلى تسليم القلعة للفرنجة إن هم انتصروا عليك في وقعة فاصلة، فأجابه كربوغا "إنني أعرف تمام المعرفة صدقك وحكمتك ولذلك فإنني أقبل كل ما ترى الخير فيه"(٥٣).

الأمير الذي يقصده توديبود، ويبدو أنه لم يعرف اسمه، والذي تسلم القلعة من كربوغا هو الأمير أحمد بن مروان، والأرجح أنه هو الأمير الذي شارك كربوغا في هذا الحوار الذي ذكره كل من توديبود ومؤلف الجستا المجهول(٥٤).

فبعد سقوط أنطاكية في أيدي الصليبيين بعث شمس الدولة بن ياغي سيان إلى

كربوغا يطلب مساعدته، ولما حضر كربوغا إلى أنطاكية اشترط أولاً تسليم القلعة- التى لا زالت فى حوزة شمس الدوله - إلى رجاله، قبل أن يشرع فى الحرب، ورغم ما فى هذا الشرط من عدم ثقه متبادلة بين الطرفين، إلا أن كربوغا أراد أن يؤمن نفسه قبل أن يزج برجاله فى هذه الحرب، وأن يخضع القلعة لقيادته مباشرة خوفاً من أية خيانة تأتى من وراء ظهره، فكان له ما أراد، ووافق شمس الدولة على ذلك مجبرا، فولى كربوغا على القلعة أحمد بن مروان أحد رجاله الأوفياء، وعهد إليه كربوغا بحراسة القلعة، وبقى ابن مروان يدافع عن القلعة حتى سلمها إلى بوهيمند بعد هزيمة كربوغا فى ٢٨ يونية ١٠٩٨م/٢٦ رجب ٤٩١هـ ورحيله إلى الموصل(٥٥).

هذا ما ذكرته المصادر الإسلامية، أما المصادر اللاتينية المعاصرة وعلى رأسها توديبود ومؤلف الجستا المجهول فقد حرصت على ذكر هذا الحوار الذى دار بين كربوغا وبين قائده أحمد بن مروان، ويبدو أن هذا الحوار كان من نسج خيال هذه المصادر، فإذا أمعنا النظر فيه سنلاحظ أن كاتبه كان على علم بالأحداث التى وقعت بعد هزيمة كربوغا قبل أن تقع(٥٦).

فهو يذكر مدى ثقة كربوغا فى أمانة وصدق وإخلاص قائده أحمد بن مروان ولذلك فقد عهد إليه بحراسة قلعة أنطاكية، غير أن هذا القائد تردد فى قبول المهمة كما يتضح من المحادثة التى ذكرها توديبود وكأنه كان يعلم بما سيحدث من هزيمة كربوغا، ولذلك فقد اشترط على كربوغا أن يسلم القلعة للفرنج فى حاله انتصارهم على كربوغا فى المعركة الفاصلة، والمدهش والغريب أن كربوغا وافق قائده على هذا الشرط لثقته فى أنه أمين وحكيم ولن يفعل إلا ما تمليه المصلحة.

وكأن توديبود أراد أن يوحى للقارئ أن ما سيفعله أحمد بن مروان بعد ذلك من إرتداد عن الإسلام هو عين المصلحة.

ثم يتحدث توديبود عما فعله أحمد بن مروان متولى قلعة أنطاكية بعد أن علم بسقوط المدينة فى أيدى الصليبيين حيث يقول:-

"عندما شاهد الأمير متولى القلعة كربوغا وكل الوثنيين وهم يلوذون بـــالفرار من ميدان القتال أمام الجيش الفرنجى استبد به الغضب واشتعل فى نفـــس الوقـــت غضباً، وسارع يطلب راية فرنجية.

وأصدر كونت صنجيل الذى كان يقوم على مواجهة الترك فى القلعـــة، بـــأن يرسل علمه إلى الأمير الذى سارع باستلامها مسروراً، ونصبها بعناية فوق أعلـــى أبراج القلعة، وطلب فيما بعد علـــم بوهيمنـــد، الـــذى ســـلمه إليـــه بعـــد انتهـــاء المعركة،وتسلم الأمير علم بوهيمند بسرور وفرح بالغين.

إلى جانب أنه قام بعقد اتفاقية مع بوهيمند أصبح بمقتضاها فى مقدور أولئـــك الذين يرغبون فى اعتناق المسيحية للانضمام إلى القوات النورماندية، أمـــا الـــذين يرغبون فى التوجه إلى خراسان، فهؤلاء يمكنهم الرحيل آمنين مطمئنين.

ووافق بوهيمند على طلبات الأمير، وسارع بإحلال رجاله فى القلعة، وبعـــد ذلك بفترة وجيزة تم تعميد الأمير مع أولئك الذين اعترفوا بالمسيح، وأمر بوهيمنـــد برحيل من رفضوا الارتداد عن الإسلام إلى بلاد المسلمين"(٥٧).

ويبدو أن أحمد بن مروان نائب كربوغا فـــى قلعـــة أنطاكيـــة، أدرك عبـــث المقاومة عندما علم بهزيمة كربوغا وجيشه، ففاوض الصليبيين وأعلـــن استـــسلامه لهم، حيث سمح له ولحاميته بمغادرة المكان دون التعرض لهـــم بـــأذى، غيـــر أن توديبود وبقية المصادر اللاتينية المعاصرة، تذكر أنه تحـــول هـــو وجماعـــة مـــن أصحابه إلى المسيحية وانحازوا إلى جيش بوهيموند.

أما رواية مؤلف الجستا المجهول بخصوص هذه الحادثة فتقول:

" أما [أحمد بن مروان] القائد القائم بحراسة القلعة فقد استبد به الـــذعر حـــين

رأى كربوغا ورجاله يفرون من ساحة القتال أمام جيش الفرنجة، وسرعان ما بادر إلى طلب الرايات الفرنجية، فأمر كونت صنجيل – الذى كان مرابطا أمام القلعة– برفع رايته دون سواه، فأخذها منه وركزها لساعته على البرج، فلما شاهدها اللمبارديون(٥٨)، الموجودون هناك قالوا: "ليست هذه راية بوهيمند"، فسألهم [أحمد بن مروان]: "فراية من إذن ؟" فأجابوه: إنها راية كونت صنجيل"، وحينذاك تقدم [أحمد بن مروان] واقتلع الراية وردها إلى الكونت، وفى هذه اللحظة قدم بوهيمند المحترم وناول رايته [للقائد] التركى الذى تلقاها بيد السرور، وعقد اتفاقية مع السيد بوهيمند الذى إذن بمقتضاها للكفرة الذين يريدون اعتناق المسيحية بالإقامة معه، بينما إذن لمن انصرف عنها منهم بالرجوع سالمين آمنين دون أن يمسسهم أدنى ضر أو أذى.

ووافق [بوهيمند] على جميع مطالب الأمير [أحمد بن مروان]، وسرعان ما أنزل سر جنديته فى القلعة، ولم تنقض إلا أيام قلائل حتى عمد القائد المسلم وجميع من آثروا الإيمان بالمسيح، أما أولئك الذين فضلوا البقاء على ملتهم فقد بعثهم السيد بوهيمند إلى منطقة المسلمين"(٥٩).

ونلاحظ أن مؤلف الجستا المجهول ذكر أن أحمد بن مروان عندما رفع العلم الأول وعرف أنه ليس علم بوهيموند انتزعه من موضعه وطلب علم بوهيموند النورماندى وتسلمه بكل سرور، ويستدل من سياق هذا الكلام على وجود اتصال سرى سابق بين بوهيموند وبين أحمد بن مروان، وقد أخفاه بوهيموند عن بقية زعماء الحملة – كما فعل مع فيروز من قبل– بدليل أن أحمد بن مروان رفض تسليم القلعة إلا لبوهيموند، ولم يرض بتسليمها لريموند.

وهكذا يجعل مؤلف الجستا المجهول، أحمد بن مروان يعدل عن رأيه ويسلم القلعة لبوهيموند دون بقية الأمراء الصليبيين، وهى محاولة لإبراز دور بوهيموند

فى الحملة الصليبية الأولى، الأمر الذى حرص عليه مؤلف الجستا أو من أقحم هذه الرواية على نص الجستا(٦٠).

أما عن مسألة ارتداد بعض المسلمين عن الدين الإسلامى الحنيف، فإن ورود مثل هذه الروايات فى المصادر اللاتينية التى عالجت تاريخ الحملة الصليبية الأولى، أمر لا يعدو أن يكون مجرد محاولة منهم لإثارة الحماسة الصليبية فى غرب أوربا.

وبالنسبة لمؤلف الجستا المجهول بصفة خاصة فهى دعاية لبوهيموند النورماندى فى غرب أوربا، ومن المعروف أن بوهيموند قد استخدم نص الجستا للدعاية لنفسه ولقضيته لامتلاك أنطاكية فى غرب أوربا، وربما لم يجد غضاضة فى إظهار نفسه بمظهر المتسامح فى سبيل الدين المسيحى أمام الرأى العام فى غرب أوربا(٦١)، فوافق كما تذكر الرواية اللاتينية على طلبات أحمد بن مروان وعقد معه اتفاقية أذن بمقتضاها للذين يرغبون فى اعتناق المسيحية بالإقامة معه ، بينما أذن لمن انصرف عنها منهم بالرجوع سالمين أمنين دون أن يمسسهم أدنى ضر أو أذى(٦٢).

وقد جاءت رواية فوشيه الشارترى مختصره جداً حول هذا الموضوع حيث تقول:

"بعد أن هزمنا الأتراك ولاحقناهم طوال اليوم وقتلنا آلافا عديدة منهم، عدنا إلى المدينة جذلين سعداء، ثم سلم أمير معين القلعة السابقة الذكر لبيهمند ومعها ألف رجل، وتنازل راضيا عنهم لبيهمند، فاعتنقوا الديانة المسيحية، وهكذا خلص سيدنا يسوع المسيح كل أنطاكية وأسلمها لديانة روما".(٦٣).

ويتضح من رواية فوشية أنه لم يشر إلى ارتداد أحمد بن مروان متولى القلعة عن الإسلام وتعميده كما ذكرت روايتى توديبود ومؤلف الجستا المجهول، وانما

ذكر أن أحمد بن مروان تنازل راضيا عن ألف رجل من المسلمين وسلمهم مع القلعة للأمير بوهيمند النورماندى، وأن هؤلاء اعتنقوا الديانة المسيحية.

أما رواية ريموندداجيل فقد جاءت هى الأخرى مختصرة للغاية ولم تشر من قريب أو بعيد إلى موضوع ارتداد المسلمين عن الإسلام حيث يقول:

"وأعد الرب لنا حدثاً سعيداً آخر، وهو أن المدافعين عن القلعة عندما رأوا هروب رجال كربوغا، يئسوا واستسلم بعضهم بعد ضمان حياتهم، بينما لاذ آخرون بالفرار على وجه السرعة"(٦٤).

أما رواية المصادر الإسلامية فقد ذكرت أن الصليبيين أمنوا أحمد بن مروان وأنزلوه في دار بأنطاكية، وأطلقوا أصحابه وسيروا معهم من يوصلهم إلى أعمال حلب، فخرج الأرمن فأخذوا بعضهم وقتلوا بعضهم ولم يسلم منهم إلا القليل(٦٥).

٥- ريموند بيليه ومسلمى تل منس:

نص رواية توديبود:

"كان في جيش ريموند كونت صنجيل(٦٦) أحد الفرسان يدعى ريموند بيليه(٦٧)، كان في معيته كثير من الفرسان والأتباع، ورحل هذا الفارس بصحبة رجاله واخترق حدود بلاد المسلمين ماراً بمدينتين إسلاميتين، ووصل إلى قلعة تسمى تل منس(٦٨)، فسارع سكانها السريان بتسليمها إليه.

وأقام الصليبيون في هذا الموضع قرابة ثمانية أيام حتى وصلت الرسل برسالة تقول: "يوجد على مقربة منكم حصن يعج بالمسلمين". فخرج الفرسان المسيحيون وأحكموا تطويق الحصن، وأستولوا عليه في الحال بعون الرب والقبر المقدس(٦٩)، وأسروا كل من فيه من المسلمين، وأبقوا على حياة من اعترفوا بالمسيح كمخلصهم ورغبوا في أن يعمدوا، وقتلوا كل من رفض منهم اعتناق المسيحية، وعادوا فرحين إلى الحصن الذي جاءوا منه"(٧٠).

وتكاد رواية مؤلف الجستا المجهول تتطابق مع رواية توديبود حول هذه الحادثة مع اختلاف في بعض الألفاظ حيث يذكر المؤلف المجهول قوله:

"فنهض الحجاج – فرسان المسيح – في الحال للزحف على هذا الحصن وأحدقوا به من كل جانب، وسرعان ما تمكنوا من الاستيلاء عليه بمعونة السيد المسيح، وإذ ذاك ألقوا القبض على جميع فلاحى تلك الناحية وقتلوا كل من أبى اعتناق النصرانية، أما أولئك الذين آثروا الإيمان بالمسيح فقد أخلوا سبيلهم وأبقوا على حياتهم"(٧١).

ويفهم من رواية ابن العديم أن الفارس ريموند بيليه كان على صلة بالسريان والأرمن في تلك النواحي قبل أن يقوم بحملته، وأنهم شاركوه في الزحف مما سهل له مهمته(٧٢).

وواضح من النص اللاتينى أن الفارس الصليبى ريموند بيليه قد قام بذبح أسراه من المسلمين الذين لم يقبلوا إعتناق المسيحية، بالقرب من قرية تل منس.

ومعنى ذلك أن إعتناق المسلمين للنصرانية في ذلك الحصن لم يكن عن رغبة واقتناع ولكنه كان إجبارياً فقد أرغموا على التنصر بالقوة، فقد خيروا بين خيارين إما إعتناق المسيحية وإما القتل.

فاختار بعضهم القتل وأكره آخرون على إعتناق المسيحية، وبذلك أكرهت الظروف القهرية معظمهم على التنصر. وهذا يذكرنا بما كان يفعله المسلمون في فترة الفتوحات الإسلامية عندما كانوا يدخلون بلداً من البلدان أو قرية من القرى فكانوا يخيرون أهلها بين ثلاثة خيارات، إما إعتناق الإسلام أو دفع الجزية إذا أرادوا أن يظلوا على ديانتهم، أو القتال وجها لوجه، وهناك فرق كبير بين القتال والقتل.

أما ريموند بيليه الصليبى فلم يفعل ذلك في هذه الواقعة بل أنه وضع

المسلمين أمام خيارين إما التنصر وإما الموت فأختار بعضهم التنصر واختار آخرون الموت كما جاء في النص اللاتيني.

"وقتلوا كل من أبى اعتناق النصرانية، أما أولئك الذين آثروا الإيمان بالمسيح فقد أخلوا سبيلهم وأبقوا على حياتهم".

فحتى لو كان المسلمون في ذلك الحصن قد اضطروا إلى الارتداد عن الإسلام وإعتناق المسيحية، فقد كان ذلك تحت ضغط الرعب والخوف من القتل، فباعتراف توديبود نفسه في روايته أن ريموند بيليه ورجاله قتلوا كل من رفض إعتناق المسيحية، ولذلك فقد أرغموا على الارتداد عن الإسلام.

ولا ريب أن ما فعله الصليبيون في هذا الحصن إنما حدث من منطلق روح التعصب البغيض الذي يتنافى تماماً مع روح التعاليم المسيحية التي تدعو إلى المحبة والتسامح والخير.

٦- جودفرى دى بوايون ومسلمى عزاز:

نص رواية ريموندا جيل:

"حاصر أتراك حلب قلعة تسمى عزاز Azaz(٧٣)، وقلق الأتراك المحاصرين داخلها، فطلبوا من جودفرى(٧٤)، الذي كان في منطقة قريبة منهم، أن يسلموه قلعتهم، لأنهم يفضلون سيداً فرنجياً.

وبالتالى استدعى الدوق عند عودته إلى أنطاكية، ريموند الذي كان قد شفى من مرضه، وكل فرسانه ومشاته الذين كان الكونت قد قادهم إلى أراضى المسلمين لنهب الريف من أجل الفقراء. كما جد في طلبه من ريموند أن يسرع الأخير من أجل الرب، ومن أجل شرف جيش الفرنجة – لمساعدة الأتراك المرتدين الذين كانوا الآن يستصرخون الرب.

كما أوضح أن الأتراك المحاصرين رسموا علامة الصليب في مواجهة آلات

المحاصرين.

ونتيجة لهذه الإلتماسات وغيرها، سار الكونت مع جودفرى، إلا أن الأتـــراك تخلوا عن الحصار لدى سماع هذا النبأ. وبالتالى فعند وصول جيشنا إلـــى عـــزاز، أخذ الدوق رهائن من القلعة ليضمن ولاء أهل عزاز في المستقبل، وعـــاد ريمونـــد إلى أنطاكية(٧٥)". هذه الرواية لم ترد عنـــد توديبـــود ولا عنـــد مؤلـــف الجـــستا المجهول.

ويذكر ريمونداجيل في هذه الرواية أن مسلمى عزاز قد ارتدوا عن الإســـلام وطلبوا مساعدة فرنج الحملة الصليبية الأولى ضد سلاجقة حلب، ومـــسألة ارتـــداد بعض المسلمين عن الإسلام الذي يرد في المصادر اللاتينية التي عالجـــت تـــاريخ الحملة الصليبية الأولى تكتنفه الشكوك، ومنها مـــا أورده ريمونـــداجيل فـــي هـــذه الرواية.

وأول ما يلفت نظرنا في رواية ريمونداجيل أنه تعمد التعمـــيم فـــي روايتـــه فالمصادر الأخرى التي تحدثت عن هذه الحادثة تذكر أن عمر والى عزاز هو الذي استنجد بالفرنج وليس كل مسلمى عزاز كما ذكر ريمونداجيل، وبالتـــالى فـــإن مـــا أورده ريمونداجيل في روايته تنقصه الدقة وهو بعيد عن الحقيقة، فكل ما حدث أنه في شوال من عام ٤٩١هـــ/ سبتمبر ١٠٩٨م عصى عمر والى عزاز سيده الملـــك رضوان بن تتش صاحب حلب(٧٦) وخرج عن طاعته، فأرسل رضـــوان جيـــشاً لمحاصرة عمر، وعندئذ لم يسع عمر سوى طلب النجدة من جودفرى دى بوايـــون حاكم بيت المقدس الصليبى(٧٧).

ويشير المؤرخ وليم الصورى إلى أن عمر والى عزاز "أرسل واحـــداً مـــن خاصته وأهل بلده – وكان مسيحياً مخلصاً له – إلـــى الـــدوق (جـــودفرى) يـــسأله محالفته وزوده بالهدايا إليه ضماناً لنوال تأييده، وزاد بأن وعده أن يخلص لـــه قلبـــاً

وروحاً، وأبدى رغبة في أن يرتبط به باتفاقية يلتزم بها التزاماً تاماً وألحف في الرجاء إلى جودفرى أن ينهض في لحظته هذه ليخلصه من الخطر المحدق به(٧٨).

وأكثر من هذا أن عمر والى عزاز أرسل ابنه ليظل رهينة عند جودفرى ضماناً لإخلاصه وإثبات عدم نيته في التغرير بالصليبيين(٧٩).

ورغم أن رواية وليم الصورى تلوح أن عمر والى عزاز وعد جودفرى "أن يخلص له قلباً وروحاً"، إلا أنها لا تذكر شيئاً عن ارتداد مسلمى عزاز عن الإسلام كما ورد في رواية ريموندا جيل السابقة.

ولم يتردد جودفرى الصليبى في تلبية نداء عمر والى عزاز، وبادر فأرسل في لحظته رسلاً من جهته إلى أخيه بلدوين كونت الرها يدعوه للقدوم عليه بعسكره ليكون عوناً له في دفع الحصار عن والى عزاز، فاستجاب له أخوه، كما حصل على مساعدات أخرى من بوهيموند وريموند، وتجمعت هذه القوات الصليبية وسارت لنجدة عمر والى عزاز(٨٠).

فلما رأى رضوان بن تتش وقواته كثرة جموع الصليبيين، اضطروا لرفع الحصار عن عزاز والانسحاب إلى حلب(٨١) على أن جودفرى لم يقنع بذلك وإنما رأى اغتنام الفرصة لتحقيق بعض الأطماع الصليبية في شمال الشام، ولذلك استمر في طريقه إلى عزاز، حيث خرج عمر والى الحصن في ثلاثمائة فارس من فرسانه لاستقبال جودفرى، وترجل أمامه من فوق فرسه وأعلن تبعيته له(٨٢).

ولم يغفر رضوان بن تتش صاحب حلب لعمر والى عزاز فعلته هذه، فما زال به حتى تمكن من أسره، وأخذه من تل هراق(٨٣)، فسلم إليه عمر عزاز، وأقام عنده مدة بحلب ثم قتله(٨٤).

وهذا الحدث يدل على أن الأمراء المسلمين – المنقسمين على أنفسهم – بدأوا

يميلون إلى الاستعانة بالصليبيين في منازعتهم مع إخوانهم المسلمين، كما يدل على أن الصليبيين أنفسهم بدأوا يميلون إلى أن ينتمى إليهم أتباع مسلمون، مما يسهل لهم تحقيق أطماعهم في المنطقة(٨٥).

٧- ريموند الصنجيلى وتنصير البارة

نص رواية توديبود:

"دخل ريموند كونت صنجيل المبجل أراضى المسلمين ووصل إلى بلدة تسمى البارة(٨٦) وحاصرها بقواته، واستولى عليها بمشيئة الرب في فترة وجيزة، ثم قام بقتل كل من وجده فيها من المسلمين، رجل أو امرأة، كبير أو صغير(٨٧).

وبعد أن وطد سلطته أعاد ريموند المدينة إلى الدين المسيحى، ثم بدأ دونما تأجيل بالتشاور مع أكثر مستشاريه حكمه كيف يختار بإخلاص الأسقف الذي يكرس نفسه تماماً ليعيد البارة إلى عناية الرب، وليقيم هناك محاريب القديسين تكريماً لهم. بعد ذلك اختار كاهناً وأرسله إلى أنطاكية لرسامته(٨٨) وبعد هذه الشعائر، عقد الأسقف الجديد المجالس بصفته بديلاً عن أدهيمار(٨٩) أسقف لى بويه"(٩٠).

هذا هو نص رواية توديبود، ويكاد نص رواية مؤلف الجستا المجهول يتطابق مع رواية توديبود فيما يتعلق بهذه الحادثة حيث يقول:

"رحل بعد ذلك بقليل الكونت المحترم ريموند دى صنجيل، وتوغل في المنطقة الإسلامية حتى بلغ بلده يدعونها "البارة"، فشد عليها برجاله، وسرعان ما دانت له، فقتل جميع من وجدهم بها من المسلمين والمسلمات غير مفرق بين صغير وكبير، ولما تم له امتلاكها أرجعها إلى دين المسيح، وعقد مجلساً من ذوى الرأي من جماعته ليعهد فيه بالمدينة إلى رعاية أسقف يرجعها إلى دين المسيح وعبادته، وليجعل من هذا المسكن الشيطانى معبداً نذره الله الحى القيوم، وأقام المحاريب على شرف القديسين.

وسرعان ما اختاروا رجلاً عاقلاً شريفاً سيروه إلى أنطاكية لترسيمه أسقفاً لها، وأخرجوا الاختيار إلى حيز التنفيذ"(٩١).

أما رواية ريمونداجيل فقد جاء فيها:

"تقدم ريموند، بصحبة الحجاج الفقراء وقلة من الفرسان، داخلين الشام، حيث استولى بشجاعة على البارة، أول مدينة إسلامية في طريقه. وهنا قتل الآلاف، وأعاد آلاف غيرهم ليباعوا كعبيد في أنطاكية، وأطلق سراح الجبناء الذين استسلموا قبل سقوط البارة.

وبعد ذلك، وعملا برأى كهنته وأمرائه، اختار الكونت بطريقة صحيحة تستحق الثناء، كاهناً ليكون أسقفاً"(٩٢).

وجاءت رواية فوشيه الشارترى حول هذه الحادثة مختصرة للغاية وقد أشرك فوشيه فيها بوهيموند النورمانى مع ريموند الصنجيلى في الاستيلاء على البارة حيث يقول:

"احتل هذان القائدان ورجالهما مدينتى البحرة (بارا) ومعرة النعمان (مارا)(٩٣) مظهرين بسالة عظيمة في القتال، وقد احتلوا المدينة الأولى بسرعة فائقة وأفنوا مواطنيها عن بكرة أبيهم، وصادروا كل ما فيها، ثم سارعوا إلى المدينة الثانية"(٩٤).

ولا ننسى أن فوشيه الشارترى كان بعيداً عن هذه الأحداث ولم يشاهدها بنفسه لأنه كان قد انتقل إلى الرها مع سيده بلدوين، غير أنه ومن خلال ما سمعه يؤكد على أن الصليبيين أفنوا سكان البارة عن بكرة أبيهم، وصادروا كل ما فيها.

وقد ذكر ياقوت الحموى أن بالبارة حصناً وأنها ذات بساتين، لذا لم تكن غارة الفرنج عليها أمراً عشوائياً، فهم بدأوا استراتيجيتهم بفتح البلدان التي لا يستغرق الاستيلاء عليها وقتاً طويلاً، إلى جانب ما ستوفره البارة وبساتينها لهم من

المؤن(٩٥).

وقد كانت البارة تابعة لمملكة حلب، ويبدو أن رضوان بن تتش صاحب حلب لم يقم بأية محاولة للدفاع عن البلدة فاستولى عليها ريموند الصنجيلى بسهولة في ٢٥ سبتمبر ١٠٩٨م، وعاقب الرجال والنساء واستصفى أموالهم وسبى بعضاً وقتل بعضاً، فضلاً عن أنه حول جامعها الكبير إلى كنيسة كما جاء في الرواية الإسلامية(٩٦).

وواضح من نصوص المصادر اللاتينية المعاصرة أن ريموند الصنجيلى قام بعمل ما يمكن أن نسميه – إذا جاز التعبير – بعملية إبادة جماعية للمسلمين في بلدة البارة حتى يقضى عليهم تماماً ويحل النصارى محلهم في المدينة. "فقتل جميع من وجدهم بها من المسلمين والمسلمات، غير مفرق بين صغير وكبير" رغم استسلامهم له.

ويضيف ريموندأجيل على توديبود ومؤلف الجستا المجهول، أن ريموند الصنجيلى "قتل الآلاف، وأعاد آلاف غيرهم ليباعوا كعبيد في أنطاكية، وأطلق سراح الجبناء الذين استسلموا قبل سقوط البارة"(٩٧).

والمرجح أن هؤلاء الجبناء الذين أطلق سراحهم قبل سقوط البارة كانوا قد ارتضوا مكرهين الارتداد عن الإسلام خوفاً من القتل.

وهذه الحادثة توضح لنا أن الغزو الصليبى للشرق الأدنى الإسلامي استند على أسس وضعتها البابوية بصفتها الداعى الشرعى للحركة الصليبية والمحرك الأول لها، فقد كان على الصليبيين – كما حدد البابا أوربان الثاني الهدف من الحملة الصليبية الأولى أن يقضوا على المسلمين ويستولوا على ديارهم، لتحرير المسيحية الشرقية، والاستيلاء على الأراضى المقدسة.

ومما ورد في خطبة البابا في كليرمونت قوله:

"فإنني، لا بل أن الله وليس أنا، يحثكم ياجنود المسيح على أن تحضوا الرجال مهما كانت مراتبهم، فرساناً كانوا أم مشاة، أغنياء كانوا أم فقراء، أن يسارعوا لسحق هذا الجنس الخسيس من أراضينا، ويمدوا يد العون للسكان المسيحيين قبل فوات الأوان... يا خزينا، ويا عارنا، إذا ما انتصر جنس يتسم بهذه الحقارة والانحطاط، وتستعبده الشياطين والعفاريت، على شعب أنعم الله القدير عليه بالإيمان وتباهى باسم المسيح"(٩٨).

ومن هنا كان القضاء على المسلمين وطردهم من مدنهم والاستيلاء عليها، يمثل استراتيجية الحملة الصليبية الأولى، موائمة لتعليمات البابوية وللأهداف الخاصة لقادة الحملة.

وأياً كان الأمر فقد كان هدف ريموند الصنجيلي هو تفريغ البارة من سكانها المسلمين لكي يعيدها – حسبما رأى – إلى النصرانية، حيث تقول الرواية "ولما تم له امتلاكها أرجعها إلى دين المسيح" بتعيين أسقف عليها ليدير شئونها. وغصت البلد بالمسيحيين، وتحول جامعها الكبير إلى كنيسة.

وكان الكاهن الذي اختاروه أسقفا للبارة يدعى بطرس الناربوني، وكان قسيساً في جيش ريموند الصنجيلي، وكان تعيينه أسقفاً للبارة هي أول مناسبة يعين فيها الصليبيون أساقفة من اللاتين في بلاد الشام، على الرغم من أنهم لم يغيروا – حتى ذلك الوقت – من هيئة الكنيسة اليونانية في أنطاكية، انتظاراً لقدوم الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين حسب وعده لهم(٩٩).

وكان تعيين بطرس الناربوني أمراً غير عادي في حدود القانون الكنسي، ويبدو أن تعيينه كان لسبب سياسي واجتماعي أكثر منه لسبب كنسي، فربما كان الهدف من تعيينه هو أن يقوم بإدارة شئون البارة نيابة عن ريموند الصنجيلي كونت تولوز، أكثر منه لأن يقوم بأداء الخدمات الروحية لسكانها الذين لم يكن من بينهم

من اللاتين سوى الحامية التي تركها الكونت بالمدينة(١٠٠). وقد منح ريموند الصنجيلى كونت تولوز نصف المدينة إلى الأسقف الجديد(١٠١).

وهكذا يمكن القول أن البارة كانت مثلاً سيئاً لما فعله الصليبيون في المشرق الإسلامي، ولا ريب أن ما فعلوه بها إنما حدث من منطلق التعصب البغيض الذي يتنافى تماماً مع روح التعاليم المسيحية التي تدعو إلى المحبة والإخاء.

٨- اتفاقية ريموند الصنجيلى مع ابن عمار أمير طرابلس

نص رواية توديبود:

"كما بعث ملك طرابلس(١٠٢) أيضاً بمبعوثيه إلى كونت صنجيل لعقد إتفاق سلام إذا رغب الكونت في ذلك، كما أرسل إليه بعشرة من الجياد وأربعة من البغال ومبلغ من المال، غير أن ريموند صرح بأنه لن يقبل عروض السلم ما لم يعتنق ملك طرابلس المسيحية، ووعد الملك بذلك"(١٠٣).

"... وداوم ملك طرابلس على إيفاد مبعوثيه إلى كونت صنجيل، يحثه على رفع الحصار وعقد إتفاق سلام معه... ومن ثم عقد الجميع الكبار والصغار مجلساً واتفقوا على أنه من سداد الرأي أن نستأنف الرحلة إلى بيت المقدس... لذلك وافق الجميع على موادعة ملك طرابلس، ورحلوا عن عرقة(١٠٤) ووصلوا قبالة طرابلس في سادس أيام الأسبوع في الثالث عشر من مايو، حيث مكثوا هناك لمدة ثلاثة أيام.

وعقد ملك طرابلس إتفاقاً مع كونت صنجيل والسادة الآخرين، سارع بمقتضاه بفك أسر ثلاثمائة شخصاً كان قد أخذهم أسرى في معارك سابقة، كما قدم لكونت صنجيل خمسة عشر بيزنطاً، وخمسة عشر حصاناً ثميناً، وأكد أنه سيبيع لنا عدداً وفيراً من الخيول والحمير والخبز، وكل السلع الضرورية، وهكذا ضمن لكل الجيش المسيحى وفرة من الخير.

واتفق ملك طرابلس مع الصليبيين على أن يعتنق هو المسيحية ويتسلم أراضيه منهم إذا ما انتصروا على أمير بيت المقدس(١٠٥)، في المعركة المقبلة التي خطط لها ضدهم، وتمكنوا من الاستيلاء على بيت المقدس، وناقش الصليبيون في اجتماعهم الإتفاقية وأبرموها معه"(١٠٦).

وقد تشابهت رواية مؤلف الجستا المجهول مع رواية توديبود عن العرض الذي قدمه ابن عمار أمير طرابلس إلى الصليبيين حيث يقول:

"وبعث أمير طرابلس رسالة من قبله إلى الكونت (ريموند) يسأله الموادعة والإتفاق والارتباط معه برباط المودة إذا أحب، وأنفذ إليه عشر جياد وأربعة بغال وبعض المال، غير أن الكونت صرح أنه لا يقبل مسالمة أمير طرابلس إلا إذا اعتنق النصرانية"(١٠٧).

"..... وبلغنا مدينة طرابلس يوم الجمعة ١٣ مايو، وقضينا بها ثلاثة أيام، فسلمنا (أميرها) أكثر من ثلثمائة حاج كانوا في أسره، وأعطانا خمس عشرة ألف قطعة ذهبية، وخمس عشرة هدية غالية القيمة، وأمدنا أيضاً بذخيرة كبيرة من الجياد والحمير وشتى أنواع المحاصيل التي أغنت جميع جند المسيح، واتفق مع زعمائنا على أن يتنصر، ويتسلم أرضه منهم إذا هم استطاعوا الظهور على خليفة مصر في الحرب التي أعدها لهم وإذا تمكنوا من امتلاك بيت المقدس"(١٠٨).

هذه هى رواية مؤلف الجستا المجهول، أما رواية ريمونداجيل فتقول:

"وعرض علينا ملك طرابلس خمسة عشر ألف قطعة من الذهب من أموال المسلمين، فضلاً عن الخيول والبغال والملابس الكثيرة، بل والمزيد من هذه الهدايا في السنوات التالية... وبالإضافة إلى ذلك فإن سيد جبله(١٠٩) خوفاً من حصار آخر أرسل إلى قادتنا ضريبة قدرها خمسة آلاف قطعة ذهبية، وخيولاً، وبغالاً، وكمية وافرة من النبيذ.

وأصبحت لدينا مؤن كافية لأن الهدايا كانت ترسل إلينا من القلاع والمدن الأخرى غير جبله، وفضلاً عن ذلك، فإن بعض المسلمين، بدافع الخوف أو التحمس لطريقتنا في الحياة، تنصروا"(١١٠).

"... وبعد ذلك عرض ملك طرابلس على قادتنا أن يعطيهم خمسة عشر ألف قطعة ذهبية، وخيولاً، وبغالاً، وملابس، ومؤناً، وسوقاً عامة مفتوحة، كما أنه سيعيد إلينا جميع الأسرى المسيحيين إذا تخلينا عن حصار عرقه"(١١١).

ونلاحظ في رواية ريموندا جيل أنه يشير إلى أن بعض المسلمين ارتدوا عن الإسلام ودخلوا النصرانية بدافع الخوف، غير أنه لا يشير من قريب أو بعيد إلى وعد أمير طرابلس بالدخول في النصرانية كما جاء في رواية توديبود ومؤلف الجستا المجهول.

ولكي نعرف حقيقة ما حدث ينبغي أن نشير إلى أنه بوصول الصليبيين بزعامة ريموند الصنجيلي إلى منطقة كفر طاب(١١٢) بدأت الاتصالات بينهم وبين الدويلات العربية التي انتهزت فرصة انحلال قوى السلاجقة لتؤكد استقلالها ببعض المدن والحصون مثل حمص وطرابلس وشيزر.

وكان مسلك أولئك الأمراء العرب تجاه الصليبيين مختلفاً تماماً عن مسلك الأتراك الذين لم يعرفوا سوى السيف، في حين أدرك الأمراء العرب في الشام خطورة الموقف وعدم وجود قوة إسلامية كبرى قربهم تحميهم من ذلك الخطر، فآثروا اتباع سياسة مرنة استهدفت الإتفاق مع الصليبيين وقبول ما تقدموا به من عروض(١١٣).

فلم يكد الصليبيون يتجهون ناحية عرقة بعد استيلائهم على حصن الأكراد(١١٤)، حتى شعر جلال الملك بن عمار صاحب طرابلس بخطورة الموقف، فبادر بإرسال رسالة مع مبعوثيه إلى الصليبيين يسألهم الموادعة والمسالمة

ويعرض عليهم استعداده لمساعدتهم في الوصول إلى بيت المقدس. ولم يكتف ابن عمار بهذا، بل زود رسله الذين أرسلهم إلى الصليبيين بهدايا لزعماء الصليبيين عبارة عن أربعة بغال وعشرة جياد، مع مبلغ من المال.

ولم يمانع الكونت ريموند – زعيم الصليبيين في هذه المرحلة – في إيفاد مبعوثيه إلى طرابلس لمناقشة المسائل التي عرضها صاحب طرابلس، فوصلت رسله إلى طرابلس قبل أن يشرع فعلاً في حصار عرقة، إلا أن أولئك الرسل انبهروا أمام عظمة طرابلس وثرائها ومدى ما عليه أميرها من غنى، فلما عادوا إلى المعسكر الصليبى أشاروا على ريموند بمهاجمة إحدى القلاع التابعة لابن عمار لإجباره على زيادة ما عرض دفعه من أموال والحصول على تنازلات أخرى ثمناً للسلام.

ونظراً لحاجة ريموند إلى المال في ذلك الوقت، فقد رأى صواب تلك الفكرة وسارع بإلقاء الحصار على عرقة الواقعة على نحو خمسة عشر ميلاً إلى الشمال الشرقى من طرابلس، فوصلها الجيش الصليبى في ١٤ فبراير سنة ١٠٩٩م(١١٥).

وقام ريموند أيضاً بإنفاذ قسم آخر من جيشه لمهاجمة انطرطوس(١١٦) على ساحل البحر – وكانت تابعة أيضاً لبنى عمار – وتم إسقاطها في ١٧ فبراير، كما قام جودفرى وروبرت دى فلاندرز بالهجوم على جبله التي تعهدت بدفع الجزية للصليبيين، وعندئذ انصرف جودفرى وروبرت عنها حيث سارعا بالانضمام إلى ريموند لمعاونته في حصار عرقة(١١٧).

غير أن حصار عرقة امتد قرابة أربعة أشهر دون طائل، ولذلك رأى جودفرى وأيده روبرت ضرورة رفع الحصار عنها والتقدم سريعاً ناحية بيت المقدس، لأن الوقت الذي أضاعه الصليبيون في تلك العملية الحربية لا يعادل بأي حال من الأحوال الفائدة المرجوه من وراء الاستيلاء على تلك المدينة الصغيرة،

واستطاعا جودفرى وروبرت حمل ريموند على الاستسلام لرأى الأغلبية الصليبية، ومن ثم جرى رفع الحصار عن عرقة في ١٣ مايو سنة ١٠٩٩(١١٨)، وزحف الصليبيين على طرابلس، وعندئذ عاد ابن عمار صاحب طرابلس إلى الإذعان والمسالمة رغبة منه في تجنب ويلات الحرب، وأرسل إلى الصليبيين من جديد يتعهد لهم بدفع خمسة عشر ألف قطعة ذهبية، ومثلها من الهدايا الغالية القيمة، بالإضافة إلى مازودهم به من الذخيرة والمؤن وإطلاق سراح ثلاثمائة من الصليبيين الذين كانوا في أسرة بطرابلس(١١٩).

هذا هو ما حدث، غير أن المصادر اللاتينية المعاصرة وعلى رأسها توديبود ومؤلف الجستا المجهول تضيف أن أمير طرابلس تعهد باعتناق النصرانية إذا نجح الصليبيون في الانتصار على الجيوش الفاطمية(١٢٠).

وفى الحقيقة فقد جاءت روايتى توديبود ومؤلف الجستا المجهول عن العرض الذي قدمه ابن عمار أمير طرابلس إلى الفرنج متشابهة، وتصلح في حد ذاتها كدعاية صليبية في غرب أوربا، لحث سكانه على القدوم إلى الشرق، وكدعاية لنجاحات الحملة الصليبية الأولى.

فلم يكن العرض الذي قدمه أمير طرابلس للصليبيين نظير التخلى عن حصار عرقة، كما يقرر ريموندا جيل، وإنما كان نظير عدم تعرض الصليبيين لطرابلس نفسها، وهنا أصاب كل من توديبود ومؤلف الجستا المجهول لب الحقيقة، إلا أنهما قد جانبهما الصواب عندما أزادا على ما ذكره ريموندا جيل من أن أمير طرابلس عرض عليهم أن يرتد هو إلى المسيحية إذا ما انتصر الصليبيين على الجيش الفاطمى، وأن يحكم في بلاده تحت حكم الصليبيين.

وفى الحقيقة لم يتعد ما قدمه ابن عمار للصليبيين في طبيعته، المهادنة حتى يتخلص من شرورهم، وهو يرى الجبهة الإسلامية مفككة، وكان من الصعب عليه

نيل المساعدة من السلاجقة أو من الفاطميين. والدليل على ذلك أنه حين وجد في عام ١١٠٢م أن الكونت ريموند الصنجيلى مُصر على الاستيلاء على طرابلس بدأ يستعد للتصدى له، ولم يعد يحرص على استقلاله بين القوى المتنازعة من فواطم مصر وسلاجقة حلب ودمشق، وبدأ يلقى بنفسه – كرهاً – بين أحضان القوى الإسلامية القريبة لمواجهة ريموند الصنجيلى(١٢١).

ولا يستبعد أن يكون وعد ابن عمار للصليبيين بالتنصر – الذي ذكرته المصادر اللاتينية – مكذوباً عليه، بدليل أن أعماله التالية كانت معادية للصليبيين، فقد قام باستعادة ما استولى عليه الصليبيون من أملاكه بعد رحيلهم إلى بيت المقدس، فاستطاع في سنة ٤٩٣هـ/ ١١٠٠م استعادة انطرطوس من الصليبيين، واستعادة جبله التي كان الصليبيون قد فرضوا عليها جزية باهظة(١٢٢) ولو صح خبر وعده باعتناق النصرانية، لما وقف ابن عمار في وجه الصليبيين – فيما بعد – واستعان عليهم بحكام دمشق وبغداد في سنة ٥٠١هـ.

وفضلاً عن ذلك فإن الحاكم المسلم لا يمكن أن يتاجر بدينه خصوصاً وأنه القدوة لرعاياه، فما بالنا بجلال الملك بن عمار القاضى الورع والفقيه العالم ولذلك فإننا نستبعد موافقة أمير مسلم مثل ابن عمار على هذا الشرط مهما كانت نتائج رفضه.

ويبدو أن ابن عمار تعهد فقط بتسليم طرابلس للصليبيين إذا هم نجحوا في الاستيلاء على بيت المقدس من الفاطميين، وهى نفس السياسة المرنة التي ميزت طريقة هذا الأمير في معالجة مثل هذه المشاكل لحفظ استقلال إمارته، ولا تنم أبداً عن تفريط أو تقصير(١٢٣).

أما مسألة الإرتداد عن الدين الإسلامي، فإن الأمر لا يتعدى أن يكون مجرد دعاية صليبية أراد بها توديبود ومؤلف الجستا المجهول إبراز النجاح الصليبى في

الشرق الأدنى الإسلامي وحث الغرب الأوربى على مساندة القضية الصليبية بعد ذلك(١٢٤).

وقبل أن نختتم هذه المواضع والحوادث التي ورد فيها إدعاءات عن ارتداد بعض المسلمين عن الإسلام، نشير إلى أنه قد ورد إدعاء آخر في آخر عبارة من تاريخ ريمونداجيل وبعد هزيمة الفاطميين في معركة عسقلان في أغسطس من عام ١٠٩٩م، بأن رجل تركى يدعى بوهيمند قد ارتد عن الإسلام حيث تقول العبارة:

"عاد العرب، وقد أسقط في أيديهم – ما عدا بعض الاستثناءات – إلى عسقلان التي تبعد عن معسكرنا بمسافة ميل واحد، وقرر ريموند أن يبعث ببوهيمند، وهو رجل تركى، إلى الأمير (يقصد الوزير الأفضل الفاطمى) بمشروع سلام، ولكنه ذكره أنه قد رفض تسليم القدس، واضطر إلى قتالنا.

وفى نفس الوقت كان على بوهيمندهذا، أن يقرر الموقف، وأن يرى ما إذا كان الأمير يخطط لأن يهرب أم ليقاتل، وكيف كان رد فعله إزاء الهزيمة. وكان بوهيمند، مع أنه تركى، ينطق بعدة لغات، وماهراً وأديباً، وأيضاً مخلصاً لنا. وقد سمى ببوهيمند لأن بوهيمند العظيم (النورماندى)، قد استقبله عند حوض المعمودية حين ارتد الأول عن الإسلام وجاءنا مع زوجته وأسلحته"(١٢٥).

هذه الرواية لم ترد إلا عند ريمونداجيل، ويرجح د. حسين عطية مترجم كتاب ريمونداجيل أن ناسخ المخطوط هو الذي وضع هذه العبارة الأخيرة في تاريخ ريمونداجيل، لأن التاريخ يتوقف عند الفقرة السابقة على هذه العبارة الأخيرة فجأة دون أن يكمل قصة المفاوضات بين مبعوث ريموند والأفضل الفاطمى.

أما مسألة ارتداد هذا التركى عن الإسلام فهى تتفق مع مبلغ السعادة الذي عبرت عنه جملة الناسخ التي أنهى بها تاريخ ريمونداجيل بعد أن أدرك فقدان الجزء الأخير منه(١٢٦)، ومن الواضح أن واضع هذه العبارة أراد أن يروج لفكرة

ارتداد بعض المسلمين عن الإسلام، بل وإخلاصهم للصليبيين لدرجة الاعتماد عليهم في التجسس على أخبار المسلمين، وواضح أن هدفه من ذلك كان مجـــرد الدعايـــة الصليبية وإبراز النجاح الصليبى في بلاد الشام عسكريا وتبشيرياً.

الخـــاتمة

توصل الباحث من خلال هذا البحث إلى عدة نتائج لعل أبرزهـــا، أن مـــسألة ارتداد بعض المسلمين عن الإسلام التي وردت في روايـــات المـــؤرخين اللاتـــين المعاصرين للحملة الصليبية الأولى مسألة يكتنفها الشك والتضليل، وهى لا تتعـــدى أن تكون مجرد دعاية صليبية أراد بها هؤلاء المؤرخين إبراز النجاح الصليبى فـــي الشرق الأدنى الإسلامي، وحث الغرب الأوربى على مساندة القضية الصليبية، كمـــا أرادوا بها إثارة الحماسة الصليبية عند الصليبيين في الشرق والغرب.

ولا شك أن مثل هذه الإدعاءات، بجانب الرؤيات والأساطير التـــي انتـــشرت بين الصليبيين كان لها أثر كبير في رفع معنوياتهم والتفافهم حول زعاماتهم، كمـــا جاءت عاملاً حاسماً في القضاء على روح اليأس الذي وجد طريقه إليهم، وبالتـــالى كانت سبباً في إحرازهم النصر في الحملة الصليبية الأولى.

- ومن أهم النتـــائج أيـــضاً أن روح التعـــاليم المـــسيحية تـــدعو إلـــى المحبـــة والإخاء والمساواة، ولكـــن الممارســـات التـــي قـــام بهـــا الـــصليبيين أثنـــاء الحملة الصليبية الأولى كانت تتنافى تماماً مع هـــذه التعـــاليم، وكـــان يغلـــب عليها روح التعصب الديني البغيض ضد المسلمين.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن الإسلام قد احترم الديانة المسيحية احتراماً بالغـــاً، وكرم نبيها عيسى بن مريم عليه السلام تكريماً لم يحظ به أحد غيره مـــن الأنبيـــاء السابقين، فنادى القرآن بالسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا، ووصـــفه بأنه وجيهاً في الدنيا والآخرة.

ولكن الصليبيين لم يفهموا طبيعة الديانة الإسلامية، وكل ما أدركـــوه هـــو أن المسلمين خرجوا من شبه الجزيرة العربية ليبتلعوا بلداً بعد أخر من البلـــدان التـــي كانت المسيحية قد سبقت إليها، وانتشرت فيها، وراحوا يروجون أن الإسلام انتـــشر

بحد السيف.

ولم يدرك هؤلاء أن نفوذ العرب السياسي هو الذي انتشر بحد السيف أما الديانة الإسلامية نفسها فلها من سلامة المنطق وقوة الحجة ما جعل غالبية أهالى البلاد المفتوحة يدخلون في الإسلام.

ويبدو أن رجال الكنيسة الذين روجو للحركة الصليبية لم يستطيعوا حتى نهاية العصور الوسطى أن ينسوا الخسارة التي لحقت بهم وبكنيستهم نتيجة لانتشار الإسلام، مما جعلهم يشعرون دائماً بالرغبة في الانتقام من الإسلام والمسلمين(١٢٧).

وقد استند الغزو الصليبى للشرق الأدنى الإسلامي على أسس وضعتها البابوية بصفتها الداعى الشرعى للحركة الصليبية والمحرك الأول لها، حيث كان على الصليبيين – كما حدد البابا أوربان الثاني – أن يقضوا على المسلمين ويستولوا على ديارهم لتحرير المسيحية الشرقية والاستيلاء على الأراضى المقدسة.

- ومن النتائج أيضاً جهل توديبود كغيره من المؤرخين اللاتين، شأنهم في ذلك شأن غالبية مواطنى غرب أوربا في العصور الوسطى، جهلهم بالدين الإسلامي الحنيف، فقد ذكر توديبود على سبيل المثال أكثر من مرة قوله على لسان بعض المسلمين "أقسم بمحمد وبقوة جميع أربابنا" وفى موضع آخر" أقسم بمحمد وآلهتنا الأخرى"، وهذه العبارات تدل على جهل هؤلاء المؤرخين بالدين الإسلامي وأن جوهره هو التوحيد.

كما كان توديبود متشبعاً بروح التعصب الديني ضد الإسلام والمسلمين كغيره من المؤرخين اللاتين المعاصرين للحملة الصليبية الأولى، وكان كثيراً ما يختلق قصص وروايات لكى يعبر من خلال أبطالها عما يدور في عقله وتفكيره من أفكار، وقد اتضح ذلك مما جاء في بعض فقرات كتابه ومنها على سبيل المثال

قوله:

"لقد ظلت كنائسنا في قبضة الوثنيين زمناً طويلاً، واقترفوا فيها شراً لا يمكن التلفظ به، وفى الحقيقة إذا ما تم طرد الأعداء بأيدى المسيحيين، ستعم السعادة كـــل الملائكة في السماء"(١٢٨).

كما تخيل توديبود أن أم كربوغا جاءت تنصح ابنها بألا يحـــارب الــصليبيين وتقول له:

"ابنى العزيز، تعرف أنه منذ أكثر من مائة سنة قد ذُكر في القرآن وفى كتب جميع الوثنيين أن العالم المسيحى سيزحف ضدنا وسيدحرنا في كل مكان وســيحكم الوثنيين، وسيخضع مجتمعنا للمسيحيين في كل أنحاء العالم، لكن لا أعــرف متـــى سيحدث هذا"(١٢٩).

ولا شك أن مثل هذه القصص والروايات الخيالية تدل على التعصب الأعمـــى الذي كان يسيطر على عقل وتفكير هؤلاء المؤرخين.

وأخيراً فإن هناك نتيجة هامة وهى أن العالم الإســلامي شـــهد فـــي عــصر الحركة الصليبية مؤامرات عدة من الخارج والداخل، مؤامرات من الغرب الأوربى لسلب المسلمين أرضهم وديارهم، ومؤامرات من الصليبيين بالشام لتمزيـــق وحـــدة الصف الإسلامي والتنكيل بأبناء الأمة الإسلامية، ثم مؤامرات مـــن بعــض قـــادة وحكام المسلمين أنفسهم وبعض الجماعات والفرق والنحل التي إدعت الانتساب إلى الإسلام، ضد إخوانهم في الوطن والأصول(١٣٠).

الهــــوامش

(١) بطرس توديبود Peter Tudebode، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس.
Historia de Hierosolymitana itinere
نقله إلى الإنجليزية مع مقدمة وهوامش جون هيوج هيــل ولوريتــال هيــل، جامعــة هوستون، ونقله إلى العربية وعلق عليه حسين محمد عطية، الإسكندرية ١٩٩٢م.

(٢) تشير الوثائق هنا إلى الأسطورة التى تزعم أن الفرنجة والتــرك منحــدرون مــن نبعــة نورانية، المؤلف المجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة حسن حبــشى، القاهرة ١٩٥٨، ص٤١ حاشية ٢.

(٣) بطرس توديبــود: تــاريخ الرحلــة إلــى بيــت المقــدس، ترجمــة حــسين عطيــة، الإســـــكندرية ١٩٩٢، ص١١٤-١١٥.
ويعلق د. حسين عطية على هذه الفقرة فيذكر أنها من عمل كاهن، فهو يستعمل أجزاء من دستور الإيمان المسيحى إلى جانب اقتباسات، "رب واحد فى ثالوث، والإيمان المسيحى" كى يستمر فى روايته.
حسين عطية: المصدر السابق، ص ١٢٦ حاشية ٢١.

(٤) المؤلف المجهول: المصدر السابق، ص٤١-٤٢.

(٥) توديبود: المصدر السابق، ص ١١٤-١١٥.

(٦) نفس المصدر، ص١١٥، ١٦٤، ٢٢٤، ٢٩٠.

(٧) أنطاكية: Antioch أسسها سليوقوس الأول عــام ٣٠٠ ق.م تخليــداً لــذكرى والــده أنطيوخوس أحد خلفاء الاسكندر المقدونى، وتقع أنطاكية على الضفة الجنوبيــة لنهــر الأورنت فى سهل يقع بين النهر وجبل حبيب النجار، وفى أقصى الجنوب من المدينــة توجد القلعة فى أعلى جبل حبيب النجار، وبالإضافة إلى حصانتها الطبيعية فإنه وجد بها مجموعة من الأبراج، يصفها الجغرافيون المسلمون بأن كل برج فيها كالحصن عليــه أبواب حديد، وشكل البلد كنصف دائرة قطرها يتصل بالجبل، والأسوار تصعد مع الجبل، مما يزيد من حصانتها.

أنظر. ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج١، ص٢٦٦-٢٦٧، الحميرى: الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق احسان عباس، لبنان ١٩٨٤، ص٣٨، حسين عطيـة: إمـارة أنطاكية الصليبية، ص٨٢-٨٥.

(٨) توديبود: المصدر السابق، ص١٦٨.

(٩) ياغى سيان بن محمد بن ألب التركمانى، من مماليك السلطان ملكشاه وكان على درجة كبيرة من الكفاية والمقدرة فأقطعه ملكشاه أنطاكية عندما جاء إلى بلاد الشام فى عـام ٤٧٩هـ/١٠٨٦م، وصار تابعاً لرضوان بن تتش صاحب حلب، واستمر حاكما لانطاكية حتى شهد الغزو الصليبى لها، أنظر. ابن القلانسى: تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار، ص١٣٢.

(١٠) تعبير 'وآلهتنا الأخرى' ينم عن جهل المؤلف توديبود - شأنه فى ذلـك شـأن غالبيـة مواطنى غرب أوربا فى العصور الوسطى- بالدين الإسلامى وأن جوهره هو التوحيد. انظر. حسين عطية: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ص١٧٨ حاشية ٢٠.

(١١) توديبود: المصدر السابق، ص١٦٨-١٦٩.

(١٢) حسين عطية: المصدر السابق، ص١٧٨ حاشية ١٩.

(١٣) توديبود: المصدر السابق، ص١٦٩-١٧٠.

(١٤) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ١٠، ص٢٧٤.

وقال عنه أبو الفدا أنه أظهر فـى الـدفاع عـن أنطاكيـة "شـجاعة عظيمـة"، ابـو الفدا: المختصرفى أخبار البشر، جـ٢، ص٢١٠.

(١٥) العظيمى: تاريخ العظيمى، ص٣٧٣، ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص١٣١.

Gibb: The Damascus Chronicle of the Crusades, London ١٩٣٢, P.٤٢.

(١٦) ابن الأثير: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ١، ص٣٠٤-٣٠٥.

(١٧) ابن الأثير: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة، ابن العديم: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

الطباخ الحلبى: أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، جـ١، ص٣٨٠.

(١٨) اختلفت المصادر العربية فى رسم اسم فيروز، فهوعند ابن الأثير "روزبة"، وعند ابن القلانسى وابن العديم وابن تغرى بردى "فيروز" ولم يذكر ابن الاثير ولا ابن العديم جنسه، وذكر ابن القلانسى أنه أرمنى، انظر. ابن القلانسى: المصدر السابق، ص٢٢١، ابن الأثير: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة، ابن العديم: المصدر السابق، نفس الجزء، ص١٣٣-١٣٤، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص١٤٦.

أما المؤرخون اللاتين فيذكرون أنه تركى، ويطلقون عليه عدة أسماء منها فيروز Firus، وبيروس Pirus، وبيرهوس Pyrrhus، انظر. المؤلف المجهول: المصدر السابق، ص٦٥-٦٦، توديبود: المصدر السابق، ص١٨١، ريموند داجيل: المصدر السابق، ص١١٠.

(١٩) بوهيموند النورمانى (١٠٥٠-١١١١م) ابن روبرت جويسكارد النورمانى الذى سبق أن حارب البيزنطيين قبل الحملة الصليبية الأولى، وآلت أملاك روبرت جويسكارد فى جنوب إيطاليا إلى روجر بورسا Roger Borsa الأخ الأصغر لبوهيموند من أبيه، فشارك بوهيموند فى الحملة الصليبية الأولى على أمل أن يحوز لنفسه على إقطاع فى الشرق الأدنى، واستولى على أنطاكية لنفسه وبقى أميرا لها من عام ٤٩٢هـ/١٠٩٩م وحتى توفى فى إيطاليا عام ٥٠٥هـ/١١١١م. ولمزيد من التفاصيل عن دور بوهيموند فى الحملة الصليبية الأولى، أنظر. حسين عطية: إمارة أنطاكية الصليبية، ص٧٣.

Ralph (B.Y): Bohemond ١, Prince of Antioch, Prinecton ١٩٢٤.

(٢٠) توديبود: المصدر السابق، ص١٨١.

(٢١) المؤلف المجهول: المصدر السابق، ص٦٥-٦٦.

(٢٢) ابن القلانسى: المصدر السابق، نفس الصفحة، ابن العديم: المصدر السابق، نفس الجزء، ص١٣٣-١٣٥.

ويذكر المؤرخ وليم الصورى أن محافظة فيروز على شرفه هى التى دعته إلى تسليم البلد لبوهيموند، إذ اكتشف فيروز أن زوجته لم ترع حق الزوجية فى خيانتها إياه مع أحد القادة الأتراك.

انظر. وليم الصورى: الحروب الصليبية، جـ١، ص٣٤٥-٣٤٦.

ويعلق د. حسن حبشى على هذه الحادثة فيقول: "ومع أن المراجع لم تنص على اسم هذا القائد التركى إلا أنه- لو أخذنا بالرواية المسيحية- لكان لنا أن نتوقع أن يكون المقصود هو ياغى سيان أو أحد ولديه، لذلك آلى فيروز أن يكون انتقامه شديدا، وأى انتقام أشد وقعا من أن ييسر على الصليبيين دخول أنطاكية". حسن حبشى: الحرب الصليبية الأولى، ص٥٨.

وفى الحقيقة هذه الرواية لم ترد إلا عند المؤرخ الصليبى وليم الصورى ولم يرد عنها شيئا فى المصادر الأخرى سواء كانت إسلامية أو لاتينية.

(٢٣) العظيمى: تاريخ العظيمى، ص٣٧٣. ابن الأثير: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة، ابن العديم: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة، ابن الشحنه: الدر المنتخب، ص٢١٤، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص١٥٥، وليم الصورى: المصدر السابق، نفس الجزء، ص٣٣٤-٣٣٥.

(٢٤) فوشيه الشارترى: تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة زياد العسلى، بيروت ١٩٩٠، ص٥٧-٥٨. ريمونداجيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة حسين عطية، الإسكندرية ١٩٨٩، ص١١٠، ١١٩، الدويهى: تاريخ الأزمنة، ص٨، رنسيمان: المرجع السابق، نفس الجزء، ص٣٢٧-٣٢٩.

(٢٥) فوشيه الشارترى: المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٢٦) ريموندجيل: المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٢٧) Gesta Francorum, P. ٤٤، حسين عطية: تاريخ الرحلة، ص١٨٩ حاشية ١.

(٢٨) وليم الصورى: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٢٩) نفس المصدر والجزء، ص٣٣٦.

(٣٠) نفس المصدر والجزء، ص٣٣٧.

(٣١) كان قوام الدولة أبو سعيد، كربوغا أحد قواد السلطان ملكشاه، وبعد وفاته دخل كربوغا فى طاعة ابنه السلطان بركياروق الذى سيره إمدادا للأميرين آقسنقر وبوزان فى حربهما ضد عمه تاج الدولة تتش بالشام، وبعد انتصار تتش فى معركة نهر سبعين عام ٤٨٧هـ/١٠٩٤م وتخلصه من آقسنقر وبوزان ، قبض على كربوغا وسجنه فى

حمص، وظل كربوغا بالسجن إلى أن قتل تتش بالرى، وصفت السلطنة لبركياروق الذى طلب من رضوان بن تتش صاحب حلب إطلاق سراح كربوغا من سجنه، فوافق رضوان على إطلاق سراحه، فسار كربوغا بعد فك أسره إلى حران ومعه بعض العسكر حيث تمكن من تملكها ثم تملك نصيبين، ثم قصد الموصل وحاصرها قرابة تسعة أشهر حتى تسلمها فى عام ٤٨٩هـ/١٠٩٦م من يد أميرها العقيلى على بن شرف الدولة، وأستمر كربوغا يحكم الموصل حتى وفاته فى عام ٤٩٥هـ/١١٠٢م.

أنظر. أبن الأثير: المصدر السابق، نفس الجزء، ص٢٥٨، ابن العديم: المصدر السابق، نفس الجزء، ص١١٨. ابراهيم خليل: 'كربوغا صاحب الموصل ودوره فى مقاومة الصليبيين'، مجلة المؤرخ العربى، بغداد- العراق، العدد الخامس ١٩٧٤، ص٩٨.

(٣٢) بطرس الناسك: ولد فى اميان Amiens بمقاطعة بيكاردى بشمال فرنسا، ثم انخرط فى سلك الرهبنة والتحق بأحد الأديرة، وقد تحمس لفكرة محاربة المسلمين، ولذلك أنتهز فرصة دعوة البابا أوربان الثانى للحروب الصليبية،وخرج داعيا فى مختلف بلاد غرب أوربا خاصة فى مقاطعات فرنسا، وقاد حملة العامة التى انتهت بالفشل، ولمزيد من التفاصيل انظر.

سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ١، ص ١٣٤-١٣٥، قاسم عبده: ماهية الحروب الصليبية، ص١١٥، وميشيل بالار: الحملات الصليبية، ص٥١.

(٣٣) هرلوين Herluin هو المترجم الذى بعث به الصليبيون ليساعد بطرس الناسك على التفاهم مع كربوغا، وكان هرلوين فرنسى يحسن العربية والفارسية.

وقد جاءت الرواية المتعلقة بسفارة بطرس الناسك أكثر تفصيلاً فى أنشودة أنطاكية، حيث يجعل مؤلفها المترجم هرلوين يبقى لدى كربوغا حتى شاهد الأخير جموع الفرنج وهى تخرج من أنطاكية لملاقاته ويستفسر من هرلوين عن شخصية قائد كل فرقة من فرق الجيش الصليبى الست فى صباح ٢٨ يونية ١٠٩٨م/ ٢٦ رجب ٤٩١هـ. أنظر. حسين عطية: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ص ٢٤٣-٢٤٤، حاشية ٣١.

(٣٤) توديبود: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ص ٢٢٧-٢٢٨.

(٣٥) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص ١٣٧.

أما ابن الأثير فيقول عن الصليبيين داخل أنطاكية عندئذ، "ليس لهم ما يأكلونه، وتقوت الأقوياء بدوابهم، والضعفاء بالميتة وورق الشجر". ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ١٠، ص ٢٧٦.

(٣٦) كان سلطان فارس هو السلطان بركياروق بن ملكشاه.

(٣٧) توديبود: المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٣٨) المؤلف المجهول: المصدر السابق، ص ٩٠-٩١.

(٣٩) كيف يتأتى لكربوغا أن يصدر عنه مثل هذا الكلام وهو الرجل المسلم الذى يعلم أن الإسلام يقوم فى جوهره على الإيمان بجميع الرسل والأنبياء.

(٤٠) المؤلف المجهول: المصدر السابق، ص ٩١.

(٤١) ريموندا جيل: المصدر السابق، ص ١٤٣.

(٤٢) فوشيه الشارترى: المصدر السابق، ص ٦١.

(٤٣) Albert d'Aix: op. Cit., p. ٤٢٠، وليم الصورى: المصدر السابق، جـ١، ص ٤٤٠-٤٠١.

(٤٤) توديبود: المصدر السابق، نفس الصفحة، المؤلف المجهول: المصدر السابق، ص ٩٠-٩١، ريموندا جيل: المصدر السابق، نفس الصفحة ، فوشيه الشارترى: المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٤٥) Albert d'Aix: op. Cit., p. ٤٢٠، ويذكر المؤرخ الانجليزى وليم مالمسبرى أن كربوغا قد رفض التفاهم مع بطرس أو الرد عليه واستمر فى لعب النرد، وصر على أسنانه وصرف بطرس كما جاء، أنظر.

William of Malmesbery: Gesta Regum Angolorum, ed. W. Stubbs in R.S., London ١٨٨٩, vol. ٢, p. ٤١٩.

، حسين عطية: تاريخ الفرنجة، ص ١٤٩ حاشية ٢.

(٤٦) ابن القلانسى: المصدر السابق، ص ٢٢١، ابن الأثير: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة، ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول، ص ١٩٦.

(٤٧) رنسيمان: المرجع السابق، جـ١، ص ٣٥١، عماد الدين خليل: "قوام الدولة أبو سعيد كربوقا"، مجلة آداب الرافدين، جامعة الموصل، العدد الخامس ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، ص ١٦٩.

(٤٨) محمد محمد الشيخ: الجهاد المقدس، ص ١٣٧-١٣٨.

(٤٩) نفس المرجع، ص ١٣٨.

(٥٠) يقصد أحمد بن مروان متولى قلعة أنطاكية، وأحد رجال كربوغا الأوفياء.

(٥١) مؤلف هذه المحادثة كان على علم بالأحداث التي وقعت بعد هزيمة كربوغا، أنظر:

Hagenmeyer: Gesta, p. ٣١٨, fn. ٣٩.

، حسين عطية: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ص ١٩٨، حاشية ٢٦.

(٥٢) توديبود: المصدر السابق، ص ١٨٦-١٨٧.

(٥٣) المؤلف المجهول: المصدر السابق، ص ٧٣-٧٤.

(٥٤) **Hagenmeyer, op. cit., p. ٣١٨.**

(٥٥) ابن العديم: زبدة الحلب، ج٣، ص ١٣٦، ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١، ص ٣٨٩.

(٥٦) حسين عطية: المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٥٧) توديبود: المصدر السابق، ص ٢٣١-٢٣٢ ، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج١، ص ٣٥٤.

(٥٨) المقصود باللمبارديون في هذا النص جماعة بوهيموند النورمنديون، أنظر.
حسن حبشي: أعمال الفرنجة، ص ٩٥، حاشية ٢.

(٥٩) المؤلف المجهول: المصدر السابق، ص ٩٥-٩٦.

(٦٠) نفس المصدر، ص ٩٥.

Grousset: Histoire des Croisades, pp. ١٠٨-١٠٩.

(٦١) **Norman Daniel: The Arabs and Mediaeval Europe, p. ١٩٣.**
حسين عطية: المصدر السابق، ص ٢٥٢، حاشية ٤٤.

(٦٢) المؤلف المجهول: المصدر السابق، ص ٩٥-٩٦، توديبود: المصدر السابق، ص ٢٣٢.

(٦٣) فوشيه الشارترى: المصدر السابق، ص ٦٦.

(٦٤) ريموندا جيل: المصدر السابق، ص ١٤٦.

(٦٥) ابن العديم: المصدر السابق، نفس الجزء، ص ١٣٧-١٣٨.
، عماد الدين خليل: "قوام الدولة أبو سعيد كربوقا"، ص ١٧٢.

(٦٦) ريموند الصنجيلي: كان ريموند دى سانت جيل Raymond de saint Gilles أكبر الأمراء بجنوب فرنسا بحكم جمعه بين كونتيه تولوز وبروفانس، وهما من أغنى بقاع فرنسا، ومن ثم كان أكثر قادة الصليبيين مالاً، وشرفه البابا بصحبته لمندوبه أدهيمار مرافقاً للحملة، ويعتبر ريموند صاحب الفضل في تأسيس إمارة طرابلس ووضع إطارها العام وتسهيل مهمة الاستيلاء عليها أمام خلفائه، وقد مات ريموند في فبراير من عام ١١٠٥م (٤٩٨هـ)، ولمزيد من التفاصيل عن دور ريموند في الحملة الصليبية الأولى، أنظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ١، ص ٢٦٩ وما بعدها.
Hill (J.H.): "Raymond of St. Gilles in Urban's Plan of Greek and Latin Ship", Speculum, April ١٩٥١, Vol. XXVI, pp. ٢٦٥-٢٧٨.

(٦٧) ريموند بيليه: فارس من ليموزين، وقد رحل عن أنطاكية في ١٤ يوليو ١٠٩٨م وقام بالإغارة على تلمنس، أنظر: حسين عطية: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ص ٢٦٦، حاشية ٥.

(٦٨) تل منس أو تلمنس: حصن قرب معرة النعمان بالشام. . . . .
ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٢، ص ٤٤.

(٦٩) يذكر هاجنمير تاريخ استيلاء ريموند بيليه على قرية تل منس في ١٧ يوليو سنة ١٠٩٨م، وأنه تم الاستيلاء على الحصن المجاور لها في ٢٥ يوليو من نفس العام، بينما لم يقدم لنا ابن العديم الذي أورد هذه الحادثة تاريخاً لاستيلاء الفرنج على تلمنس أو على الحصن المجاور لها.
أنظر: ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص ١٣٨.

H. Chr. ٣٠٢, ٣٠٦.

حسين عطية: المصدر السابق، ص ٢٦٦، حاشية ٦.

(٧٠) توديبود: المصدر السابق، ص ٢٥٦.

(٧١) المؤلف المجهول: المصدر السابق، ص ٩٩.

(٧٢) ابن العديم: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٧٣) عزاز: بليده فيها قلعة ولها رستاق شمالى حلب بينهما يوم، وهى طيبة الهواء عذبة الماء.

أنظر. ياقوت الحموى: المصدر السابق، جـ٤، ص ١١٨. وتقع عزاز على بعد أربعين كيلومترًا شمالى حلب، على الطريق الرئيسى بين أنطاكية من ناحية، والرها وتل باشر من ناحية أخرى.

حسين عطية: تاريخ الفرنجة، ص ١٦٠، حاشية ١٠.

(٧٤) جودفرى دى بويون Godfray de Bouillin هو دوق منطقة اللورين الأدنى الواقعة على نهر الراين، وكان أحد رجال الإمبراطور هنرى الرابع (١٠٥٦-١١٠٦م)، أنظر. وليم الصورى، الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، جـ١، ص ١٩٥ حاشية ١.

، سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، جـ١، ص ٣٥٠-٣٥٢.

(٧٥) ريموندداجيل: تاريخ الفرنجة، ص ١٥٥.

(٧٦) رضوان بن تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان، أبو المظفر المعروف بالملك فخر الملوك رضوان، ولد سنة ٤٧٥هـ/ ١٠٨٢م، ونشأ في دمشق في حجر أبيه، وقد تسلم رضوان حكم حلب بعد مقتل أبيه تتش في عام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م، ابن العديم: بغية الطلب، جـ٨، ص ٣٦٥٩،

، ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ص ١٨ بالحاشية.

(٧٧) تشير إحدى الروايات الأوربية إلى أن إحدى عقائل الصليبيين وكانت أرملة لفارس من اللورين، وقعت في أسر عمر والى عزاز، فهام بها، فلما تعرض عمر لمهاجمة جيوش حلب، أشارت عليه بالاستنجاد بجودفرى، فلبى الدعوة فرحاً. رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ١، ص ٣٦٥.

ويعلق أ.د. حامد زيان على ذلك قائلاً: "وقد وصلت درجة الانحطاط لدى الصليبيين أنهم استخدموا إحدى نسائهم في تسهيل إقامة العلاقات الودية بين عمر هذا وبين الصليبيين".

حامد زيان: الصراع السياسي والعسكرى بين القوى الإسلامية، ص ٥٧.

(٧٨) يحدثنا المؤرخ وليم الصورى عما فعله الرسل الذين أرسلهم عمر والى عزاز إلى جودفرى الصليبى. فيقول: "أحس رسل صاحب عزاز الذين بعث بهم إلى الدوق أن قد لازمهم التوفيق في إنجاز سفارتهم على أكمل وجه، فقد حصلوا على التأييد التام لسيدهم عند الدوق، على أنه كان من المستحيل عليهم القيام شخصياً بإخبار مولاهم بما انتهوا إليه بسبب إحاطة العسكر المعادى له (عسكر رضوان بن تتش) للقلعة من كل جانب، مما استحال معه قيام أحد ما بالدخول إليها أو الخروج منها، لذلك أطلقوا حمامتين من الحمام الزاجل المدرب على مثل هذه المهمات لإيصال الرسالة، فربطوا في ذيلي الحمامتين كتباً تتضمن التفاصيل الوافية عن نجاحهم ليكون مولاهم على علم تام بكل ما تسنى لهم القيام به، وما كاد الطائران يطلقان في الجو حتى طارا خفيفين إلى ديارهما، وهناك أمسكهما المسؤولون عن الحمام الزاجل ومن ربوهما، وفضوا الرسائل، وأفضوا بمضمونها إلى صاحب حلب (رضوان بن تتش) فاستولى عليه الفزع الشديد من العدو المحيط به، فأيأسه الخوف وفل مقاومته"، أنظر: وليم الصورى: الحروب الصليبية، جـ٢، ص ٢٢-٢٣.

(٧٩) يذكر ابن العديم أن هذا الابن ظل رهينة إلى أن مات عند الفرنج. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص ١٤١.

(٨٠) وليم الصورى: الحروب الصليبية، جـ٢، ص ٢٣-٢٤، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ١، ص ٣٦٥.

Michaud: Histoire des Croisades, vol. ١, p. ٣٣٩.

(٨١) ابن العديم: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٨٢) ريموندداجيل: تاريخ الفرنجة، ص ١٥٥.

Albert d'Aix: Historia Hierosolymitana, p. ٤٣٩.

ويذكر المؤرخ وليم الصورى أن عمر والى عزاز "جثا – على مشهد من الجميع – على ركبتيه، مطأطئ الرأس، مزجيا الشكر للدوق أولاً ثم للزعماء الآخرين ثانياً علـى مـا فعلوه، وأعلن على رؤوس الجميع أنه التابع الأمين للقادة الصليبيين". وليم الـصورى: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٨٣) تل هراق: من حصون حلب الغربية، ياقوت الحموى: المصدر السابق، جـ٢، ص ٤٥.

(٨٤) ابن العديم: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٨٥) رنسيمان: المرجع السابق، نفس الجزء والصفحة.

، حسين عطية: تاريخ الفرنجة، ص ١٦١ حاشية ١١.

(٨٦) البارة: بليدة وكورة من نواحى حلب وبها حصن، وهى ذات بساتين ويسمونها زاويـة البارة، ياقوت الحموى: المصدر السابق، جـ١، ص ٣٢٠.

(٨٧) يذكر ابن القلانسى أنهم قتلوا من أهلها حوالي خمسين رجلاً. أنظر. ابـن القلانـسى: تاريخ دمشق، ص ٢١٩.

(٨٨) كان هذا الكاهن هو بطرس أوف ناربون Peter of Narbonne وكان قسيـساً فـي جيش ريموند الصنجيلى، وقد قام البطريرك اليونانى يوحنا بترسيمه أسقفاً للبارة.

Brehier: Gesta, pp. ١٦٦-١٦٨.

، رنسيمان: المرجع السابق، جـ١، ص ٣٦٦.

(٨٩) أدهيمار: كان أسقفاً إصلاحياً لكنيسة لى بويه وكان وثيق الصلة بالبابا أوربان الثـانى، ولذلك فقد عينه البابا مندوباً بابوياً للحملة الصليبية الأولى ورئيساً دينياً لها، وقد كان مرافقاً لجيش ريموند الصنجيلى، ومات في أغسطس ١٠٩٨م بعد سقوط أنطاكية. أنظر. توديبود: تاريخ الرحلة، ص ٨٣ حاشية ٣، المؤلف المجهول: أعمال الفرنجة، ص ٢٢ حاشية ٣، سعيد عاشور: الحـركة الصـليبية، جـ١، ص ١١٠.

(٩٠) توديبود: المصدر السابق، ص ٢٥٧.

(٩١) المؤلف المجهول: المصدر السابق، ص ١٠١.

(٩٢) ريموندا جيل: المصدر السابق، ص ١٦٣.

(٩٣) معرة النعمان: هى مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماة، أنظر. ياقوت الحموى: المصدر السابق، جـ٥، ص ١٥٦

(٩٤) فوشيه الشارترى: المصدر السابق، ص ٦٨.

(٩٥) ياقوت الحموى: المصدر السابق، جـ١، ص ٤٦٥،
حسين عطية: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ص ٢٦٩ حاشية ١٥.

(٩٦) ابن العديم: المصدر السابق، نفس الجزء، ص ١٤١.

(٩٧) ريموندا جيل: المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٩٨) فوشيه الشارترى: المصدر السابق، ص ٣٦.

(٩٩) وليم الصورى: الحروب الصليبية، جـ٢، ص ص٣٣،
رنسيمان: المرجع السابق، نفس الجزء والصفحة.

(١٠٠) للمزيد من التفاصيل عن أسباب تعيين بطرس الناربونى، أنظر:
Bernard Hamilton: The Latin Church in the Crusader States, London ١٩٨٠, p. ١٠.

(١٠١) ريموندا جيل: المصدر السابق، ص ١٦٣، ١٧٥ حاشية ٢.

(١٠٢) كان حاكم طرابلس وقت الغزو الصليبى لبلاد الشام هو جلال الملك أبو الحسن على بن محمد بن عمار الذي توفى في سنة ١٠٩٩م، فخلفه أخوه أبو على فخر الملك بن عمار، أنظر. زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة، ص ١٦٠، محمد محمد الشيخ: الإمارات العربية، ص ٢١٣-٢١٧.

(١٠٣) توديبود: المصدر السابق، ص ٢٩٠.

(١٠٤) عرقة: بلدة في شرقى طرابلس بينهما أربعة فراسخ، وهى آخر عمل دمشق، ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٤، ص ١٠٩.

(١٠٥) كان افتخار الدولة هو حاكم بيت المقدس من قبل الوزير الأفضل الفاطمى.

(١٠٦) توديبود: المصدر السابق، ص ٢٩٣.

(١٠٧) المؤلف المجهول: المصدر السابق، ص ١٠٩.

(١٠٨) نفس المصدر، ص ١١٣.

(١٠٩) كان سيد جبله هو القاضى أبو محمد عبيد الله بن منصور بن صليحة، وجبله: قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية. أنظر. ياقوت الحموى: المصدر السابق، جـ٢، ص١٠٥.

(١١٠) ريموندإجيل: المصدر السابق، ص ١٨٩-١٩٠.

(١١١) نفس المصدر، ص ٢١٦.

(١١٢) كفر طاب: بلدة بين المعرة ومدينة حلب. ياقوت الحموى: المصدر السابق، جـ٤، ص٤٧٠.

(١١٣) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ١، ص ١٨٥.

(١١٤) حصن الأكراد: قلعة حصينة مقابل حمص من غربها على الجبل المتصل بجبل لبنان، أبو الفدا: تقويم البلدان، ص ٢٥٩. ويمتاز هذا الحصن بموقعة الحربى الفريد، حيث أنه يشرف على كل الإقليم بين أنطرطوس وطرابلس من جهة وحمص من جهة أخرى.

Stevenson: The Crusaders in the east, p. ٥٤.

(١١٥) Archer: The Crusades, pp. ٨١-٨٢.

(١١٦) أنطرطوس: بلد من سواحل بحر الشام، وهى آخر أعمال دمشق وأول أعمال حمص، وقيل أنها من أعمال طرابلس، مطلة على البحر في شرقى عرقة، بينهما ثمانية فراسخ.
ياقوت الحموى: المصدر السابق، جـ١، ص ٢٧٠.

(١١٧) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ١٠، ص ٢٧٨.

Michaud: Histoire des Croisades, p. ١٨٨.

ويبدو أن ريموند أخذ يعمل منذ ذلك الوقت للاستيلاء على عرقة ليتخذ منها ومن أنطرطوس نواة للإمارة التي بدأ يحلم بها في طرابلس.
سعيد عاشور: المرجع السابق، نفس الجزء، ص ٢٣٣.

(١١٨) Albert d'Aix: op. cit., pp. ٤٥٤-٤٥٥.

(١١٩) السيد الباز العريني: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، جـ١، ص٢٦٥.
حسن حبشي: الحرب الصليبية الأولى، ص ١٧٠.

(١٢٠) توديبود: المصدر السابق، ص ٢٩٣، المؤلف المجهول: المصدر السابق، ص ١١٣.

(١٢١) محمد محمد الشيخ: المرجع السابق، ص ٢١١ وما بعدها،
حسين عطية: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ص ٣٠٨-٣٠٩ حاشية ٣١.

(١٢٢) ابن الأثير: المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٣١٢،
أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، جـ٢، ص ٢١٣.

(١٢٣) محمد محمد الشيخ: المرجع السابق، ص ٢٢٢-٢٢٣،
عمر كمال توفيق: مملكة بيت المقدس الصليبية، ص ٥٦.

(١٢٤) حسين عطية: المصدر السابق، نفس الصفحة.
Norman Daniel: The Arabs and Europe, p. ١٩٣.

(١٢٥) ريموندا جيل: المصدر السابق، ص ٢٦٣.

(١٢٦) حسين عطية: تاريخ الفرنجة، ص ٢٦٦-٢٦٨ حاشية (١٥).

(١٢٧) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ١، ص ٤٥-٤٦.

(١٢٨) توديبود: المصدر السابق، ص ٢٠٦.

(١٢٩) نفس المصدر، ص ٢٠٣، المؤلف المجهول: المصدر السابق، ص ٧٧.

(١٣٠) سعيد عاشور: المرجع السابق، نفس الجزء، ص ١١.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر اللاتينية:

Albert d'Aix: Historia Hierosolymitana, in Recueil de Historiens des Croisades, Historiens occidentaux, Tome IV, Paris ١٩١٨.

- **توديبود (بطرس):** تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ترجمة حسين عطية، الإسكندرية ١٩٩٢م.
- **ريموندا جيل:** تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة حسين عطية، الإسكندرية ١٩٨٩م.
- **فوشيه الشارترى:** تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة زياد العسلى، بيروت ١٩٩٠م.
- **المؤلف المجهول:** أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة حسن حبشى، القاهرة ١٩٥٨.
- **وليم الصورى:** الحروب الصليبية، ٤ أجزاء، ترجمة حسن حبشى، القاهرة ٩١-١٩٩٥م.
  - الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، ترجمة سهيل زكار، دمشق ١٩٨٧، جـ١.

ثانيا: المصادر العربية:

- **ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن على الجزرى (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٢٨م)**
  - الكامل في التاريخ، ١٢ جزء، بيروت ١٩٨٢.
- **ابن تغرى بردى: جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م)**
  - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٦ جزء، القاهرة ٦٣- ١٩٨٤م.
- **ابن الشحنة: أبو الوليد محب الدين محمد بن محمد الحلبى (ت ٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م)**
  - الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تحقيق الياس سركيس، بيروت ١٩٠٩م.
- **ابن شداد: عز الدين بن أبى عبد الله محمد بن على (ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)**
  - الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، جـ١، تحقيق سامى الدهان، دمشق ١٩٦٢م، جـ٣، تحقيق يحيى زكريا عبارة، دمشق ١٩٧٨م.
- **ابن العبرى: غريغوريوس أبو الفرج بن هرون الملطى (ت ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م)**

o تاريخ مختصر الدول، تحقيق أنطون صالحانى اليسوعى، بيروت ١٩٥٨م.

- **ابن العديم: كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله (ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م)**
  o زبدة الحلب في تاريخ حلب، ٣ أجزاء، تحقيق سامى الدهان، دمشق ٤٥ – ١٩٥١م.
  o بغية الطلب في تاريخ حلب، ١١ جزء، تحقيق سهيل زكار، دمشق ١٩٨٨م.
- **ابن القلانسى: أبو يعلى حمزة (ت ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠م)**
  o تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار، دمشق ١٩٨٣م.
- **ابن كثير: عماد الدين إسماعيل بن عمر القرشى (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)**
  o البداية والنهاية، ١٢ جزء، بيروت ١٩٧٧.
- **أبو الفدا: الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماه (ت ٧٣٢ هـ/١٣٣٢م)**
  o المختصر في أخبار البشر، ٤ أجزاء، القاهرة ١٣٢٥هـ.
  o تقويم البلدان، باريس ١٨٤٠م.
- **الحميرى: محمد بن عبد المنعم (ت ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م)**
  o الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، لبنان ١٩٨٤م.
- **الدويهى: البطريرك اسطفانوس (ت ١٧٠٤م)**
  o تاريخ الأزمنة، نشرته مجلة الشرق، السنة ٤٤، بيروت ١٩٥١م.
- **العظيمى: محمد بن على بن محمد (ت بعد سنة ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م)**
  o تاريخ العظيمى، نشره كلود كاهن "C. Cahen" في:

Journal Asiatique, ١٩٣٨, pp. ٣٥٣-٤٤٨.

- **ياقوت الحموى: شهاب الدين أبو عبد الله الحموى (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)**
  o معجم البلدان، ٥ أجزاء، بيروت ٧٩-١٩٨٦م.

ثالثا:- المراجع العربية والمعربة:

- **إبراهيم خليل:** "كربوغا صاحب الموصل ودوره في مقاومة الصليبيين"، مجلة المؤرخ العربي، بغداد – العراق، العدد الخامس ١٩٧٤، ص ٩٥-١١٩.

- **بالار (ميشيل):** الحملات الصليبية والشرق اللاتينى في القرن الحادى عشر إلى القرن الرابع عشر، ترجمة بشير السباعى، القاهرة ٢٠٠٣.
- **جوزيف نسيم يوسف:** العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، الإسكندرية ١٩٦٧.
- **حامد زيان غانم:** الصراع السياسي والعسكرى بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية، القاهرة ١٩٨٣م.
- **حسن حبشى:** الحرب الصليبية الأولى، القاهرة ١٩٥٨.
- **حسين محمد عطية:** إمارة أنطاكية الصليبية وعلاقاتها السياسية بالدول الإسلامية المجاورة (١٠٩٨-١١٧١م)، رسالة ماجستير غير منشورة، آداب الإسكندرية ١٩٨١م.
- **رنسيمان (ستيفن):** تاريخ الحروب الصليبية، ٣ أجزاء، ترجمة السيد الباز العرينى، بيروت ٦٧-١٩٦٨م.
- **زامباور:** معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة زكى محمد حسن وحسن أحمد محمود، القاهرة ١٩٥١م.
- **سعيد عبد الفتاح عاشور:** الحركة الصليبية، جزءان، القاهرة ١٩٨٦م.
  - أوربا العصور الوسطى، جزءان، القاهرة ١٩٦٣م.
- **السيد الباز العرينى:** الشرق الأوسط والحروب الصليبية، جـ١، القاهرة ١٩٦٣م.
- **عماد الدين خليل:** "قوام الدولة أبو سعيد كربوقا"، مجلة آداب الرافدين، جامعة الموصل، العدد الخامس ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، ص ١٥١-١٧٦.
- **قاسم عبده قاسم:** ماهية الحروب الصليبية، الكويت ١٩٩٠.
- **محمد راغب الطباخ:** أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، ٤ أجزاء، حلب ١٩٢٣م.
- **محمد محمد مرسى الشيخ:** الإمارات العربية في بلاد الشام في القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين، الإسكندرية ١٩٨٠م.
  - الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها (١٠٩٧-١١٤٤م)، الإسكندرية ١٩٩٠م.

رابعا:- المراجع الأوربية:-

- **Archer (T.A.):** The Crusades, London ١٨٩٤.
- **Cahen (C.):** La Syrie du Nord Al'epoque des Croisades, Paris ١٩٤٠.
- **Chalandon (F.):** Histoire de la Premiere Croisade, Paris ١٩٢٥.
- **Daniel (Norman):** The Arabs and Mediaeval Europe, Liban, ١٩٧٥.
- **Gibb (H.A.R.):** The Damascus Chronicle of the Crusades, London ١٩٣٢.
- **Grousset (R.):** Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, ٣ vols, Paris ١٩٤٣-٤٦.
- **Hill (J.H.):** "Raymond of St. Gilles in Urban's Plan of Greek and Latin Friends Ship", Speculum, April ١٩٥١, vol. XXVI, pp. ٢٦٥-٢٧٨.
- **Michaud (J.F.):** Histoire des Croisades, Paris, ١٨١٧-٢٢.
- **Ralph (B.Y.):** Bohemond ١, Prince of Antioch, Prinecton ١٩٢٤.
- **Setton (M.):** A history of the Crusades, vol. ١, Philadelphia ١٩٥٥.
- **Stevenson (M.A.):** The Crusaders in the east, Cambridge ١٩٦٨.
- **William of Malmesbery:** Gesta Regum Angolorum, ed. W. Stubbs in R.S., London ١٨٨٩.

مرحلة حاسمة في تاريخ

الحروب الصليبية في شرقي البحر المتوسط وشرقي أوروبا

(١١٧١ - ١٢٠٤م)

أ.د. محمد مؤنس عوض

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب والعلوم – جامعة الشارقة

يتناول هذا البحث بالعرض؛ المرحلة الواقعة بين عامي ١١٧١م – ١٢٠٤م، وأهميتها في تاريخ المواجهة بين الغرب الأوروبي والشرق سواء الإسلامي أو البيزنطي في العصور الوسطى.

وبداية من المهم الإقرار بأن المرحلة الزمنية المذكورة ودراستها في بحث مستقل لا تعني نوعاً من التعصب لمرحلة بعينها من مراحل الغزو الصليبي دون الأخذ في الإعتبار أهمية المراحل التاريخية السابقة عليها، والتالية لها؛ إذ أنها جزء لا يتجزأ من المسار العام لتاريخ الحركة الصليبية سواء على أرض بلاد الشام أو على الأرض الأوروبية ذاتها باعتبارها مشروعا استعمارياً واحداً لا يتجزأ.

كما أن الهدف ليس القولبة أو اعتساف الأحكام أو فرض فكرة مسبقة عن مرحلة ما من مراحل تلك المواجهة بين الشرق والغرب حينذاك بل محاولة تقديم رؤية تاريخية موضوعية مقارنة لتلك المرحلة التاريخية المؤثرة.

واقع الأمر؛ تمت الدعوة للحروب الصليبية من جانب البابا أوروبا الثاني Urbanus II (١٠٨٩ – ١٠٩٩م) في مجمع كليرمونت Clermont بفرنسا في ٢٧ نوفمبر عام ١٠٩٥م [1]، وكان ذلك بمثابة إعلان افتتاح تلك الحملات العسكرية

الموجهة إلى الشرق متسترة بستار الدين،وفي الواقع؛وقفت من ورائها الدوافع الإقتصادية، والإجتماعية،والسياسية تحركها بقوة على مدى قرون عديدة.

وقد توالت الحملات الصليبية من حملة شعبية إلى حملة الأمراء المنظمة الناجحة،وتمكن الغزاة بفضل كفاءتهم العسكرية،وسلاح المعلومات الذي توافر لهم من خلال الحجاج والتجار عن أوضاع الشرق بالإضافة إلى التشرذم السياسي والصراع المذهبي السني- الشيعي الذي عانى منه المسلمون في بلاد الشام- تمكنوا من إقامة كياناتهم الدخيلة في صورة إمارة الرها Edessa وأنطاكية Antioch، ومملكة بيت المقدس Jerusalem، وطرابلس Tripolis، والأمر المؤكد؛ أن الغزاة أدركوا قيمة عنصر الزمن جيداً.وهكذا؛ففي غضون سنوات قليلة نجحوا في تكوين مملكة صليبية على الأرض الإسلامية، ويمكن وصف الملك بلدوين الأول Baldwin I[٢] (١١٠٠ – ١١١٨م) بأنه المؤسس الفعلي لمملكة بيت المقدس الصليبية، وتوالى من بعده ملوك بارزون مثل بلدوين الثاني Baldwin II(١١١٨ – ١١٣١م)[٣]،وبلدوين الثالث Baldwin III(١١٤٤ – ١١٦٤م)[٤]، وقد تمكن أولئك الملوك من إخضاع مدن الساحل الشامي بصورة كاملة مع حلول عام ١١٥٣م بإسقاط عسقلان كذلك شيدوا القلاع والحصون المنيعة الممتدة من أقصى الشمال عند إمارة أنطاكية حتى أيلة على رأس خليج العقبة جنوباً.

وعلى امتداد عقود طويلة؛تأكد للباحث المتأمل في تاريخ الصليبيين في الشرق أن صراعهم مع القوى الإسلامية كان صراعاً على الأرض والمياه وتكشفت حقيقة مفادها أن الحركة الصليبية ما هي إلا الغزو الأوروبي المنظم لنهب ثروات الشرق والقضاء على دور المسلمين كوسطاء تجاريين،وهو دور مارسوه بكفاءة مشهودة على مدى خمسة قرون من قبل مقدم الغرب الأوروبي لإحتلال مناطق في بلاد الشام أو أعالي الفرات.

وعلى الرغم من جهود الملوك الصليبيين؛إلا أن ذلك الكيان الغازي الدخيل ظل يعاني من مشاكل مزمنة لم يجد لها الحلول الناجعة الناجحة طوال قرني وجوده على أرض بلاد الشام،ويمكن إيجازها في مشكلة عدم توافر الأمن للغزاة،ومشكلة الإعتماد على الغرب الأوروبي وعدم النضج الذاتي المحلي الصليبي،ومشكلة صغر حجم الوجود الصليبي جغرافياً مقارنة بالوجود الإسلامي الحيط به من الشمال والشرق والجنوب ومشكلة انعدام مشروعية الوجود المذكور الذي بدأ تاريخه بمذابح بشعة وصلت ذروتها في صورة مذبحة بيت المقدس الممتدة من يوم الجمعة ١٥ يوليو١٠٩٩م إلى يوم الإثنين ٢٥ يوليو من نفس العام مخلفة وراءها عشرات الآلاف من القتلى من المسلمين،وهكذا ظل وجوداً دخيلاً غريباً لم يعترف به المسلمون إلا اضطراراً وعلى الصعيد الرسمي أحياناً أما على المستوى الشعبي فقد رفضه المسلمون وذلك مهما وجدت علاقات تجارية مصلحية سلمية بين الطرفين،ويضاف إلى ذلك كله مشكلة متنامية في صورة بروز فكرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين.

ولسنا هنا في حاجة إلى تكرار ما هو معروف سلفاً عن حركة الجهاد الإسلامي من خلال نشأتها بمبادرة شعبية من أهل حلب،ودور أتابكة الموصل في صورة شرف الدين مودود،وايلغازى،وأقسنقر،وغيرهم في صد الوجود الصليبي.

على أية حال؛فإن مابدأه شرف الدين مودود[٦] الذي اغتيل بخناجر الأسماعيلية؛ النزارية؛ واصله بنجاح الأتابك عماد الدين زنكي الذي قاد المسلمين لإسقاط الرها عام ١١٤٤م[٧]،وبالتالي سقطت أولى الإمارات الصليبية على الأرض العربية وهكذا؛سقطت رأس البلطة الصليبية،ولم يتبق منها سوى ذراعها في صورة الساحل الشامي،وقسم طولي من الظهير الداخلي.

ومهما يكن من أمر،ظلت مشكلة المسلمين الأساسية الصراع العباسي السني في مواجهة الفاطميين الشيعة وقد تطلع لمواجهة ذلك الأمر بكفاءة نور الدين محمود ابن عماد الدين زنكي الذي تولى الأمر من بعد اغتيال والده عام ١١٤٦م، ولا شك في أنه مثل رجل العباسيين القوى في المنطقة ويوصف بأنه مهندس حركة الجهاد الإسلامي في النصف الثاني من القرن الثاني عشر م.

وبصفة عامة؛كانت دولة الفواطم في مصر قد تولاها الهرم وشاخت،وأكدت مقولة العلامة التونسي رائد علم الإجتماع وفيلسوف التاريخ ابن خلدون عندما قرر أن للدول أعماراً تبدأ قوية ثم تضعف وتشيخ إلى أن تموت.وهكذا؛أجهدت من خلال الصراع مع العباسيين الذين تشككوا في نسب الفواطم،والكوارث الإقتصادية خاصة ما حدث خلال عهد المستنصر الفاطمي في صورة الشدة المستنصرية ناهيك عن فشل المذهب الشيعي الإسماعيلي في اكتساب قاعدة جماهيرية حقيقية في مصر التي ظلت مذاهب أهل السنة بها قائمة الشعار،فإذا أضفنا إلى ذلك كله أن الغزو الصليبي لبلاد الشام كشف قصر نظر الفاطميين الذين حاولوا التحالف في مرحلة مبكرة مع الصليبيين ضد السلاجقة في أنطاكية،وفيما بعد اتضح أن الغزاة أرادوا بناء وجودهم على حساب السلاجقة السنة والفاطميين الشيعة على حد سواء،وجاء سقوط الأملاك الفاطمية في الساحل الشامي الواحدة تلو الأخرى بمثابة صفعة قوية على وجه حكام القاهرة الذين كانوا اشبه شئ بكيان هزيل يعيش في بيات شتوي طويل،ليس في مقدوره مواجهة التطورات الدولية الخطيرة المحدقة بالمنطقة.

مهما يكن من أمر؛فلسنا في حاجة إلى إعادة اجترار ما هو معروف عن ضعف الفواطم، والحلف العباسي النوري ضدهم ثم التسابق بين مملكة بيت المقدس الصليبية ونور الدين محمود صوب مصر الفاطمية وهو أمر انتهى بفوز الدولة النورية،وفيما بعد وبضغط من العباسيين ثم نور الدين محمود اتجه نائبه في مصر

صلاح الدين الأيوبي الذي برز خلال الأحداث السابقة-اتجه إلـى إسـقاط الحكـم الفاطمي في ١٠ سبتمبر ١١٧١م(٨).

والواقع أن ذلك الحدث المحوري ليس مجرد إسقاط دولة بل انه مرحلة فريدة من مراحل تاريخ منطقة شرقي البحر المتوسط،وكان الصليبيون قد استفادوا تمامـاً من التصارع المذهبي السني-الشيعي من أجل غرس جذورهم فـي المنطقـة،والآن صارت حلب ودمشق والقاهرة في قبضة قوة إسلامية سنية واحدة وتم تغييرخريطة التوزيعات السياسية للمنطقة التي دامت مازاد على القرنين من الزمـان ولـم تعـد مصر جزيرة شيعية وسط محيط اسلامي سني بل صارت مثل شـقيقاتها الـسنيات المجاورات لها.

أما تأثير ما حدث في العام المذكور على مملكة الصليبيين؛فالأمر المؤكـد؛أن مملكة بيت المقدس الصليبية صارت تواجه الخطر من الشمال والجنـوب فـي آن واحد، وتأكد لنا فشل الصليبيين في مد حدودهم صوب النطاق الأفريقي- وأعني به مصر- التي حسم أمرها من خلال إنجاز عام١١٧١م الغير مسبوق وبالتالي تأكدت عزلة مملكة بيت المقدس كواقع جيوبولوتيكي.

ولاريب في أن إخضاع مصر لسيادة القوة الإسلامية المركزية في دمشق أكد فكرة الشامصر وهي الرابطة الجغرافية والتاريخية بين بلاد الـشام وأرض الكنانـة عبر عصور التاريخ وخاصة خلال مرحلة الغزو الصليبي للمنطقة أثنـاء القـرنين ١٢، ١٣ م

واقع الأمر،هناك عامان فارقان في تاريخ المواجهة بين المسلمين والصليبيين في صورة عام ١١٤٤ م عندما تم إسقاط إمارة الرها،وعام ١١٧١ م عندما أسقطت دولة الفواطم التي أخفقت في مواجهة كارثة الغزو الصليبي للمنطقة.

وهكذا،تأكد لنا براعة مهندس حركة الجهاد الإسلامي في النصف الثاني مـــن القرن١٢م وأعني به نور الدين محمود تم تلميذه الفذ صلاح الدين الأيـــوبي،والأمر الجلي؛ أن إسقاط الدولة الفاطمية مكن صلاح الدين الأيوبي الطموح الذي سعى إلى تكوين دولة لأسرته على أنقاض الدولة السابقة–مكنه من إخضاع تجـــارة التوابـــل المارة بالبحر الأحمروهي التي كان من الممكن أن تدر أرباحاً طائلة،كذلك كان من الممكن الإفادة من موانئ مصر خاصة الإسكندرية في دعم النشاط التجاري وتحقيق مكاسب إقتصادية تجارية وافرة على نحو كان له أفضل الأثر على قـــضية الجهـــاد الإسلامي ضد الصليبيين.

بصفة عامة،لايعد إسقاط الحكم الفاطمي ذا قيمة كبيرة بدون قيام دولـــة مـــن بعده تتبنى أمر الجهاد ضد الغزاة،وبالتالي تم ضخ دماء جديدة زكية في عروق تلك الحركة التي طال انتظارها لتلك الدماء.

مهما يكن من أمر؛يمكن اعتبار إنجاز عام١١٧١م– دونما مبالغـــة– بمثابـــة المفتاح لتغيرات جيوبوليتكية في المنطقة غير مسبوقة،ومن الأمور ذات الدلالة؛أنـــه بعد ١٦ عاماً فقط من ذلك الإنجاز كان المسلمون يدخلون بيت المقـــدس فـــاتحين! وهكذا كان إسقاط العاصمة الإفريقية البارزة؛القاهرة المقدمـــة لإســـقاط العاصـــمة الآسيوية المجاورة بيت المقدس.

على أية حال؛يمكن القول أن السلطان الأيوبي الذي سارع بالتدخل في شئون دمشق بعد وفاة نور الدين محمود عام١١٧٤ م؛ اتجه إلى تكوين أكبر قوة عسكرية ضاربة في الشرق مستغلاً في ذلك سهول الوديان الفيضية في صورة النيل والفرات والعاصي، واستخدم الفقهاء والعلماء في بعث الأمة من جديـــد لمواجهـــة التحـــدي الصليبي وقام بحرب استنزاف أيوبية طويلة مكنته مـــن امـــتلاك خبـــرة واســـعة

بجغرافية ميدان الصراع، اجهدت الصليبيين الذين كانوا يعانون الضعف بعد رحيل آخر ملوكهم الكبار في القرن ١٢م وأعني به الملك عموري ١١٦٣ -١١٧٤م

تجدر الإشارة أنه من الخطأ البين التركيز على شخصية السلطان الأيوبي الفذ دون إدراك أنه ابن عصره التاريخي وأن الجماهير التي التفت من حوله هي التي قامت تحت قيادته بالإنجاز التاريخي البارز فيما بعد في عام١١٨٧م،فالتاريخ عموماً تصنعه الشعوب ومعها قادتها سواءً سواء وعلى المؤرخ ألا يقع في سحر كاريزما Charisma الفرد البطل ويغفل العوامل الأخرى الفاعلة في مسار الحركة التاريخية ذاتها.

ولعل من أبرز سمات المرحلة الممتدة بين عامي١١٨٧،١١٧١م أن ذلك السلطان لم يتورط في معارك غير مأمونة العواقب،بل حافظ على قواته ليوم مشهود،كذلك امتلك موهبة إدراك قيمة الزمن فلم يضع وقتاً،وترك النحر الداخلي تنهش في بطء جسد مملكة الصليبيين،فإذا أضفنا إلى ذلك،توافر سلاح المعلومات من خلال شبكة مدربة من أكفأ الرجال وكذلك توافر عدد من كبار المستشارين الذين انتقاهم ببراعة،ثم امتلاكه لصفة التروي وعدم الإندفاع في اتخاذ القرارات المصيرية، كل ذلك أهله ومن ورائه جيشه من أجل صنع التاريخ بجدارة.

ومن الجلى البين أنه في الوقت الذي كانت فيه حركة الجهاد الإسلامي في صعود،كانت أوضاع الصليبيين سياسياً وعسكرياً واجتماعياً في أسوأ حال،ولسنا في حاجة للتأكيد على أن المرحلة الواقعة بين عامي ١١٧٤،١١٨٧م مثلت العد التنازلي لانهيار مملكة بيت المقدس الصليبية،ويكفي أن المؤرخ الصليبي البارز وليم الصورى William of Tyre , أنهى الفصل الأخير من كتابه تاريخ الأعمال Historia rerum بما يشبه صرخة استغاثة وقد تساءل من القادر على إنقاذ المملكة؟ بل توقع سقوطها من قبل أن تسقط خاصة أنه أدرك أهمية ومكانة صلاح

الدين الأيوبي وجيشه،ومن المرجع أن نقده للصليبيين وكشفه لأخطائهم جعله يـدفع الثمن فادحاً فمات مسموماً على الأرجح في ١٣ سبتمبر عام ١١٨٦م،وبالتالي فتـك الصليبيون بمؤرخهم الكبير الذي شخص أدواءهم ولكن كان صوته كصوت صارخ في البرية!

بصفة عامة،كان لحمق أحد قادة الصليبيين في صـورة رينـودي شـاتيون Renauld de Chatillon المعروف بإرناط [١٠] اثره في الأحداث،وقـد حركتـه عقدة الأسر نحو ١٦ عاماً في سجون المسلمين وكان قد قام بحملـة فاشـلة علـى الحجاز عام ١١٨٢م [١١]،وفي عام ١١٨٧ م سلب قافلة كبيرة خارقاً بـذلك الهدنـة المعقودة بين المملكة الصليبية وصلاح الدين الأيوبي،مما اعطى الأخيـر المبـرر السياسي من أجل شن حرب التحرير الشاملة التي طال الأعداد لها بكفاءة،وبالتـالي نقل الصراع إلى قلب الكيان الصليبي.

لن أستفيض في عرض أمر معركة حطين في يوليو١١٨٧م[١٢] ،ولكن المهم ملاحظة اتباع المسلمين لسلاح التعطيش ضد الصليبيين وفـرض موقـع وزمـان المعركة على الأعداء الذين كانوا طوال المرحلة السابقة يخشون المعارك الحاسـمة التي كانت بالنسبة لهم غيـر مأمونـة العواقـب نظـراً لقلـة أعـدادهم مقارنـة بالمسلمين،ومن الملفت للإنتباه عدم وجود ما يوصف بالمعركـة الحاسـمة طـوال تاريخهم في المنطقة بنفس درجة معركة حطين.

مهما يكن من أمر انتهت المعركة بانتصار تاريخي،ومن الخطأ تصور أنهـا معركة واحدة بل تفرعت منها عشرات العمليات العسكرية الصغرى لإحكام قبـضة المسلمين على المدن والقلاع الصليبية واسقاطها في أسرع وقت ممكن قبـل مقـدم التدخل الأوروبي لنجدة صليبي بلاد الشام.

لقد نتج عن المعركة المذكورة تدمير الجيش الصليبي بين قتيل وجريح وأسير وتم فتح مدن الساحل الشامي ثم دخل المسلمون بيت المقدس مظفرين في ٢ اكتوبر عام ١١٨٧م[١٣] لأول مرة منذ سقوطها في ١٥ يوليو ١٠٩٩م في قبضة الغزاة.

ولست في حاجة الى التأكيد على أن المدة الزمنية القصيرة الواقعــة بــين ٤ يوليوحتى ٢ اكتوبر١١٨٧م تعد قمة البراعة العسكرية للجيش الأيوبي الذي تمكــن من اكتساح مناطق الصليبيين ولم يبق من المملكة الصليبية سوى أنطاكية وطرابلس وحصن الأكراد والمرقب وصور، ولم يحدث خلال المرحلة الــسابقة مــن تــاريخ الصليبيين أن تم تحقيق انتصار للمسلمين عليهم على نحو حاسم وسريع مثلما حدث في تلك المعركة وأعقابها ولاريب في أن ذلك عكس براعة التخطيط وسرعة واتقان التنفيذ.

وهكذاسقطت مدينة بيت المقدس العاصمة الدينية والسياسية للمملكة الصليبية عام ١١٨٧م،وبالتالي شهدت المرحلة من ١١٧١م الى ١١٨٧م ســقوط عاصــمتين أفريقية في صورة القاهرة وآسيوية في صورة بيت المقدس،والفارق بين الحــادثتين أن العاصمة الأولى سقطت بعدما زاد على قرنين مــن الزمن،أمــا الثانيــة فجــاء سقوطها في أيدي المسلمين بعد ٨٨ عاماً فقط من فرض السيادة الصليبية عليها،كما أن القاهرة كانت مدينة إسلامية وإن كانت شيعية أما بيت المقــدس فكانــت مدينــة مسيحية كاثوليكية في ظل احتلال الصليبيين لها.

ومن مفارقات الأحداث،أن القائد الذي قاد عملية إسقاط الفاطميين تمثــل فــي صلاح الدين الأيوبي،وبالتالي؛نؤكد ما اسلفنا الإشارة اليه من قبل فيما يتصل بتــأثير ما حل بالقاهرة على ما حدث من بعد ذلك لبيت المقدس.

ولسنا في حاجة الى التأكيد على محورية عــام ١١٨٧م الــذي تمكــن فيــه المسلمون-لأول مره- من اسقاط قلب الكيان الصليبي وليس مجرد امــارة طرفيــة

دون التقليل البتة من حجم إنجاز عام١١٤٤م في أعالي الفرات،وبصفة عامة،لن يعود الصليبيون إلى سابق عهدهم من بعد تلك المعركة ودائماً يقال أن ما قبل حطين له طبيعته المختلفة عما هو بعدها من أحداث.

وهكذا حقق صلاح الدين الأيوبي وجيشه ما يشبه النبوءة من جانب المؤرخ وليم الصوري William of Tyre الذي رأى فيه الفارس الشجاع الذي يملك روح المبادرة وكان يستطيع ضرب الصليبيين في أي مكان يريد وفي أي وقت يشاء.

على أية حال،إذا كان إسقاط القاهرة الفاطمية يمكن أن يعتبر ثورة فإن حطين ومن بعدها إسقاط مملكة بيت المقدس الصليبية يعد زلزالاً حقيقياً حل بالكيان الصليبي في الشرق.

ولا أدل على أهمية ما حدث عام ١١٨٧م؛من ملاحظة أن الغرب الأوروبي المرتبط بحلف دفاعي استراتيجي مع الوجود الصليبي في بلاد الشام تدخل لإنقاذ ما يمكن إنقاذه في صورة ما عرف بالحملة الصليبية الثالثة التي شارك فيها كبار قادة أوروبا حينذاك في صورة الإمبراطور الألماني فردريك بارباروسا Frederick Barbarosse [١٥] (١١٥٢م – ١١٩٠م) والملك الإنجليزي قلب الأسد Richard Lion Hearted [١٦] (١١٨٩م –١١٩٩م)،والملك الفرنسي فيليب اغسطس Philip Augustus [١٧] (١١٨٠م – ١٢٢٣م)وهي حملة فاشلة عموماً لم تستطع إعادة عقارب الساعة الى الوراء،ولم تتمكن من القضاء كلياً على مكاسب حطين ومنها استعادة بيت المقدس على الرغم من نجاحها في انتزاع عكا من قبضة المسلمين في ١٢ يوليو ١١٩١م [١٨] وتحقيق انتصار محدود غير حاسم في معركة ارسوف في ٧ سبتمبر ١١٩١م [١٩].

وهكذا يمكن اعتبار عامي ١١٧١م ، ١١٨٧م بمثابة قاعدة مثلث أمـا رأسـه فتمثلت في أحداث عام ١٢٠٤م الغير مسبوقة في تاريخ العلاقـات بـين الغـرب الأوروبي وشرق البيزنطي.

وليس الهدف هنا تقديم عرض مكرر لتطور العلاقات البيزنطية اللاتينيـة،اذ أن ذلك أمر تصدت له دراسات علمية متخصصة.

بصفة عامة،تأسست القسطنطينية وافتتحت في ١١ مايو عام ٣٣٠م في موقع فريد جغرافياً وتاريخياً حيث صار لها ميراث حضارات الشرق في حين أن الغرب الأوروبي سادته القبائل الجرمانية التي تمكنت من إسقاط الإمبراطورية الرومانيـة عام٤٧٦م، وتوالت رحلة الإمبراطورية البيزنطيـة مـن خـلال عهـود اسـرات قسطنطيين، وثيودوسيوس وجستنيان وهرقـل والأسـرة الأيـسورية والعموريـة ،والمقدونية وأسرة كومنين وأخيراً أسرة انجيلوس،وعلى مدى عدة قـرون اتـسمت العلاقات بين بيزنطه والغرب الأوروبي بالعداء على المستوى الديني المذهبي كمـا حدث خلال قطيعة فوشيوس عام ٨٦٩م والإنشقاق الأعظم عـام ١٠٥٤م،وجـاءت الحركة الصليبية لتكشف لنا عن مزيد من تدهور العلاقات واتهمت بيزنطـة مـن جانب الغرب بأنها خائنة للقضية الصليبية وما كان ذلك إلا من خلال تباين وجهات النظر وكذلك المصالح التي حركت كل طرف.

والملاحظ أن البابوية عندما دعت للحركة الصليبية كانت تهدف الى إخضاع كنيسة القسطنطينية المارقة لسيادة كنيسة روما سيدة الكنائس،من جهة أخرى؛كانـت المدن التجارية الايطالية خاصة البندقية تسعى جاهدة الى القضاء على القسطنطينية المنافس لها على الصعيد التجاري.

وقد جاءت سياسات الامبراطـور البيزنطـي المتغـرب مانويـل كـومنين Manuel Comnenus (١١٤٣- ١١٨٠م)[٢٠] لتعطي امتيازات للمدن الايطاليـة

أوغرت صدور البيزنطيين،وزادت التوتر بين الجانبين مع احراق الحي البندقي في العاصمة البيزنطية عام ١١٨٢م [٢١] من بعد رحيله.

مهما يكن من امر؛على امتداد الحملات الصليبية من الأولى الى الثلاثة تزايد حجم الشكوك والعداء المتبادل بين الجانبين،وفي الحملة الثالثة- على سبيل المثال- وجدنا مؤشر واضحاً دالاً على تزايد هوة العداء بين الطرفين،اذا فكر الامبراطور فردريك باربروسا فعلياً في اسقاط القسطنطينية،كذلك استولى ريتشارد قلب الأسد على جزيرة قبرص Cyprus عام ١١٩١م[٢٢] التي عدت من ضمن الأملاك البيزنطية،وجاء ذلك دليلاً على تزايد حجم الأطماع الغربية في الأملاك البيزنطية حينذاك.

على أية حال؛لسنا في حاجة إلى تكرار ما هو معروف عن أحداث الصليبية الرابعة التي بدأت بتنازع على العرش الإمبراطوري،وانتهت بسقوط القسطنطينية عام ١٢٠٤م [٢٣] لأول مرة في تاريخها منذ أن تم إفتتاحها عام ٣٣٠م . وارتكبت فيها عملية نهب وسلب[٢٤] من أكبر ما عرف في عالم العصور الوسطى !، وتم تقسيم أملاك بيزنطه، وحصلت البندقية على نصيب الأسد[٢٥]، وتجرع البيزنطيون كأس الإحتلال المرير من عدو غربي طالما نظروا إليه نظرة إزدراء بل وإحتقار!.

والأمر المؤكد؛ أن سقوط القسطنطينية أحدث عدة نتائج محورية في منطقة شرقي أوروبا، وكذلك شرقي البحر المتوسط على حد سواء ؛ مما عكس أهمية وقوة تأثيره فقد إنهارت القسطنطينية كدرع الأرثوذكسية وتم إخضاع كنيستها لسيطرة كنيسة روما الكاثوليكية وبالتالي حققت البابوية في عهد البابا انوسنت الثالث Innocent III(١١٩٨ - ١٢١٦م) انتصاراً تاريخياً تحرقت شوقاً لتحقيقه.

كذلك أدى ذلك الغزو اللاتيني للعاصمة البيزنطية،الى وضع حاجزتاريخي فاصل بين البيزنطيين والغرب الأوروبي على نحو مهد السبيل لنجاح العثمانيين من

بعد ذلك في فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م[٢٦] على يدي السلطان محمد الثاني العثماني الملقب بالفاتح بعد أن دخلت الإمبراطورية المذكورة في مرحلة احتضار الأجل فيما بين عامي طويل خلال المرحلتين ١٢٠٤ إلى ١٤٥٣م؛ أي على مدى قرنين ونصف من عمر الزمان.

ولانغفل أيضاً أن ما صاحب الغزو اللاتيني من عمليات سلب ونهب واسعة النطاق لكنوز الفن البيزنطي مثّل كارثة حضارية تقارن بالكوارث الأخرى التي تعرّض لها التراث اللإنساني عموماً؛وهوأمرسيتأكد في نفس القرن الثالث عشر الميلادي من خلال الغزو المغولي لحواضر المشرق الإسلامي وان صاحبها تدمير بالغ مثلما حدث في بخارى وسمرقند ونيسابور وبغداد وغيرها.وكان من الطبيعي أن يحدث ذلك كله أثره على الشرق اللاتيني،إذ أن الصليبيين في بلاد الشام فضل الكثيرون منهم الاتجاه صوب الإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية جرياً وراء المكاسب المادية بدلاً من العيش على أرض يلاد الشام حيث التهديد الإسلامي وأثر ذلك بدوره سلبياً على الكيان الصليبي هناك ولذلك رأى المؤرخ رينيه جروسيه ذلك كله إيذاناً بإخفاق المشروع الصليبي[٢٧] برمته فيما بعد.

تجدر الإشارة الى أن ماحدث عام ١٢٠٤م له أوجه للتشابه وكذلك الإختلاف مع ما حدث عامي ١١٧١م،١١٨٧م،إذ تتشابه القاهرة وبيت المقدس،والقسطنطينية من خلال أنها مثلث ثلاث حواضر أو عواصم للكيانات الثلاث في صورة الدولة الفاطمية ومملكة بيت المقدس الصليبية والإمبراطورية البيزنطية وان كانت الأولى برية داخلية وكذلك الثانية أما الثالثة فكانت عاصمة ساحلية وان كان سقوط بيت المقدس جاء بعد فترة لم تتجاوز ١٦ عاماً على سقوط القاهرة الفاطمية في قبضة نور الدين محمود أما الفاصل الزمني بين سقوط القسطنطينية وعاصمة الصليبيين فقد اقترب من ذلك حيث بلغ سبعة عشر عاماً.

كذلك ينبغي إدراك أن سقوط القاهرة الفاطمية في قبضة الحلف العباسي-النوري جاء بصورة سلمية لم تتناطح فيها عنزتان على حد تعبير ابن الأثير،أما سقوط بيت المقدس؛فقد جاء كنتاج لعمل عسكري كبير في صورة معركة حطين،ويتشابه معه-مع الفوارق بالطبع-اقتحام القسطنطينية على أيدي الصليبيين الغربيين.

من ناحية أخرى؛نلاحظ ان إنجازعامي ١١٧١م ، ١١٨٧م، كانا نتاجاً للقرن ١٢م ،أما انجاز عام ١٢٠٤م فكان نتاجاً للقرن ١٣م في أعوامه الأولى مع عدم اغفال جذوره التاريخية في القرن ١٢م بطبيعة الحال،كذلك نلاحظ أن الأول وقع على الأرض الأفريقية،والثاني في غربي آسيا،والثالث في شرقي أوروبا على نحو عكس تنوع النطاق الجغرافي للأحداث التاريخية المحورية الثلاثة وتوزعها بين قارات ثلاث بصورة عكست الطابع العالمي لأحداث عصر الصليبيات.

ومن الملفت للانتباه؛أن ما حل بدولة الفواطم أجرى عبارات الرثاء من جانب الشاعر عماره اليمني(ت ١١٧٤م) فرثاها بأشعار مؤثرة ويتشابه ذلك مع المؤرخ البيزنطي نيكتاس خونياتس الذي رثى مدينته رثاءً مؤثراً هو الآخر،ولاتشكك أن العاصمة البيزنطية كانت معشوقته الأولى التي نكب برؤيتها وهي تذبح بسكين الغرب الأوروبي مع عدم اغفال مسئولية البيزنطيين أنفسهم عما حدث بطبيعة الحال.

ويلاحظ أن هناك تشابهاً بين عامي ١١٧١م ،١٢٠٤م إذ أن العام الأول؛أدى إلى قيام الدولة الأيوبية التي دامت حتى عام ١٢٥٠م وبالتالي استمرت ٧٩عاماً،أما العام الثاني فنتج عنه ظهور الإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية التي امتدت خلال الأعوام من ١٢٠٤ الى ١٢٦١م؛أي على مدى ٥٧ عاماً،وهي تعد أقصر الإمبراطوريات عمراً في عالم العصور الوسطى ولم تعمر بالتالي طويلاً بسبب

عدم مشروعيتها في نظر البيزنطيين وعدم كفاءة من تولى أمرها سياسياً ومقاومـــة البيزنطيين لها بكل وسيلة ممكنة.

كذلك لا نغفل أن هناك بعض الفروق والإختلافات بين أحداث الأعوام الثلاثة المحورية المذكورة؛إذ أن انجاز عام١١٧١م أدى الى اختفاء الدولة الفاطمية نهائيـــاً من الوجود،أما بعد عام ١١٨٧م فإن سقوط مملكة بيت المقدس أدى إلى قيام مملكة عكا الصليبية خاصة بعد أن تمكن الصليبيون من استردادها عام ١١٩١م في خلال أحداث ماعرف بالصليبية الثالثة وبالتالي؛ فقد مثلت عكا-جوهرة الساحل الـــشامي- المدينة البديلة عن بيت المقدس كعاصمة للصليبيين وان افتقـــدت الأهميـــة الدينيـــة بطبيعة الحال،كذلك نلاحظ أن سقوط القسطنطينية عام ١٢٠٤م لم يؤد إلـــى نهايـــة السيادة البيزنطية عليها؛إذ تمكن ابنها ميخائيل الثامن باليولوغوس مـــن اســـتردادها مرة أخرى عام(٢٩) ١٢٦١م لتعود للحياة ظلاً شاحباً بعد الكارثة التي حلت بها فـــي العام المذكور.

وبصفة عامة؛فإن الأحداث الثلاثة معاً جزء لايتجزأ من عصر تاريخي واحد وهو عصر الحروب الصليبية وان اختلفت صور وأشكال الكيانات السياسية المشار إليها.

أما إذا قارنا بين تلك الأحداث المذكورة من خـــلال طـــول تأثيرها،نجـــد أن سقوط بيت المقدس عام ١١٨٧م امتد أثره إلى عام١٢٩١م عندما تم طرد الصليبيين من عكا على يدى الأشرف خليل بن قلاوون لأن الغزاة لم يتمكنـــوا مـــن احـــداث تغييرات تذهب بتأثير معركة حطين الحاسمة بصورة جوهرية،وبالتالي امتد أثر عام ١١٨٧م إلى ما زاد على القرن بأربعة أعوام،أما عام ١٢٠٤م؛فقد إحـــدث تـــأثيره السلبي على بيزنطة من وجهة النظر البيزنطية بطبيعة الحال-على نحو إمتـــد إلـــى عام ١٤٥٣م؛ أي إلى عهد آخر امبراطـــور بيزنطـــي وهـــو قـــسطنطين الحـــادي

عشر(١٤٤٩-١٤٥٣م) حيث سقطت العاصمة البيزنطية في عهده على أيدى العثمانيين أي أن التأثير امتد نحو ٢٤٩عاماً أي نحو قرنين ونصف من عمر الزمان مما عكس أن ماحدث العام المذكور كان تأثيره ممتداً الى ذلك النطاق الزمني.

وليس معنى العبارات السابقة أن يفهم أن أحداث التاريخ يمتد تأثيرها إلى أعوام محددة ويتوقف الأمر عند ذلك الحد،فالملاحظ أن تأثيرها يمتد أحياناً-لاسيما الأحداث المحورية منها-إلى ما هو أبعد بكثير من الحدود الزمنية الضيقة إلى ما يوصف بالرمز،فلا نغفل أن صلاح الدين الأيوبي من خلال إنتصار حطين تحول إلى بطل رمز ولايزال في العقل الجمعي العربي والمسلم بل لعله القائد الوحيد- دون مبالغة أو اعتساف في الأحكام- من عالم العصور الوسطى الذي انبهر به أعداؤه ونسجوا بشأنه أسطورة ظلت ماثلة هي الأخرى[٣٠] في العقل الجمعي الأوروبي على نحو أو آخر.

وهكذا؛تؤكد لنا الصفحات السابقة كيف أن أحداث أعوام ١١٧١م ،١١٨٧م،١٢٠٤م تمثل أحداثاً محورية في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى وخاصة في شرقي البحر المتوسط و شرقي أوروبا،ولاريب؛في أنها أحداث مؤثرة وفعالة ولاتوصف بالمحلية بل بالعالمية على نحو عكس أهميتها بصورة دفعت الباحث إلى تناولها.

ذلك عرض عن المرحلة الواقعة بين عامي ١١٧١م ، ١٢٠٤م باعتبارها مرحلة حاسمة في تاريخ الحروب الصليبية في شرقي البحر المتوسط وشرقي أوروبا.

الهوامش:

(١) عن ذلك أنظر:

Fulcher of Chartres,A History of the Expedition to Jerusalem,Trans.by Rita Rian,Tennesse ١٩٦٧,pp. ٦٢ – ٦٥.

Robert the Monk,in peters,the Crusade,the Chronicle of Fulcher of Chartres and other source materials,Philadelphia ١٩٧١, ١- ٤.

Munro,"The Speech of pope UrbanusII at Clermont", A.H.R., vol.II,١٩٠٥,pp. ٢٣١ – ٢٤٢.

(٢) عن بلد وين الأول أنظر:

William of Tyre, History of deeds done beyond the sea,Trans.by Babcock and Krey, Vol.I,New York ١٩٤٣,pp . ١٨٩ – ٥١٥.

هنادي السيد محمود،مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلد وين الأول ١١٠٠– ١١١٨م،رسالة ماجستير غير منشورة،كلية الآداب–جامعة عين شمس عام٢٠٠٦م،أسامة زكي زيد،"حملات الرملة الثلاث ضد الصليبيين في عهد الوزير الفاطمي الأفضل(١١٠١– ١١٠٥م/٤٩٥– ٤٩٩ هـ)"مجلة كلية الآداب–جامعة الإسكندرية،العدد (٢٩) عام١٩٨١م، ص٣٨– ص٤٨،صيدا و دورها في الصراع الصليبي الإسلامي؛ ط.الإسكندرية١٩٨١، ص٩١، محمد مؤنس عوض،الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، ط. القاهرة١٩٩٩–٢٠٠٠م، ص٨٩– ص١١٣.

(٣) عن بلد وين الثاني أنظر:

William of Tyre, Vol.I, p. ٩٥, p.١١٦

صفاء عثمان،مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلد وين الثاني ١١١٨– ١١٣١م،رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب– جامعة عين شمس عام ٢٠٠٥م.

(٤) عن بلد وين الثالث أنظر:

William of Tyre, Vol.II, pp.١٣٦ – ٢٩٧

عبداللطيف عبدالهادي السيد،السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس الصليبية في عهد بلد وين الثالث ١١٤٦–١١٦٣م، رسالة ماجستير غير منشورة،كلية الآداب–جامعة عين شمس عام١٩٩٠م.

(٥) عن مذبحة بيت المقدس عام ١٠٩٩م أنظر:

Anonymous,The deeds of Franks and other pilgrims to Jerusalem,Trans.by R.Hill,London ١٩٩٢, p.٩١

ابن القلانسي،ذيل تاريخ دمشق،تحقيق أميدروز،ط.بيروت ١٩٠٨م، ص١٣٧، سعيد عاشور،أضواء جديدة على الحروب الصليبية،ط.القاهرة١٩٦٤م،ص١٠.

(٦) عن شرف الدين مودود أنظر:

ابن الأثير،التاريخ الباهر في دولة الأتابكة بالموصل،تحقيق عبدالقادر طليمات،ط.القاهرة١٩٦٣م ص١٧،عفاف صبرة،"الأمير مودود بن التونتكين"،الدارة،العدد (٢) لسنة (١٢) عام١٩٨٦م، ص١٠٩-ص١٣٢.

Fink,"Maudud of Mosul precursor of Saladin", M.W.,Vol.XLIII, ١٩٥٣ , pp.١٨-٣٧.

(٧) عن سقوط الرها عام ١١٤٤م أنظر:

ابن الأثير،المصدر السابق، ص٦٨،الأصفهاني،تاريخ دولة آل سلجوق،ط.القاهرة ١٩٠٠م،ص١٨٦، عليه الجنزوري،إمارة الرها الصليبية،ط.القاهرة١٩٨٦م، ص٢٩٥،ص٣١٢، محمود الرويضي،إمارة الرها الصليبية،ط.عمان٢٠٠٢م، ص٥٥٧،ص٥٨١.

(٨) عن سقوط الدولة الفاطمية أنظر:

ابن حماد،تاريخ ملوك بني عبيد،تحقيق التهامي نقرة وعبدالحليم عويس،ط.القاهرة ١٤٠١ هـ، ص٦٣،الذهبي،دول الإسلام،ج٢،تحقيق شلتوت ومصطفى إبراهيم،ط.القاهرة١٩٧٤، ص٧٩،ص٨٠.

(٩) عن وليم الصوري أنظر:

Krey,"William of Tyre,The Making Of an Historian in the Middle Ages", S,Vol XVI, ١٩٤١, pp. ١٤٩-١٦٦

Edbury and Rowe,William of Tyre historian of the Latin East, Cambridge ١٩٨٨

عمر كمال توفيق،"المؤرخ وليم الصوري"،مجلة كلية الآداب،جامعة الإسكندرية م(٢١) عام ١٩٦٨م، ص١٨١- ص٢٠٠، محمد مؤنس عوض،وليم الصوري مؤرخاً للقلاع الجنوبية

لمملكة بيت المقدس الصليبية،سلسلة دراسات شرق أوسطية- مركز بحوث الشرق الأوسط، ط. القاهرة ١٩٩٥م.

(١٠) عن إرناط أنظر:

Ernoul, Chronique d'Ernoul et Bernard
Le Tresorier, ed. Mas latrie,paris ١٩٧١, p.٦٩ – ٧٠
Schlumberger, Renauld de Chatillon prince d'Antioch , paris ١٩٣٣.

(١١) عن حملته على الحجاز أنظر:

ابن منكلي،الأحكام الملوكية والضوابط النموسية في فن القتال في البحر،تحقيق عبدالعزيز عبدالدايم،رسالة دكتوراه غير منشورة،كلية الآداب- جامعة القاهرة عام ١٩٧٤م. ص٨٥ – ص٨٦.

حسن عبد الوهاب،مصر وأمن البحر الأحمر في عصر الحروب الصليبية،ضمن كتاب مقالات وبحوث في التاريخ الإجتماعي للحروب الصليبية،ط. الإسكندرية ١٩٩٧م، ص٢٠٣ – ص٢٠٤.

(١٢) عن معركة حطين أنظر:

ابن شداد،النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية،تحقيق جمال الدين الشيال،ط.القاهرة١٩٦٤م، ص٧٥ – ص٧٩ ديفيد جاكسون،"معركة حطين والإستيلاء على القدس" ضمن كتاب حطين صلاح الدين والعمل العربي الموحد،ط.القاهرة١٩٨٩م، ص٨٦ – ص١١٠، جوزيف نسيم يوسف، "معركة حطين خلفياتها ودلالاتها،عالم الفكر، م(٢٠)، العدد الأول، أبريل- مايو- يونيو ١٩٨٩م، ص٢٣٥- ص٢٥١،جوزيف داهموس،سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى، ت. محمد فتحي الشاعر،ط.القاهرة١٩٨٧م، ص١٠٣- ص١٣١.

(١٣) ابن الأثير،الكامل في التاريخ،ج١١، ط.بيروت ب- ت، ص٢٢٥،الفتح البنداري،سنا البرق الشامي، تحقيق فتحية النبراوى، ط.القاهرة١٩٧٩، ص٣٨٥،مالكوم ليونز وجاكسون،صلاح الدين، ت.علي ماضي، ط.بيروت١٩٨٨م،ص٣٢٠، عزيز سوريال عطية،الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، ت.فيليب صابر،ط.القاهرة١٩٧٧م،ص٦٨.

(١٤) William of Tyre, Vol.II,p

(١٥) عن فردريك بارباروسا أنظر:

Otto of.Freising,The deeds of Frederich Barbarossa,Trans.by Charles C.Microw,Toronto ١٩٦٦,Munz,Frederich barbarossa Astudy in Medieval Politics,London ١٩٦٩

أيضاً: حامد غانم زيان،الإمبراطور فردريك بارباروسا والحملة الصليبية الثالثة،ط.القاهرة ١٩٧٧م.

(١٦) عن ريتشارد قلب الأسد أنظر:

Richard of Devizes, Crusade of Richard Coeur de Lion,in Chronicles of the Crusades,London ١٩٠٨, Geoffrey of Vinsauf,Crusade of Richard Coeur de lion,in Chronicles of the Crusades, London,١٩٠٨,Ambroise, The Crusade of Richard Heart of Lion,Trans.by Hubert,New york ١٩٤٣,Chronicle of the Third Crusade,A Translation of Iinerarum peregrinorum et Gesta Regis Recardi, Trans.by Helen Nicholson,London ١٩٩٧.

(١٧) عن فيليب أغسطس أنظر:

موريس كين،حضارة أوروبا العصور الوسطى،ت.قاسم عبده قاسم، ط.القاهرة٢٠٠٠م، ص١٠١– ص١٠٢

(١٨) Ambroise,p.٢٢٩, Lane – pool, Saladin and the Fall of the Latin Kingdom of Jerusalem,London ١٨٩٨, p.٢٩٣.

(١٩) عن معركة أرسوف أنظر:

Ambroise,p.٢٥٣

ابن شداد،المصدر السابق، ص١٧٥،مجير الدين الحنبلي،الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ط عمان ١٩٧٣م، ص٣٧٩،السيد الباز العريني،الشرق الأوسط والحروب الصليبية،ط.القاهرة١٩٦٣م،ص٩٦٣ محمد مؤنس عوض، في الصراع الإسلامي– الصليبي معركة أرسوف١١٩١م/٥٨٧ هـ،ط.القاهرة١٩٩٧م، ص٢٢– ص٦٥.

(٢٠) عن مانويل كومنين أنظر:

Nicol,Biographical dictionary of the Byzantine, Empire,london١٩٩١, pp. ٧٨- ٧٩

Magdalino,The Empire of Manuel I Komnenos,١١٤٣ – ١١٨٠,Cambridge١٩٩٧

(٢١) عن ذلك أنظر:
عمر كمال توفيق،تاريخ الدولة البيزنطية،ط.الإسكندرية١٩٩٥م. ص٢٠٧
حاتم الطحاوي،بيزنطة والمدن الإيطالية،العلاقات التجارية ١٠٨١ – ١٢٠١، ط.القاهرة١٩٩٨م، ص١٠٦، عمر كمال توفيق،تاريخ الدولة البيزنطية،ط.الإسكندرية١٩٩٥م، ص٢٠٧.

(٢٢) عن ذلك أنظر:
Edbury,The Kingdom of Cyprus and the Crusades ١١٩١ – ١٣٧٤,Cambridge ١٩٨١.

عاطف مرقص،قبرص والحروب الصليبية في القرنين ١٢ ، ١٣م رسالة دكتوراه غير منشورة،كلية الآداب–جامعة عين شمس عام١٩٩١م، ص٩٧.

(٢٣) عن سقوط القسطنطينية عام ١٢٠٤م أنظر:
محمد مؤنس عوض،الإمبراطورية البيزنطية دراسة في تاريخ الأسر الحاكمة،ط.القاهرة٢٠٠٧م، ص٣٥٤– ص٣٦٣.

(٢٤) Nicetas Choniates, O' City of Byzantium, Annales of Nicetas Choniates,Trans.by Harry Mayoulias, Wayne State University,Detriot ١٩٦٤,p. ٣١٤

إسحق عبيد،الدولة البيزنطية في عصر باليولوغوس ط. بني غازي ب – ت،ص١٢،روما وبيزنطه من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة قسطنطينية،ط.القاهرة ١٩٧٠م، ص٣٤٢.

(٢٥) عن ذلك أنظر:
هايد،تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى،ج١،ت محمد رضا،ط.القاهرة١٩٨٥م، ص٢٧٧.

(٢٦) عن ذلك أنظر:

Kritovouls,History of Mehmed the conqueror,Trans.by Charles Riggs,Princeton ١٩٥٤

Runciman,The Fall of Constantinople١٤٥٣,Cambridge١٩٦٥

برنارد لويس،استانبول وحضارة الخلافة الإسلامية ت.سيد رضوان علي،ط.الرياض١٩٨٢م، ص١٥ – ص٢٦.

(٢٧) سعيد عاشور، الحركة الصليبية،ج٢،ط.القاهرة١٩٦٣م، ص٩٤٠.

(٢٨) منها :"أيتها المدينة،يا حديث العالم، يامنار الأرض يا حامية الكنائس وياسيدة الإيمان،ياقلعة العلم،لقد تجرعت كأس غضب الله حتى الثمالة،ولقد حاق بك أتون أكثر بشاعة من ذلك الذي أصاب قديماً المدن الخمس"

عن ذلك أنظر:

Nicetas Choniates,p. ٣١٤

إسحق عبيد،الدولة البيزنطية، ص١٢

Ebeid,"Was pope Innocent III an accomplice in the diversion of the Fourth Crusade ١٢٠٤, E.H.R,vol xv,Cairo١٩٦٩,p.١٩

(٢٩) عن ذلك أنظر التفصيل:

Chapman,Michael paleologue resaturteur de L'empire byzantine (١٢٦١ – ١٢٨٢),paris ١٩٢٦,Geanakoplos,Emperor Michael Paleologus and the West ١٢٥٨ – ١٢٨٢, Cambridge ١٩٥٩

إسحق عبيد،الدولة البيزنطية في عصر باليولوغوس،ط.بني غازي ب – ت

(٣٠) عن ذلك أنظر هذه الدراسة الممتازة:

كارول هيلنبراند،"صلاح الدين،تطور أسطورة غربية"،ضمن كتاب ٨٠٠ عام حطين صلاح الدين والعمل العربي الموحد،ط.القاهرة١٩٨٩م، ص٩٦– ص١٠٠

قائمة المصادر والمراجع

أولاً:المصادر العربية

ابن الأثير (عز الدين محمد ت ٦٣هـ/١٢٣٢م) :

- الكامل في التاريخ، ط.بيروت ب – ت، التاريخ الباهر في دولة الأتابكة بالموصل،تحقيق عبد القادر طليمات،ط.القاهرة١٩٦٣م.

ابن حماد (أبوعبدالله محمد ت٦٢٨ هـ/١٢٣١م) :

- تاريخ ملوك بني عبيد، تحقيق التهامي نقره وعبدالحليم عويس،ط.القاهرة١٤٠١هـ.

ابن شداد (القاضي بهاء الدين ت٦٣٢هـ/١٢٣٤م) :

- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، ط. القاهرة١٩٦٤م.

ابن منكلي (محمد بن منكلي ت٧٧٥هـ/١٣٧٦م) :

- الأحكام الملوكية والضوابط النموسية في فن القتال في البحر، رسالة دكتوراه غير منشورة، تحقيق عبدالعزيز عبدالدايم،كلية الآداب– جامعة القاهرة عام١٩٧٤م.

الأصفهاني (محمد بن محمد ت٥٩٧هـ/١٢٠١م) :

- تاريخ دولة آل سلجوق، ط.القاهرة١٩٠٠م .

الذهبي (شمس الدين ت٧٤٨هـ/١٣٤٨م) :

- دول الإسلام ج٢، تحقيق شلتوت ومصطفى إبراهيم، ط. القاهرة١٩٧٤م

الفتح البنداري (الفتح بن علي بن محمد ت٦٢٢هـ/١٢٢٥م) :

- سنا البرق الشامي، تحقيق فتحية النبراوى، ط. القاهرة١٩٧٩م.

مجير الدين الحنبلي (مجير الدين ت١٠هـ/١٦م) :

- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ط. عمّان١٩٧٣م.

ثانياً:المصادر الأوروبية:

- Ambroise, the Crusade of Richard Heart of Lion, Trans.by Hubert, New York ١٩٤٣

- Anonymous, the deeds of the Franks and other pilgrims to Jerusalem, Trans.by R.Hill, London ١٩٩٢
- Anonymous, Chronicle of the Thirde Crusade, A Translation of Ienerarum Peregrinorum et Gesta Regis Recardi, Trams. By Helen Nicholson, London ١٩٩٧
- Ernoul, Chronique d'Ernoul et Bernard Le Tresorier, ed. Mas Latrie, Paris ١٩٧١
- Fulcher of Chartres, A History of the Expedition to Jerusalem, Trans. By Rita Rian, Tennesse ١٩٦٧
- Geoffrey of Vinsauf, Crusade of Richard Coeur de Lion, in Chronicles of the Crusades, London ١٩٠٨
- Ktitovouls, History of Mehmed the Conqueror, Trans.by Charles Riggs, Princeton ١٩٥٤
- Nicetas Choniates, O'City of Byzantium, Annales of Nicetas Choniates, Trans. By Harry.M agoulias, Wayne state University.Detriot ١٩٨٤
- Otto of Freising, the deeds of Frederich Barbarossa, Trans,by Charles c.Microw,Toronta ١٩٦٦
- Richard of Devizes, Crusade of Richard Coeur de Lion,in Chronicles of the Crusades,London ١٩٠٨
- Robert the Monk,is peters,the Crusade,the Chronicle of Fulches of Chartres and other Source materials,Philadelphia ١٩٧١
- William of Tyre, History of deeds done beyond the sea,trans.by Babcock and Krey,New york ١٩٤٣

ثالثاً:المراجع العربية والمعربة:

- أسامة زكي زيد (د.) صيدا ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي، ط.الإسكندرية ١٩٨١م، "حملات الرحلة الثلاث ضد الصليبيين في عهد الوزير الفاطمي الأفضل ١٠١١-١١٠٥م/٤٩٥- ٤٩٩هـ" مجلة كلية الآداب- جامعة الإسكندريةالعدد (٣٩)، عام١٩٨١م.
إسحق عبيد (د.) روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة قسطنطينية ط. القاهرة١٩٧٠م. الدولة البيزنطية في عصر باليولوغوس ط.بني غازي ب- ت.

السيد الباز العريني (د.) الشرق الأوسط والحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٦٣م.

برنارد لويس، استانبول وحضارة الخلافة الإسلامية، ت. السيد رضـوان علـي، ط. الريـاض ١٩٨٢م.

جوزيف داهموس، سبع معارك فاصلة،في العصور الوسطى، ت. محمد فتحي الشاعر، ط.القاهرة ١٩٨٧م.

جوزيف نسيم يوسف (د.)، "معركة حطين خلفياتها ودلالاتها"، عالم الفكر، م (٢٠)،العدد الأول أبريل- مايو- يوليو١٩٨٩م.

حاتم الطحاوي (د.)، بيزنطـة والمـدن الإيطاليـة العلاقـات التجاريـة ١٠٨١- ١٢٠١م، ط. القاهرة١٩٨٩م.

حامد زيان (د.)، الإمبراطور فردريك بارباروسا والحملة الصليبية الثالثة، ط.القاهرة١٩٧٧م.

حسن عبدالوهاب (د.)، "مصروأمن البحر الأحمر في عصر الحروب الـصليبية" ضـمن كتـاب مقالات وبحوث في التاريخ الإجتماعي للحروب الصليبية، ط. الإسكندرية ١٩٩٧م.

ديفيد جاكسون، " معركة حطين والاستيلاء على القدس، ضمن كتاب حطين صلاح الدين والعمل العربي الموحد، ط.القاهرة ١٩٨٩م.

سعيد عاشور(د.)، الحركة الصليبية، ط،ط. القاهرة ١٩٦٣م أضـواء جديـدة علـى الحـروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٦٤م.

صفاء عثمان، ملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الثاني ١١١٨ _ ١١٣١م، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الاداب _ جامعة عين شمس عام٢٠٠٥م.

عاطف مرقص(د.)، قبرص والحروب الصليبية في القرنين ١٢ ، ١٣م ، رسالة دكتـوراه غيـر منشورة كلية الاداب جامعة عين شمس عام ١٩٩١م.

عبداللطيف عبدالهادي السيد(د.)، السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدسالصليبية في عهد بلـدوين الثالث ١١٤٦_١١٦٣م ، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الاداب جامعة عـين شـمس عـام ١٩٩٠م.

عزيز سوريال عطية (د.)، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقاتبين الشرق والغرب،ت.فيليب صابر ط.القاهرة ١٩٧٧م.

عفاف صبره (د.)، الأمير مودود بن التونتكين،الدارة، العدد (٢)،السنة (١٢) عام١٩٨٦م.

عليه الجنزوري (د.)، إمارة الرها الصليبية،ط.القاهرة١٩٨٦م.
عمر كمال توفيق (د.)، "المؤرخ وليم الصوري"، مجلة كلية الآداب- جامعة الإسكندرية م(٢١)،عام١٩٦٨م، تاريخ الدولة البيزنطية، ط.الإسكندرية١٩٩٥م.
مالكوم ليونز وجاكسون، صلاح الدين، ت. علي ماضي، ط، بيروت١٩٨٨م.
محمد مؤنس عوض (د.)، "وليم الصورى مؤرخاً للقلاع الجنوبية لمملكة بيت المقدس الصليبية" سلسلة دراسات شرق أوسطية مركز بحوث الشرق الأوسط- جامعة عين شمس
ط.القاهرة ١٩٩٥م في الصراع الإسلامي- الصليبي معركة أرسوف١١٩١م/٥٨٧ هـ ،
ط.القاهرة ١٩٩٧م الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ط.القاهرة ١٩٩٩ – ٢٠٠٠م
"نور الدين محمود (١١٤٦- ١١٧٤م) ومانويل كومنين (١١٤٣ – ١١٨٠م) رؤية في التاريخ المقارن لعصر الحروب الصليبية" ضمن كتاب عصر الحروب الصليبية بحوث ومقالات ط.القاهرة ٢٠٠٦م. تاريخ الإمبراطورية البيزنطية دراسة في الأسر الحاكمة ٣٣٠ – ١٤٥٣م ط. القاهرة ٢٠٠٧م.
محمود الرويضي (د.)، إمارة الرها الصليبية، ط. عمان ٢٠٠٢م.
محمود سعيد عمران (د.)، السياسة الشرقية للإمبراطورية، البيزنطية في عهد مانويل كومنين، ط. الإسكندرية ١٩٨٥م.
موريس كين، حضارة أوروبا العصور الوسطى، ت. قاسم عبده قاسم، ط. القاهرة ٢٠٠٠م.
هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ط.ت. أحمد رضا، ط. القاهرة ١٩٨٥م.
هنادي السيد محمود، مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الأول ١١٠٠- ١١١٨م ، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب- جامعة عين شمس عام ٢٠٠٦م.

رابعاً:المراجع الأجنبية:

- Chapman (C.), Michael paleologue restaurateur de L'empire byzantine ١٢٦١ – ١٢٨٢,Paris ١٩٢٦.
- Ebeid (E.),"Was pope Innocent III an accomplice in the diversion of the Fourth Crusade ١٢٠٤", E.H.R,Vol. xv,Cairo ١٩٦٩.

- Edbury (P.), the kingdom of Cyprus and the Crusades ١١٩١ – ١٣٧٤,Cambridge ١٩٨١.
- Edbury (P.) and Rowe (J.W.),William of Tyre and the Latin East,Cambridge ١٩٨٨.
- Fink (H.),"Maudud of Mosul precursor of Saladin", M.W.,vol. XLIII,١٩٩٣.
- Geanakoplos, Emperor Michael paleologus and The West ١٢٥٨ – ١٢٨٢, Cambridge ١٩٩٩.
- Krey (A.S.),"William of Tyre the making of histories in the Middle Ages", S.,vol. XVI,١٩٤١.
- Lane – Poole (S.), Saladin and the Fall of the Latin kingdom,London ١٨٩٨.
- Magdalino (P.), The Empire of Manuel I komnenos ١١٤٣ – ١١٨٠, Cambridge ١٩٩٧.
- Munro (D.), "The Speech of pope Urbanus II at Clermont", A.H.R., vol.II,١٩٠٥.
- Munz (P.), Frederick Barbarossa, Astudy in Medieval politics,London ١٩٦٩.
- Schlumberger (G.), Renauld de Chatillon prince d'Antioch,paris ١٩٢٣.

النتائج التى ترتبت على الغزو والمغولى

فى عالم الإسلام

د. عصام الدين الفقى

أستاذ التاريخ الاسلامى

غزوات المغول للعالم الإسلامي :

جاورت الدولة الخوارزمية دولة المغول – ولم يكن هناك بد من حدوث احتكاك بين الدولتين، وكان العالم الإسلامي في ذلك الوقت قد مزقته الانقسامات، ولم تعد فيه دولة قوية إلا الدولة الخوارزمية، وكان الخليفة العباسي الناصر يخشى بأس هذه الدولة، لأن خوارزمشاه كان يطمع في بغداد فسعى إلى تدبير المؤامرات والدسائس للنيل منه، بل تقاعس عن نصرته، ولكن لا يمكن قبول ما أشيع في ذلك العصر من أن الخليفة العباسي الناصر لدين الله حرض المغول على غزو أعدائه الخوارزميين، وكان من الطبيعي أن تكثر الشائعات في هذه الأيام المضطربة، وكان السلطان علاء الدين يتهم الخليفة العباسي بأنه يحرض عليه المغول دون أن يمتلك دليلا على اتهامه، والخليفة العباسي يعلم يقينا أن غزو الدولة الخوارزمية يؤدي بالضرورة إلى تهديد الدولة العباسية المتداعية، ذلك أنها تقف سدا منيعا يحول بين المغول وبين العراق.

نشأ المغول في صحراء جوبي القاحلة، وهم شعب يشبه الترك في اللغة والمظهر العام، عاش هؤلاء القوم في بلادهم في شظف من العيش، يعملون بالصيد والرعي في حياة كلها ترحال وتجوال، وكثر بينهم النزاع والشقاق، وتكررت

إغارتهم على المناطق الخصبة المجاورة، لذا شيد الصينيون سور الصين العظيم درءا لشرهم وحماية لبلادهم من شرهم المستطير.

ظلت هذه القبائل في منازعاتها وتمزقها حتى ظهر منهم شاب في ريعان شبابه الغض هو تيموجين، واستطاع أن يوحد هذه القبائل تحت لوائه، وهذا الشاب نشأ يتيما، وكان أبوه زعيما لإحدى قبائل المغول، ولما توفى انفض أفراد القبيلة من حول تيموجين واستصغروا شأنه واستضعفوه، وعاش هذا الفتى مع أسرته عيشة بؤس وحرمان وشقاء، وكان عليه أن يتلمس سبل العيش، وقاسى الكثير من النكبات، وهذه المحن أصقلته وأخرجت منه رجلا صلبا شجاعا.

ولما بلغ تيموجين مبلغ الرجال، التف أفراد قبيلته حوله لما أظهره من قوة البأس ومضاء العزيمة، ولم يكتف بذلك بل ظل يناضل حتى تمكن من السيطرة على المغول. وقضى على كل الحركات التي تهدف إلى عرقلة جهوده، ولم يأت عام ٦٠٢هـ سنة ١٢٠٦م حتى كان قد أخضع لسلطانه كل بدو صحراء جوبي، واتخذ من حصن قراقورم مقرا له ووضع نظاما للقبائل الخاضعة له يسمى الياسا وهو دستور اجتماعي وحربي صارم أساسه الطاعة العمياء للسلطان، وأخبر تيموجين الرؤساء بأن السماء أضفت عليه اسما جديدا هو جنكيز خان، أي إمبراطور البشر أو أعظم حكام الأرض.

تطلع جنكيز خان – بعد أن وحد القبائل المغولية تحت سيطرته – إلى توسيع رقعة دولته، وكان المجال الحيوي له بلاد الصين التي تقع جنوب مملكته – حيث الخصب والرخاء والازدهار – فشن عدة حملات على إمبراطورية كين واستولى على مسطحات شاسعة من بلاد الصين، وسيطر على بكين سنة ٦١٢ هـ سنة ١٢١٥م.

أصبحت إمبراطورية المغول القوية تجاور الدولة الخوارزمية العظيمة، دولة

الإسلام القوية البأس، ولم يكن هناك بد من حدوث احتكاك بين الدولتين العظيمتين، ولابد أن تنقض أحداهما على الأخرى، ووجد السبب لاشتعال الحرب، فقد وفد جماعة من التجار من رعايا جنكيز خان إلى أترار في الدولة الخوارزمية، فارتاب فيهم ينال خان حاكم أترار- وأرسل إلى السلطان محمد خوارزمشاه يخبره، فأمره بالقبض عليهم وإعدامهم على اعتبار أنهم جواسيس بعث بهم جنكيز خان، وظاهر أمرهم التجارة، وهؤلاء التجار كان مركزهم خجنده، وتسير منها قوافلهم إلى منغوليا تحمل إلى خان المغول الهدايا من نسيج الكتان والديباج، وكأن يشجعهم على ممارسة نشاطهم التجاري.

ساءت العلاقات بين الدولتين عقب قتل التجار، وشعر السلطان خوارزمشاه بمغبة قتل التجار، فأرسل إلى دولة المغول جواسيس لاستطلاع قوتهم ومعرفة نواياهم، فعادوا إليه، وأخبروه بكثرة عددهم. وأنهم من أصبر خلق الله على القتال لا يعرفون هزيمة، وأنهم يعملون ما يحتاجون إليه من سلاح بأيديهم. وعلى الرغم من ذلك فقد تشدد علاء الدين محمد مع جنكيز خان ولم يقبل شروطه في تجنب الحرب، فقد أرسل جنكيز خان إلى خوارزمشاه رسلا يطلب منه تسليم حاكم أترار، وجاء في رسالة خاقان المغول: فإن كنت تزعم أن الذي ارتكبه ينال خان – حاكم أترار – كان من غير أمر صدر منك فسلم ينال خان إلى لأجازيه على ما فعل، حقنا للدماء. لكن السلطان الخوارزمي اعتقد أنه لو لاطف جنكيز خان في الجواب لم يزده ذلك إلا طمعا فيه فتماسك وتجلد بل أمر بقتل الرسل سنة ٦١٥ هـ- ١٢١٨م ويقول الجويني: "إن دمهم أهرق، ولكن كل قطرة منه قد كفر عنها بسيل جارف من الدماء، وأن رءوسهم قد سقطت، ولكن كل شعرة منها قد كلفت مئات الألوف من الناس حياتهم" ويقول النسوي: "فيالها من قتلة هدرت دماء الإسلام، وأجرت بكل نقطة سيلا من الدم الحرام، فاستوفى عن الغيظ فيضا، وأحل بكل

شخص أرضا".

ونستطيع أن نقول أن الدولة الخوارزمية كانت ستتعرض لغزو المغول سواء حدثت مذبحة أترار أو لم تحدث، ذلك أن دولة المغول قامت على أساس التوسع والغزو وضم الأراضي إليها بالقوة، ونعرف من تاريخ المغول أنهم استمروا في ضم البلاد واحتلالها طمعا في ثرواتها وخيراتها، ولكن مذبحة أترار كانت بمثابة الشرارة التي فجرت الموقف بين الدولتين وعجلت بغزو المغول للدولة الخوارزمية.

اتسمت غارات المغول على الدولة الخوارزمية بالوحشية والهمجية، وتدمير المدن والقرى، وهذا يتضح من كتابات المعاصرين، ويقول ابن الأثير: "لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها، كارها لذكرها... وهؤلاء لم يبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة..." وكان مظهر المغول يدعو إلى الفزع والجزع، ويلقي الرعب في النفوس، كانوا قساة مع أعدائهم، لم يبقوا على أحد من قاهريهم، وأشاعوا الخراب والدمار في كل بلد ملكوه، حتى تحولت المدن العامرة، والقرى والمزارع الخصبة إلى صحاري قاحلة، وكانوا يستذلون أسراهم، بحيث يجعلونهم في طليعة الجيوش التي يحاربون بها، وإذا بدأت المعركة يقذفون بهم في المقدمة، ويتخذونهم درعا لهم، وقد يقذفونهم في الفجوات التي يحدثونها في أسوار المدينة ليملأوا الخنادق بأجسامهم، وإذا سلم أحد منهم، يتخلصون منه بالقتل، حتى يفسحوا المجال للأسرى الجدد. على كل حال اكتسح هذا الزلزال المدمر، وتلك القرى الجامحة العالم الإسلامي وأتوا على الأخضر واليابس، وأهلكوا الحرث والنسل.

أعد جنكيز خان جيوشه لمهاجمة الدولة الخوارزمية، وقسم جنده إلى أربعة جيوش، الأول بقيادة أبنيه جغتاي وأوكتاي، ومهمته فتح مدينة أترار، والجيش الثاني أسند قيادته إلى ابنه جوجي، ووجهته البلاد الواقعة على ساحل نهر جيحون،

والثالث مهمته فتح مدينتي بناكت وخجند على نهر سيحون، أما الجيش الرابع فيتكون من أغلب قوات المغول، ويقوده جنكيز خان ومعه ابنه تولوي، ووجهته إقليم ما وراء النهر.

سارع المغول إلى مدينة أترار، وشددوا هجماتهم عليها، وقد اعتصم ينال خان- حاكمها- بقلعتها، ودافع بكل بسالة، بل أنهك المغول وأجهدهم شهرا كاملا بضرباته القوية لهم، حتى فقد معظم رجاله، وفقد المؤن والأقوات، وشدد المغول حصارهم للقلعة، فألقى بنفسه إلى سقف أحد المنازل، وظل يقاتل المغول بكل ما أوتي من قوة حتى قبض عليه المغول، وسيق إلى جنكيز خان – وكان أمام سمرقند – فأمر بصهر الفضة وصبها في أذنيه وعينيه، فقتل تعذيبا، وبذلك انتقم جنكيز خان من قاتل التجار، وسقطت مدينة أترار – مفتاح بلاد ما وراء النهر – سنة ٦١٦ هـ – ١٢١٩م، بعد أن قتل المغول سكانها ودمروها تدميرا.

سار الجيش الثاني بقيادة جوجي إلى مدينة جند – على نهر سيحون – بعد أن استولى في طريقه على المدن والحصون على ساحل سيحون. ولما بلغ المغول جند، رأى قائدها أن لا قبل له بالمغول، فغادر البلدة تاركا أهلها يدافعون عن المدينة، وشدد المغول هجماتهم، ورموها بالمنجنيقات حتى افتحموها، وبذلك سقطت جند في أيدي المغول.

اتجه الجيش الثالث على منطقة فرغانة والوادي الأعلى من نهر سيحون، وحاصر هذا الجيش بناكت، ولم يجد المغول مقاومة من سكان هذه المدينة فاستولوا عليها بسهولة ويسر، وعلى الرغم من إعطائهم الأمان لأهلها، إلا أنهم قتلوا منهم الكثيرين، ولم يبقوا إلا على من التمسوا فيهم المقدرة على خدمتهم. ثم سار المغول إلى خجند – وهي مدينة جميلة اشتهرت بحدائقها الغناء وانتعاش التجارة فيها، وشجاعة أهلها وقوة بأسهم – وقد قاوم حاكمها الشجاع تيمور ملك المغول بكل

بسالة، حتى ضعفت قوته، فامتطى جواده وذهب إلى خوارزم حيث كان يرابط السلطان خوارزمشاه. ودخلت خجند في حوزة المغول.

سارت جيوش المغول بقيادة جنكيز خان إلى بخاري ودارت الحرب بين جند المغول والجند الخوارزمي ثلاثة أيام هزم فيها الخوارزميون، وفر الجند الخوارزمي، فضعفت أهلها ووهنت عزيمتهم، واعتصم بعضهم في القلعة، وشدد المغول هجماتهم عليها ثلاثة أيام، وقاتل من فيها حتى قتلوا جميعا، وتسلم جنكيز خان القلعة، وأمر أعيان المدينة وتجارها بالاجتماع معه، وجردهم جميعا من أموالهم، وطردهم من المدينة، وقتلوا كل من صادفوه في بخاري من أهلها بعد ذلك، ونهبوا البلدة، وكان يوما عظيما من كثرة البكاء من النساء والرجال والولدان، وتفرقوا أيدي سبا ومزقوا شر ممزق، وأحرقت المساجد والمدارس، وبعد أن استولى المغول على بخاري، ساروا إلى سمرقند، وأمامهم الأسرى مشاة على اقبح صورة، وكل من عجز عن المشي قتل، وحاصروا سمرقند، وبها الكثير من الجند الخوارزمي، وأعد أهل سمرقند العدة لمقاومة المغول، ودار قتال شديد بين الفريقين، وهلك فيه أكثر الجند الخوارزمي، الأمر الذي أضعف مقاومة أهل سمرقند، وطلبوا الأمان، وأجابهم المغول إلى طلبهم، وفتحوا أبواب البلدة وطلبوا من أهل البلدة تسليم اسلحتهم وأمتعتهم ودوابهم، ففعلوا تجنبا للقتل، ولكن المغول كعادتهم وحبهم لسفك الدماء، أعملوا السيف في رقاب الأهلين، حتى أفنوهم عن أخرهم، ودخلوا البلد، ونهبوا ما فيه، وأحرقوا الجامع، وبذلك دخلت سمرقند في حوزة المغول سنة ٦١٧ هـ سنة ١٢٢٠م.

وبعد أن امتلك المغول بخاري وسمرقند، أعد جنكيز خان جيشا يتألف من عشرين ألف مقاتل، وأمر قائده بالتوجه إلى خوارزمشاه والبحث عن أينما وجد "ولو تعلق بالسماء حتى تدركوه وتأخذوه"، فسارت جيوش المغول تتعقب خوارزمشاه

الذي أخذ يضرب في الأرض، وينتقل من بلد إلى بلد وجند المغول تطارده، وانتهى به المطاف إلى الاستنداد – وهي من أمنع النواحي في إقليم مازنـدران – وباغتـه المغول، فلجأ إلى إحدى جزر بحر قزوين، وقد انتابه اليأس من الحيـاة، ومـرض وكان يقول: "لم يبق لنا مما ملكناه من أقاليم الأرض قدر ذراعين تحفر فنقبر، فمـا الدنيا لساكنها بدار، ولا ركونه إليها سوى انخداع واغترار"، وأقام بـالجزيرة فـي عزلة تامة يعاني المرضن وكان أهل مازندران يقدمون إليه كل ما يـشتهي، وقبـل وفاته سنة ٦١٧هـ – ١٢٢٠م أوصى بالسلطنة من بعده لأبنه جلال الدين، وولـي جلال الدين منكبرتي السلطة بعد أن سيطر المغول على بـلاد مـا وراء النهـر – ومعظم أجزاء دولته المتداعية، وامتلكوا إقليم مازندران برغم حصانته ومناعته، ثم اتجهوا إلى الري، وفي الطريق التقوا بالملكة تركان خاتون – والدة السلطان عـلاء الدين – وقد غادرت خوارزم على أثر تهديد المغـول، ولـم تـر فيـه دار قـرار واستصحبت ما أمكنها استصحابه من حرم السلطان وصغار أولاده ونفائس خزانته، وقبض المغول عليها، واستولوا على ما معها من ثروات هائلة. وهكذا قضت هـذه الملكة أيامها الأخيرة في أسر المغول، والجدير بالذكر أن تركان خـاتون كانـت ذا مهابة ورأي، تنظر في المظالم، وتحكم فيها بالعدل، وتنصف المظلوم من الظـالم، ولها إصلاحات كثيرة، وكان لها من كتاب الإنشاء سبعة من مشاهير الكتاب.

باغت المغول الري على حين غفلة من أهلها، وملكوها ونهبوها، واسـترقوا نساءها، وقتلوا أطفالها، ثم غادروها في طلب خوارزمشاه، وعاثوا في البلاد التـي مروا بها نهبا وفسادا، واقتربوا من همذان، فقدم أهلها للمغول الأموال والهدايا حتى يكفوا عن قتلهم، وسيطر المغول على هذه البلدة، ثم زحفوا إلى قزوين، وامتلكوهـا عنوة وقهرا، وبذلك سيطر المغول على بلاد العراق العجمي.

أثار المغول الرعب في بلدان الدولة الخوارزمية حتى أن اقترابهم من مدينـة

أو قرية، يثير الفزع في النفوس، فيهجرون بلداتهم، أو يقــدمون فــروض الــولاء والطاعة لأعدائهم. وبذلك استسلمت البلاد الإسلامية للمغول في سهولة ويــسر، إلا إن استسلام الأهلين لم ينجهم من بطش المغول وويلاتهم، وظل المغول يواصــلون تقدمهم حتى بلغوا تبريز – عاصمة أذربيجان– ويحكمها أوزبك بن البهلوان وهــو شيخ بلغ من العمر أرذلة، يقضي وقته في الشراب، ولا يكاد يفيق، ولمــا اقتــرب المغول من بلاده، أرسل إليهم المال والهدايا والثياب والدواب، وصالحهم، ثم اتجهوا إلى ساحل البحر حيث المراعي الكثيرة اللازمة لدوابهم، وواصلوا ســيرهم حتــى بلغوا موقان، ودخلوا في معارك حامية مع أهالي بلاد الكرج، وهزموهم، وامتلكــوا مراغة سنة ٦١٧ هـــ وبذلك سيطروا على أذربيجان وبلاد الكرج.

شرع جنكيز خان بعد أن امتلك بلاد ما وراء النهر وبلاد العــراق العجمــي وأذربيجان إلى السيطرة على خراسان وخوارزم حتى تتم له السيطرة الكاملة علــى بلاد الدولة الخوارزمية قاطبة، فأعد جيشين، الأول عبر جيحون وقصد مدينة بلــخ، وطلب أهلها الأمان فأمنهم المغول سنة ٦١٧ هـــ ، ولم يتعرض المغول لهم بالقتــل والنهب وأدخلوا البلدة في حوزتهم، وواصلوا تقدمهم في بلاد خراسان، فسقطت في أيديهم، البلدة تلو الأخرى، ثم حاصروا مرو، وشددوا عليها الحصار حتى استسلمت ثم مضوا في قتل أهلها، ونهبوا البلدة، وضموا إليهم أرباب الحرف والصناعات من سكان مرو، ويقال أنهم أجهزوا على أهل البلدة جميعهم حتــى بلــغ عــدد القتلــى سبعمائة قتيل، ثم ساروا إلى نيسابور، فامتلكوها بعــد حــصار دام خمــسة أيــام، وارتكبوا مع أهلها من الفظائع ما ارتكبوه مع غيرهم، أقاموا في البلدة خمسة عــشر يوما ينهبون ويدمرون، وواصلوا مسيرتهم، حتى بلغوا طوس، وامتلكوها ثم ســاروا إلى هراة، وبسطوا سيطرتهم عليها، ومنها اتجهوا إلى غزنة فالتقوا بالسلطان جلال الدين منكبرتي، ودارت معركة انتصر فيها خوارزمشاه على أعدائه.

أما الجيش المغولي الذي اتجه إلى خوارزم، فقد لقي مقاومة باسلة من أهلها، ودارت بين الفريقين معارك ضارية، وصمد أهل خوارزم للقتال الـذي دام خمسة أشهر، وقتل من الفريقين خلق كثير، وبلغ الأمر بالمغول أن أرسلوا إلى جنكيز خان يطلبون منه النجدة وأمدهم بجيش كبير وتمكنوا من الاستيلاء على خوارزم بعد لأى وعناء، وبعد أن امتلك المغول خوارزم بعد هذا الجهد الشاق والتضحيات الكثيـرة، قتلوا كل من فيه، ونهبوا كل ما فيه، ولم يكتفوا بذلك بل فتحوا ماء جيحـون علـى خوارزم، فغرقت البلد، وتهدمت الأبنية، ولم يسلم من البلد أحد، "فمن اختفـى مـن النار أغرقه الماء، ومن سلم من الماء قتله الهدم، فأصبح البلد خرابا يبابا كـأن لـم يغن بالأمس".

ولى السلطان جلال الدين منكبرتي– كما رأينا– في وقت حرج، إذا اسـتولى المغول على معظم المملكة، ونهبت خزائنها، ومزق جيشها، وكـان جـلال الـدين شجاعا مقداما، اعتزم استرداد ملكه السليب، ورد الغزاة عن بلاده، واستطاع جمـع شمل جنده المبعثرين في البلدان الخوارزمية. وأقام في غزنه بعد أن استردها مـن المغول، ونظم جيشا قوامه ستون ألف مقاتل، وقد أزعج ذلك جنكيـز خـان، ورأى التخلص من خصمه، فأرسل جيشا إلى غزنه التقى بالجيش الخوارزمي في معركـة حامية الوطيس، أنزل الله فيها نصره على المسلمين، وانهزم المغول شـر هزيمـة، وقتل المسلمون منهم كثيرين، وكان لهذا النصر أهمية كبيرة في الـبلاد الإسـلامية التي مزقتها هزائم المغول المتكررة، وعاش أهلها في يأس وقنوط وتمزق، فارتفعت الروح المعنوية عند المسلمين وتيقظوا وثاروا على المغول، وقتل أهل هراة والـيهم المغولي.

سار جلال الدين على سياسته الرامية إلى طرد المغول من بلاده، وأرسل إلى جنكيز خان يتوعده ويهدده ويقول "في أي موضع تريد يكون الحرب حتى تأتى إليه"

فلم يتغاض جنكيز خان عن هذا التهديد، وشن الحرب من جديد على جـلال الـدين الذي أصبح يشكل خطرا على مملكتـه المتراميـة الأطـراف، ولكـن الـسلطان الخوارزميون انتصر مرة أخرى على جيش جنكيز خان، وقتل الكثير من المغـول، وغنم الخوارزميون ما معهم، واسـترد المـسلمون أسـراهم مـن العـدو، لكـن الخوارزميين انشغلوا بجمع الغنائم، وكانت تفوق كل وصف، وتنازع جند الـسلطان حول الغنائم نزاعا أدى إلى انقسام خطير في الجيش عجز السلطان عـن تداركـه، وفارق فريق من الجيش الخوارزمي المعركة بقيادة بغراق إلى بلاد الهند، وحـاول جلال الدين عبثا أن يثني هذا الرجل عن عزمه، وأوضح له خطورة عمله هذا على الإسلام والمسلمين، وألح عليه في ترك الخلاف والشقاق، بل بكى بين يديه، لـذلك ضعف أمر جلال الدين بمفارقة معظم جيشه له، ونهض إليـه عـدو الله بجيوشـه ودارت المعركة بين الجمعين على حافة نهر السند، وكادت أن تدور الدائرة علـى المغول، لولا أن نصب جنكيز خان كمينا أدى إلى قتل كثيـر مـن الخـوارزميين، وحلت الهزيمة بالمسلمين، وكان الرجل منهم يأتي النهر فيهوى بنفسه فـي تيـاره، وهو يعلم أنه لابد غريق "وإن ليس له إلى الخلاص طريق" وأسر ولد جلال الـدين، وكان غرا في الثامنة من عمره، وقتل بين يدي غريمه جنكيز خان، ولما عاد جلال الدين إلى حافة السند كسيرا، رأى والدته وأم ولده وجماعة من حرمه يصحن بأعلى أصواتهن "بالله عليك اقتلنا وخلصنا من الأسر" فأمر بهن فغرقن "وهذه من عجائـب البلايا ونوادر المصائب".

وخلف أجتاي جنكيز خان، وعول على استرداد البلاد التي آلت إلـى جـلال الدين، وسير جيشا كبيرا إلى الري فانتزعها، واستولى على همـذان سـنة ٦٣٨ – ١٢٣١ وطارد المغول السلطان جلال الدين، وتعقبوه فـي موقـان وتبريـز وفـي أذربيجان، واتجه إلى آمد فهزمه المغول هناك، وشردوا رجاله، وقتل المغول كـل

من تتبعه في فراره، وظل السلطان ينتقل من بلد إلى بلد، والمغول تلاحقه أينما سار واتجه، حتى وصل إلى جبال كردستان، وقد شك فيه بعض الأكراد، وأخذوه وسلبوه بسائر من ظفروا به، فحين هموا بقتله قال لكبيرهم سرا، إني أنا السلطان فلا تستعجل في أمري، ولك الخيار في إحضاري عند الملك المظفر شهاب الدين، فيغنيك، أو إيصالي إلى بعض بلادي فتصير ملكا، فرغب الرجل في إيصاله إلى بلاده وتركه عند امرأته، ومضى بنفسه إلى الجبل لإحضار خيله، ولكن هاجم المنزل رجل من الأكراد، وقتله بعد أن تعرف عليه، ثأرا لمقتل أخ له على يديه سنة ٦٢٨ هـ - ١٢٣١م.

وهكذا كان مصير هذا السلطان الشجاع، وبوفاته. زالت الدولة الخوارزمية.

سقوط الخلافة العباسية :

تتابعت انتصارات المغول وفتوحاتهم، واستولوا على أذربيجان وبلاد أران وغالبية مدن جورجيا وأرمينية الكبرى، وزحفوا إلى شمال العراق، وهددوا أقاليمه الشمالية واشتبكوا عدة مرات مع جيوش الخلافة العباسية لاختبار قوتها.

أخذت الدولة العباسية في الضعف والتدهور في عهد المستعصم أخر الخلفاء العباسيين سنة ٦٤٠ - ٦٥٦ هـ وكان رجلا لين الجانب ضعيف الوطأة لين العريكة قليل الخبرة، وكانت الأخبار تصل الخليفة تباعا بزحف جيوش المغول، ومع ذلك لم يتخذ الأهبة لمواجهتهم قبل أن يستفحل خطرهم ويستطير شرهم.

جاء المغول في عهد المستعصم إلى العراق عدة مرات حيث حدثت مناوشات بينهم وبين جيوش الخليفة لكنهم لم يوفقوا في الاستيلاء على بغداد حتى سنة ٦٥٦هـ وعندما اعتزم هولاكو مهاجمة الإسماعيلية أرسل إلى الخليفة يطلب إليه أن يمده بجيش ليعاونه في القضاء على تلك الطائفة فلما شاور الخليفة أتباعه حذروه أن يقدم على هذا العمل وأدخلوا في روعه أن هولاكو يريد بهذه الوسيلة أن

تخلو بغداد من الجيش حتى يتيسر له الاستيلاء عليها.

ولما فرغ هولاكو من محاربة الإسماعيلية ودحرهم قصد همذان في شـــهر رمضان سنة ٦٥٥ هـــ أرسل رسولا يحمل رسالة إلى الخليفة مصاغة فـــي قالـــب التهديد والوعيد لامتناعه عن إرسال المدد، ولم يكن هذا الاحتجاج فـــي الواقـــع إلا ذريعة للمطالبة بالسلطة الزمنية التي سبق أن منحت في بغداد للأمراء البويهيين ثـــم السلاجقة. يقول هولاكو في هذه الرسالة: لابد أنه قد وصل إلى شخصك على لسان الخاص والعام ما حدث للعالم على أيدي المغول منذ جنكيز خان، وعلمت أية مذلـــة لحقت بأمر الخوارزميين والسلاجقة وملوك الديلم والأتابكة وغيرهم ممـــن كـــانوا أرباب العظمة وأصحاب الشوكة ومع ذلك لم يغلق باب بغداد قط في وجه أي طائفة من تلك الطوائف التي تولت السيادة، وأعلم أنني إذا غضبت عليك وقدت الجيـــوش إلى بغداد فسوف لا تنجو مني ولو صعدت إلى الـــسماء أو اختفيـــت فـــي بـــاطن الأرض. رفض الخليفة إنذار المغول وأرسل هولاكو يتوعده إن هو حـــاول غـــزو بلاده على الرغم من أنه كان لا يملك القوة اللازمـــة لمواجهـــة هولاكـــو، وكـــان المسلمون في حالة شديدة من الضعف والانقسام، لذلك كان طبيعيـــا عـــدم جـــدوى تهديدات الخليفة، بل كان لها على العكس أسوأ الأثر في نفس هولاكو فاعتزم قبـــل كل شيء فتح بغداد.

وصل رسل الخليفة إلى هولاكو، فلما اطلع على رسالة الخليفة وعلـــم بمـــا لحق رسله من أذى العامة في بغداد غضب غضبا شديدا وأعاد رســـل المستعـــصم وحملهم رسالة أخرى تضمنها إنذار نهائيا له صيغ في لهجة شديدة عنيفة جاء فيها: لقد فتنك حب المال والعجب والغرور بالدولة الفانية بحيث لم يعد يؤثر فيك نـــصح الناصحين.. فإني متوجه إلى بغداد بجيش كالنمل والجراد.

رأى وزير الخليفة مؤيد الدين العلقمي بذل الأموال والتحف والهدايا وإرسالها

على هولاكو مع تقديم الاعتذار له، وكان يرى ذكر اسم هولاكو في الخطبة ونقشه على السكة حتى يبعد هولاكو عن غزو بغداد، ولكن الخليفة رفض العمل بمشورة الوزير وأصر على إعداد العدة للدفاع عن بغداد.

وقبل أن يقدم هولاكو على غزو بغداد استشار المنجمين فيما يتعلق بأحكام النجوم وطوالع السعد والنحس، وقد أشار عليه فلكي مسلم يعطف على الخليفة بعدم غزو بغداد فقال له: الحقيقة أن كل ملك تجاسر حتى هذه اللحظة على قصد الخلافة والزحف إلى بغداد لم يبق له عرش ولا جاه، وإذا أبى الملك أن يستمع لنصائحي وتمسك بمشروعه فسوف تحدث هذه الحملة خللا في نظام الكون، فضلا عن أنها ستكون وبالا على الخان نفسه إذ سيهلك، ويهلك الزرع والحيوان، ولن تطلع الشمس ولن ينزل المطر. لكن منجمين آخرين أكدوا لهولاكو نجاح مشروعه، ومهما يكن من أمر فقد أمر هولاكو بتحريك معسكره خارج بغداد من الشرق، ولم يستطع جيش الخليفة منع المغول من الإقامة في الجهة الشرقية، وفي أوائل سنة ٦٥٦ هـ حاصر المغول بغداد وأحكموا حصارها وأطلقوا يد التخريب في المدينة وفتحوا أقساما منها، ولما رأى الخليفة حرج موقفه أراد أن يثني المغول عن عزمهم على إتمام الفتح فأرسل إليهم الهدايا القيمة ولكن هولاكو لم يستجيب لمحاولة الخليفة.

هزم هولاكو جيشا أنفذه الخليفة لمحاربته وأباده عن أخره، عندئذ خرج الوزير العلقمي إلى هولاكو وتوثق منه لنفسه وعاد إلى المستعصم وأخبره أن هولاكو يبقيه في الخلافة، وحسن له الخروج إلى هولاكو فخرج من بغداد ومعه أبناؤه فلما وصلوا إلى هولاكو أحسن استقبالهم وطلب إلى الخليفة أن ينادي في الناس بإلقاء أسلحتهم والخروج من المدينة لإخضاعهم، فلما ألقى الناس أسلحتهم وخرجوا قتلوا جميعا. أما الخليفة وأولاده وكل ما يتعلق بهم فقد وضعهم هولاكو في

معتقل.

بعد ذلك أمر هولاكو بردم الخنادق وهدم أسوار المدينة كما شيد جسرا علـــى نهر دجلة، ثم أعلن الهجوم العام على المدينة في صفر من السنة نفسها ٦٥٦ هـــ فدخلها المغول ودمروها وخربوا المساجد ودمروا القصور بعد أن سلبوا ما بها من تحف نادرة وأباحوا القتل والنهب وسفك الدماء أربعين يوما، واندلعت فيهــا ألـــسنة النيران في كل جانب من المدينة وأتت على الأخضر واليابس ودمرت أكثر المدينة وجامع الخليفة، وعندما دخل هولاكو مدينة بغداد قصد قصر الخليفة واستولى علـــى ما فيه من نفائس وتحف نادرة، وأخيرا بعد أن سفك هولاكو من الدماء مـــا ســـفك وخرب ما خرب أصدر أمرا بالكف عن القتل، وأن ينصرف كل إلى عمله، ويقـــول المؤرخون أنه لما نودي ببغداد بالأمان خرج من تحت الأرض من كان بالمطـــامير والقنى والمقابر كأنهم موتى إذا بعثوا من قبورهم، وقد أنكر بعـــضهم بعـــضا فـــلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه فأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن ســـبقهم من القتلى وقتل هولاكو الخليفة البائس.

المغول بعد سقوط بغداد:

وبسقوط بغداد في أيدي المغول سنة ٦٥٦ هـــ – ١٢٥٨ م زالـــت الدولـــة العباسية بعد حكم استمر أكثر من خمسة قرون.

دخل بدر الدين لؤلؤ – أتابك الموصل – في طاعة المغـــول، بـــل صـــحب هولاكو في فتح بغداد، فأنفذ جيشا إلى هذه المدينة سنة ٦٥٦ هـ – ١٢٥٨ م بقيادة أبنه الملك الصالح، انضم إلى قوات المغول، ولما سقطت بغداد في أيدي المغـــول، سارع بعض حكام البلاد الإسلامية إلى هولاكو، يقدمون له فروض الولاء والطاعة والتهنئة، وفي مقدمتهم بدر الدين لؤلؤ – أتابك الموصل– الـــذي شـــمله هولاكـــو بالإعزاز والتكريم وأعاده إلى بلاده محملا بالهدايا.

كما وقف بدر الدين لؤلؤ إلى جانب المغول في فتح ميافارقين سنة ٦٥٧ هـ.

واصل المغول سياستهم التوسعية، فزحف بعض قواتهم على الجزيرة في طريقها إلى الشام، واستطاع هولاكو أن يستولي على آمد ونصيبين وحران والرها وسروج والبيرة، وحرص على الاستعانة ببعض أمراء المسلمين في غزوه بلاد الشام، فأرسل إلى بدر الدين لؤلؤ – صاحب الموصل – يقول: "إن سنك قد جاوز التسعين، ولذلك أعفيناك من السير معنا، ولكن عليك أن تبعث بأبنك الملك الصالح مع الرايات الغازية، لفتح ديار الشام ومصر". فلم يتردد بدر الدين في إنفاذ جيش إلى هولاكو بقيادة ابنه.

لما توفى بدر الدين لؤلؤ سنة ٦٥٧ هـ قسم هولاكو إمارته بين أبنائه الثلاثة، فولى الملك الصالح حكم الموصل، على حين فوض حكم سنجار لعلاء الدين، وجزيرة ابن عمر للمجاهد إسحاق، غير أن أبناء بدر الدين لؤلؤ ما لبثوا أن خرجوا على المغول، وغادروا بلادهم، ولجأوا إلى سلطان المماليك في مصر، فأرسل هولاكو جيشا استولى على بلادهم سنة ٦٦٠ هـ – ١٢٦١م.

كذلك أظهر تاج الدين بن صلابة – حاكم أربل – ولاءه للمغول، ففي أثناء حصار هولاكو بغداد قصد القائد المغولي أرقيونوبان – مدينة أربل، وطلب من حاكمها تمكينه من الاستيلاء على القلعة، فحاول تاج الدين إقناع حاميتها بالتسليم، ولما استعصت أربل على المغول، استنجدوا ببدر الدين لؤلؤ – صاحب الموصل – فأمدهم بفريق من الجند، غير أنه لم يكن لهذه الإمدادات أي تأثير في سقوط القلعة في أيدي المغول، فاستدعى القائد المغولي بدر الدين لؤلؤ، فسار إلى أربل، وحاصر قلعتها، وهدم اسوارها وسلمها للمغول.

تطلع المغول إلى الزحف على مصر ليتموا بذلك السيطرة على بلاد الشرق الإسلامي، وليقضوا على أخر قوة إسلامية في الشرق في استطاعتها التصدي لهم.

يركنون إلى قرار.

ومما لاشك فيه أن موقعة عين جالوت من الوقائع الحاسمة في التاريخ، لأنها أضعفتهم، وأوقفت تقدمهم في بلاد الإسلام.

ترتب على موقعة عين جالوت نتائج بالغة الأهمية، فلو انتصر المغول في تلك الموقعة لفعلوا بمصر وأهلها مثلما فعلوا بالعراق والشام، ولقاس العالم الإسلامي من ويلات المغول الشيء الكثير ولتغير مجرى التاريخ في المنطقة كلها. ولكن هزيمة المغول في واقعة عين جالوت لم تنقذ مصر فحسب من وحشية المغول وهمجيتهم، بل أنقذت الشام أيضا، لأن المغول بعد هزيمتهم في عين جالوت، لم يعد لهم مقام في بلاد الشام.

الحق المغول الهزائم المتكررة بالعرب والمسلمين ولكن المسلمين واجهوا هؤلاء المغول ولم يتغاضوا عن أعمالهم الوحشية فتصدوا لمحاربتهم وواجهوا هجماتهم بتحديات قوية وبمرور الزمن اطلع المغول على حقيقة الإسلام ودخلوا في الدين الإسلامي وتخلصوا من البوذية، وقامت دول مغولية إسلامية. وهي دول المغول القفجامه القبيلة الذهبية ودول المغول الايلخانية ثم إمبراطورية المغول في الهند. وهذه دول مغولية إسلامية لعبت دورا كبيرا في ازدهار الحضارة الإسلامية والفكر الاسلامى. وساهمت في نشر الإسلام.

١- مغول القفجامه (١٠٥٦-١٢٦٧) :

كان مغول القفجامه يسكنون حول حوض نهر الفولجا ويطلق عليهم اسم القبيلة الذهبية، نسبة إلى لون خيامهم. ومن أهم ملوكهم بركة خان، وقد نشر الإسلام في حوض الفولجا واشتغل قومه بالتجارة، وأسموهم الروس- التتر وساهموا بدور كبير في نشر الإسلام في روسيا وأقاموا مملكة في موسكو إسلامية، وبقيت لهم في روسيا الآن- تتريا- وبها العديد من المساجد والعلماء وطلاب العلم.

وهي الآن جمهورية إسلامية في نطاق روسيا الاتحادية. وحافظوا أهلها على دينهم، ولم ينقادوا إلى الشيوعية المناهضة للأديان.

والدولة المغولية الثانية هي دولة المغول بفارس والعراق.

والدول المغولية الثالثة: إمبراطورية المغول في الهند

قامت ثلاث دول مغولية إسلامية وهى:

دولة المغول الايلخانية بفارس والعراق

(٦٥٤هـ - ٧٤٤هـ / ١٢٥٦م - ١٣٤٤م)

كان هولاكو بعد انتصاراته الكبيرة في المشرق يضم إلى الشاسع العريض إيران والعراق، وكانت الدولة المغولية في إيران تضم الأراضي الممتدة بين نهر جيحون إلى المحيط الهندي، ومن السند إلى الفرات وبعض أراضي أسيا الصغرى، وقد حكم أباقا إيران بعد وفاة والده سنة ٦٦٣هـ، وكان حكام إيران يحملون لقب ايلخان للدلالة على تبعيتهم للخاقان الأعظم في الصين، وتعاقب على حكم إيران الايلخانات حتى سنة ٧٥٦هـ - ١٣٥٥م حيث زالت دولتهم.

وكانت كلمة ايلخان تطلق على خان القبيلة، وعلى خان الأياله وتدل على أن حاملها داخل في الولاء والطاعة للقانات ومدين لهم بالطاعة، وأطلق على كل حاكم مغولي في إيران ايلخان. وكان هولأكو ومن خلفه حتى غازان خان يحكمون باسم القانات من بكين، وسمي هولاكو بالخاقان الكبير، وحكمت أسرة هولاكو حكما مستقلا في إيران زهاء قرن من الزمان، وتأثر خلفاء هولاكو بالحضارة الفارسية والنظم والثقافة، وظهر ذلك جليا في أساليب حكمهم، فازدهرت الحركة الفكرية في عهدهم.

لما توفى هولاكو، انتخب الأمراء، اباقا خان، وصدر فرمان تولية من قبل قوبيلاى قاآن. وعمل اباقا خان منذ توليته على تامين حدود دولته، فحصن حدود

دولته مع دولة سلاجقة الروم وغيرها، وعهد إلى أخيه تبسين بحكم خراسان، وإلى بهاء الدين محمد بحكم العراق العجمي وأصفهان، وساس الناس بالعدل، وبرز فـــي عهده علماء أجلاء مثل: نصير الدين الطوسى، وشمس الدين الجوينى، واعتنق اباقا خان البوذية، ونعم المسيحيون في عهده بالحرية الدينية، وتزوج ابنة الإمبراطـــور البيزنطي ميخائيل ٦٥٩ هـــ-١٢٦٠م.

حرصت الدولة الإيلخانية على تحسين علاقتها مع الدول الأوربيـــة خاصـــة، وفرنسا التي ساءت علاقتها مع المماليك في مصر بسبب حملاتها الصليبية عليهم.

ولما توفى ابقا خان سنة ٦٨٠هـــ - خلفه أحمد تكودار ، وقد اعتنق الـــسلام، وعمل على تبديل الياسا الجنكيزى بالقرآن الكريم والسنة النبوية، ولقد كان لأحمـــد تكودار علاقات طيبة مع السلطان المملوكي قلاوون. ولكـــن هـــذا الخـــان واجـــه صراعات داخلية، ومنازعات من الأمراء، وخاصة الأمير ارغون، وأدت الى وقوع الحرب بينهما. وانضم كيخاتو حاكم بلاد الروم السلاجقة إلى أرغون، وانضم بعض أمراء الدولة الأقوياء إلى الأمير أرغون، وقتلوا أحمد تكودار سنة ٦٨٣ هـــ وولـــي أرغون العرش.

وفي عهد أرغون تم التخلص من شمس الدين الجويني، وأستورر أروغون، سعد الدولة بن صفي الدين، وكان يهوديا، ويمتاز بكفاءته مـــن الناحيـــة الإداريـــة، وكان يتعصب لأبناء ملته، ويفضلهم على من سواهم، وحدثته نفسه بتحويل الكعبـــة إلى معبد للأصنام، وهذا يدل على تعصبه الأعمى ضد الإسلام والمسلمين، وكـــان أرغون يتطلع إلى النيل من المسلمين بأن يقف إلى جانب الصليبيين فـــي هجـــومهم المرتقب على الشرق، ويساعدهم في محاولة استرداد بيت المقدس من المسلمين[1]، وأرسل سفارات في هذا الصدد إلى البابا وملوك أوربا، واضـــطربت الـــبلاد فـــي أواخر عهده وتصدى له الأمراء وتآمروا عليه، وتوفى سنة ٦٩٠ هـــ.

ومن أبرز خانات المغول في إيران، غازان خان (٦٩٤ – ٧٠٢ هـ) فقد اعتنق الإسلام، وأحدث بذلك تغييرا كبيرا في علاقة المغول بالشعب الإيراني، فقد تسللت البوذية مع المغول إلى إيران، وشيد كهنة البوذيين المعابد في إيران، وسعوا بأساليب مختلفة إلى نشر البوذية في إيران، وتحويل الناس على عبادة بوذا، وما أن دخل غازان في دين الله حتى عمل على إدخال قومه من المغول في الإسلام، وأسلم على يديه حوالي مائة ألف مغولي، وحول معابد بوذا والكنائس إلى مساجد يذكر فيها اسم الله، وكان يتكلم باللغة الفارسية ، وعرف عن طريقها كلمات عربية كثيرة، لذلك تمكن من دراسة الدين الإسلامي دراسة وافية، وبلغ من حماسه للدين الإسلامي أنه كان يقف من المغول موقف الواعظ ويرشدهم إلى الدين الحنيف، ويشرح لهم أسسه وخصائصه، وسمي نفسه معز الدين محمود غازان خان، وأعاد بناء أضرحة المشايخ التي هدمها المغول وكذلك المساجد، وهدم بيوت النيران الزرادشتية وتشدد في تحويل رعاياه غير المسلمين إلى الإسلام، وقطع صلته بالخاقان الأعظم في الصين، وحكم إيران مستقلا تماما، وانفرد بنقش اسمه على السكة، وبذكر اسمه في الخطبة، وعزل اليهود والمسيحيين من الوظائف العامة، وقصرها على المسلمين فقط ، الأمر الذي أوجد حالة من السخط ضده، لذلك لجأ إلى العنف في القضاء على خصومه، وقتل الكثير منهم، وقضى على أسرة صدر جهان الوزير الأديب العالم السياسي الماهر والإداري الحازم، وخلفه في منصب الوزارة، خواجة رشيد الدين فضل الله الهمداني الطبيب المؤرخ، صاحب كتاب "جامع التواريخ"[٢].

ومن الأحداث السياسية الهامة في عهد غازان، دخوله في حرب مع دولة المماليك في مصر والشام، وكان سلطان المماليك حينئذ، الناصر محمد بن قلاوون، وقد استاء غازان من المماليك لأنهم أووا الفارين منه، كما شن المماليك عدة

حملات حربية على بلاد الأرمن، وتربطه بملكها علاقة ود وصداقة، واعتقد غازان أن الخلاف بين أمراء المماليك يسر له مهمة مهاجمة الشام، والسيطرة عليها ثم الزحف منها إلى مصر.

لما اعتدى بلبان الطباخي – نائب حلب – على ماردين واستباحها لجنده اتخذ غازان من هذه الحادثة ذريعة لمهاجمة بلاد الشام، وفي سنة ٧٩٦ هـ هاجم غازان بلاد الشام بقوات مغولية تزيد عن تسعين ألف مقاتل، وخرج الناصر محمد بجيشه الكبير إلى بلاد الشام، والتقى بالجيش المغولي في الخازندار في معركة حامية الوطيس، انتهت بهزيمة المماليك وانتصار المغول، وزحف المغول إلى حمص ونهبوا ما فيها ثم واصلوا مسيرتهم إلى دمشق، فعم أهلها الفزع والهلع، ولاذ الكثير منهم بالفرار من مدينتهم ومغادرتها، وخشي كبار رجال المدينة وعلمائها من تدمير المغول لبلدهم، فخرج وفد منهم لمقابلة غازان وطلب الأمان منه، وعلى رأسهم قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة، وشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية وبعض الفقهاء والقراء والأعيان، وأرسل غازان أمانا إلى أهل دمشق قرئ في المسجد الأموي، يتضمن تأمين الناس على أموالهم وأرواحهم ونسائهم وإيجاد حكومة تحكم بالعدل، وتدفع عن الناس الظلم والجور.

وفي الميدان العمراني قام السلطان أولجايتو بتشييد عاصمة جديدة للدولة بين قزوين وهمذان عام ٧١٣ هـ – ١٣١٣ م وسماها السلطانية. وقد ازدحمت العاصمة الإيلخانية الجديدة بالكثير من القصور والمساجد والمدارس والمستشفيات، كما بنى فيها مسجدا جامعا على نفقته الخاصة ومدرسة على نمط المدرسة المستنصرية في بغداد، وأصبحت تمثل أحد مراكز الثقافة الإسلامية الهامة سواء في الثقافة أو في نشر الإسلام ذاته[٣].

وكان هذا السلطان قد اتبع المذهب الحنفي بتأثير الأئمة الذين كانوا يحيطون

به عندما كان واليا على خراسان أثناء حكم أخيه السلطان محمود غازان. ولما توفى غازان واعتلى أولجاتو عرش البلاد تحول إلى المذهب الشافعي عام ٧٠٧هـ -١٣٠٧م. بتأثير وزيره رشيد الدين، كما تحول إلى مذهب الأئمة الأثنى عشرية منذ عام ٧٠٧هـ -١٣٠٧م. وضرب أسماءهم على السكة وتغيير صيغة الخطبة لتتفق مع مذهبه الشيعي الجديد[٤].

وفى جانب العلاقات بين الإيلخانات وباقي دول المغول بحث أولجاتيو جديا في عودة السلام بين جميع القادة المغول بعد حروب متصلة بينهم دامت خمسة وأربعين عاما، ولكن القبائل المغولية المختلفة قد اندرجت كل قبيلة منها في حضارة المنطقة التي احتلتها وعاشت فيها. حقيقة قد عمل غازان من قبل على عودة الوحدة المغولية، غير أن تلك الجهود لم يكن لها من اثر ملموس، كذلك فإن اولجايتو في مجال بعث هذه الوحدة المفقودة استقبل في مراغة في أغسطس سنة١٣٠٤م سفير الخاقان تيمور حفيد قوبيلاى وخليفته، كما استقبل أولجايتو أيضا سفراء شابار بن قايدو ودوا بن بوراق وهم من المغول الجغطائيين فى مهمة لإنهاء المنازعات بين مختلف الفروع المغولية من بنى جنكيز خان، كما استقبل أيضا سفراء طنطاى خان القبيلة الذهبية[٥] غير أن تلك المساعي كلها لم تكن لها أي نتائج إيجابية ، لأن فكرة غزو العالم قد انتهت، ولم يعد هناك إمكانية عمل عسكري مشترك لأن كل دولة مغولية أصبحت مهتمة بمصالحها الخاصة ولم يكن للاعتراف بتيمور حفيد قوبيلاى خانا أعظم للمغول من ميزة سوى بقاء السلام لفترة وجيزة بهدف التجارة فيما بينهم[٦].

واتخذ سياسة ودية نحو المماليك وأرسل الهدايا إلى سلطان المماليك والرسائل الودية التي دعا فيها سلطان المماليك إلى صداقته، وخاطبه بالأخوة وسأله إخماد الفتن، وطلب الصلح، وبادله الناصر الهدايا، والرغبة في السلام[٧].

وظلت العلاقات بين الإيلخانيين والمماليك زمن أولجاتيو تتأرجح بين الشقاق والمهادنة حتى أواخر عهد الإيلخان، بل ساءت إلى حد كبير قبل مماته.

وجدير بالذكر أن السلطان أولجاتيو تعصب للمذهب الشيعي وأمر بحذف أسماء الخلفاء الثلاثة: أبو بكر وعمر وعثمان من الخطبة، وتعصب للشيعة ومذهب آل البيت، وأصدر الفرمانات إلى أنحاء دولته بنقش أسامي الأئمة الأثنى عشر على السكة وتعصب لمذهبه الشيعي، وأضطهد أهل السنة، وكانوا يشكلون أغلبية السكان في دولته وساءت العلاقات وتدهورت في مملكته بين السنيين والسلطان وأنصاره من الشيعة، ولما خشي السلطان من اندلاع الفتن، عاد فأمر بذكر أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة في الخطبة.

وكان أولجايتو حريصا على نشر العدل بين الناس، وإنصاف المظلومين، ومنع تعدى المغول على الناس، وإحيا قوانين غازان، ونظم إدارة البلاد وازدهرت إيران في عهده وعمها الرخاء، ويرجع الفضل في ذلك إلى وزيره رشيد الدين فضل الله الهمذاني، وتوفى أولجايتو سنة ٧١٦ هـ -١٣١٦م.

خلف بو سعيد أباه في حكم الدولة الإيلخانية، وكان في الثالثة عشرة من العمر وتولى الوصاية عليه الأمير جوبان – أمير الأمراء- وظل رشيد الدين فضل الله في الوزارة.

وكان السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون مستمرا في عداوته للمغول، فأنفذ بعض أمراء طائفة الإسماعيلية لاغتيال قراسنقر- حاكم مراغة من قبل المغول – لكن هذه المؤامرة باءت بالفشل، وإن جعلت المغول يلزمون جانب الحذر من المماليك، وقد اثر بوسعيد مهادنة المماليك، وأرسل رسولا إلى مصر، يعرض الصلح، واتفق السلطان الناصر مع مندوب بوسعيد على عقد صلح يتضمن وقف الحملات الحربية بين البلدان، وعدم إنفاذ الناصر الإسماعيلية إلى فارس للتخريب

وأعمال الاغتيالات، وأن من حضر من مصر إليهم لا يطلب، ومن حضر منهم من مصر لا يعود إليها إلا برضاه، ولا يحرض الناصر العرب والتركمان بالإغارة على دولة المغول، وتضمن الصلح تأمين طرق التجارة بين الدولتين، وعدم التحريض على قتل قراسنقر - حاكم مراغة- وأن يسير المحمل كل عام من العراق إلى بلاد الحجاز، حاملا علمي سلطان مصر، وإيلخان المغول[٨]، وكان لهذا الصلح أثره في تحسين العلاقات بين البلدين.

وفى سنة ٧٢١هـ اعتنى بوسعيد بأمر حجاج العراق عناية تامة، وغشى المحمل بالحرير ورصعه باللؤلؤ والياقوت وأنواع الجواهر، فلما من ركب العراق بعرب البحرين، تعرض لهم ألف فارس، فتوسط الوسطاء بينهم على أن يكفوا عنهم مقابل ثلاثة آلاف دينار، ولكنهم أعادوا المال لما قالوا لهم: إنما جئنا بأمر الملك الناصر وقالوا: لأجل الملك الناصر نحفزكم بغير شيء، ومكنوهم من المسير، فانعم السلطان على العربان، وأرسل السلطان إلى أمراء المغول وأعيانهم الخلع، وأقيمت الدعوة بو سعيد على منابر مكة بعد السلطان الناصر محمد، وأصبح الحجاج آمنين على أنفسهم وأموالهم[٩].

استأثر جوبان بالسلطة والنفوذ في فارس، ولم يعود لبوسعيد من السلطة إلا اسمها، وأناب جوبان ابنه دمشق خواجا بشئون الجيش وعهد بحكم أسيا الصغرى إلى أبنه دمرداش.

على أن بوسعيد استرد سلطانه لما بلغ الحادية والعشرين من عمره، وقد مهد لذلك بالتخلص من دمشق خواجا، ودبر مؤامرة لاغتيال جوبان، حتى أن جوبان سار على رأس جيش كبير لمحاربة بوسعيد، ولكن جوبان قتل، وقتل السلطان بوسعيد أبناءه وأقاربه وأحفاده، وكل من له صله بالأسرة.

وكان دمرداش بن جوبان، لما شعر بموقف بوسعيد منه ومن أسرته، فرض

على نفسه حراسه مشدده خوفا من أن يرسل السلطان الناصر بعض أفراد الإسماعيلية لقتله لأنه منع تجار الرقيق من حمل المماليك إلى مصر من ولايته في أسيا الصغرى، ولما وقعت في يده رسائل بوسعيد تحض على قتله، قتل الرسل، ودخل في طاعة الناصر حماية له من بطش بوسعيد، وسأله أن يأذن له بالقدوم إلى مصر، ليكون نائبا له، وأذن له الناصر، وقدم إلى القاهرة فعلا وأحسن الناصر استقباله، وأنزله في بيت يليق به، ولكن بوسعيد مازال بالسلطان الناصر حتى قتله(١٠)، وبذلك تخلص بوسعيد من اسرة جوبان التي استأثرت بالحكم دونه في مستهل حكمه.

أراق بوسعيد الخمر في مملكته، وأبطل منها بيوت الدعارة، وابعد أرباب الملاهي وأغلق محال الخمور، وأبطل المكوس، وهدم الكنائس بالقرب من تبريز، ودعا غير المسلمين إلى المسارعة في الدخول إلى الإسلام، ونشر العدل وعمر المساجد والجوامع وقتل من وجد عنده الخمر بعد إراقته، واقتدى به الناصر محمد، فأرسل إلى نوابه بالشام يأمرهم بإغلاق محال الخمور، واستتابه أهل الفواحش، وتم تنفيذ ذلك في سائر بلدان الشام(١١).

كان لزوجة بوسعيد ، بغداد خاتون، تأثير كبير عليه، وكان يستشيرها في كل أمور الدولة، وأطلق يدها في الحكم، وملكت فؤاده حتى منحها لقب "خدا وتذكار" أي سيدة العالم(١٢).

وحرص بوسعيد على تحسين علاقته بدول أوربا، فعقد اتفاقات تجارية مع البندقية لترويج التجارة بين دولته ودول أوربا.

ولكن نهاية بوسعيد كانت على يد آمراته التي بالغ في حبها، فلما انتزعت ولشاد خاتون ابنه دمشق خواجا حب بوسعيد وتبوأت من قلبه موضع بغداد خاتون، لم تقبل هذه الأخيرة هذا التغير من زوجها، فدبرت مؤامرة قتله انتقاما لنفسها، ولكن

الأمراء نكلوا بها[١٣].

ويعتبر السلطان بو سعيد اخر ملوك الأسر الإيلخانية العظام الذين حكموا في إيران، ذلك لأن بوسعيد لم يعقب ولدا، فتعاقب على حكم الدولة أمراء من آل هولاكو.

أوصى بوسعيد قبل وفاته بأن يخلفه أرباخان على العرش الإيلخانى ونفذ وزيره غياث محمد الوصية، وولى ارباخان الحكم من سنة ٧٢٦هـ - ٧٣٦، وقد واجه منافسة شديدة ومعارضة من الأمراء الإيلخانيين، لأنه لا ينتمي لأسرة هولاكو. ومن أهم أعماله مواصلة سياسة سلفه في قتال أوزبك خان- رئيس القبيلة الذهبية- الذي أغار على الأطراف الشمالية لمملكته، واستطاع ارباخان الانتصار عليه ، لكن الأمراء الايلخانيين أصروا على التخلص منه، وتزعم الأمير على بادشاه - حاكم بغداد - هذه الحركة المناوئة لأرباخان، واتصل بالأمراء الايلخانيين وبعض أمراء العرب، وانضم إلى الحركة أمراء وأميرات بيت هولاكو، واستقر رأيهم على تنصيب الأمير موسى بن على ابن بايدوخان ايلخانا، وأجلسوه على العرش الإيلخانى، ولقب بموسى خان، واستطاع على بادشاه إعداد حملة كبيرة تخلص من أرباخان ووزيره خواجة غياث الدين محمد، وولى موسى خان الحكم سنة ٧٣٦هـ، ولكنه واجه ما واجهه سلفه من معارضة الأمراء لحكمه واستهانتهم به، وقاد محمد خان المعركة ضده، وانتهت بهزيمته، وولى محمد خان الإيلخانية ٧٣٦-٧٣٨هـ ولم ينعم بحكمه بل ظلت الاضطرابات الداخلية في دولته، وقتله شيخ حسن كوجك، وأسس حكومة في تبريز، وأتخذها عاصمة له، واستمر النزاع على العرش حتى ولى أنوشروان العادل الحكم ٧٤٤-٧٥٦هـ وهو آخر حكام الدولة الإيلخانية، وكان رجلا مغمورا لا يعرفه حتى الأمراء الإيلخانيين، وكان

يقضى طوال يومه في الشراب والطرب، ونصبه ملك أشرف ايخانا حتـى يحكـم باسمه واستمر حكمه حتى وفاته الفجائية سنة ٧٥٦ وفى سـنة ٧٥٤ هـ تـوفى طغاتيمور الذي كان يحكم المنطقة الشرقية من الإيلخانية بوفاة أنوشـروان ينتهـي حكم الدولة الإيلخانية لإيران الذي استمر قرنا من الزمان.

الدولة الإيلخانية معاصرة لدولة المماليك في مصر والشام ومعاصرة لـدولتي المماليك والدولة الخلجية في الهند- وهما دولتان إسلاميتان -وعاصـر الخـانيون دوله القبيلة الذهبية في روسيا، وعاصرته دولة بنى الأحمر في الأندلس (غرناطـة) وعاصرت بنى حفص في المغرب وبنى مرين في المغرب.

اندمج المغول الإيخانيون حكام إيران والعراق ووسـط آسـيا فـي الحيـاة الإسلامية، وأثر العرب والمسلمون فيهم وذلك بدخولهم في الإسلام واعتناق مبادئـه والاندماج في حضارته وثقافته، شهدوا بالخطأ الجسيم الذي ارتكبه أسلافهم المغول، وقاموا بتعمير المدن والقرى التي خربوها ودمروها، فعاد العلماء الـذين هجـروا أوطانهم أثناء الغزو إلى ديارهم، وواصلوا تأدية رسائلهم العلمية والفكرية.

كما أعاد المغول طريق الحرير العظيم الذي يربط الصين والهند ووسط آسيا بأوربا مرورا بإيران والعراق والشام ومصر والمغرب والأندلس وكفـل المغـول الأمن لهذا الطريق، وعبرت منه بضائع المشرق مثل الحرير والتوابـل والخيـول والورق والكتب العربية والنباتات العطرية والطبية وجواهر الهند وآسيا الوسـطى. وهذا الطريق الذي يبلغ طوله خمسة آلف ميل، أقام المغول فيه محطـات للراحـة وبها دليل للمسافرين وبذلك فإن مغول فارس والعراق، اتبعوا سياسة غيـر سياسـة أسلافهم – أعداء الإسلام – فعمروا البلاد الإسـلامية ، وأعـادوا للـبلاد الحيـاة الاقتصادية والمظاهر الاجتماعية والتقدم الثقافي وهى أمور حرمـت منهـا الـبلاد

بسبب غزو أسلافهم مغول جنكيز خان وهولاكو.

سيطر تيمور لنك على بلاد ما وراء النهر وهو ينحدر من سلالة جنكيز خان، وأقام دوله سنة ٧٧١ هـ /١٣٧٠م، واتخذ من سمرقند عاصمة لدولته، وكون دوله مترامية الأطراف يحدها سور الصين شرقا وروسيا في الشمال والشواطئ الشرقية للبحر المتوسط في الغرب وحدود مصر في الجنوب الغربي.

توفي تيمورلنك سنة ١٤٠٥م وخلفه بعض من أفراد أسرته وانقسموا على أنفسهم مما أدى إلى ضعف دولته.

شرع بابرر أحد أفراد أبناء تيمورلنك في تكوين دولة مغولية في الهند. وفعلا زحف بابر إلى بلاد الهند سنة ١٥٢٦، وكون بها مملكة، هي إمبراطورية المغول في الهند، وسيطر أباطرة المغول على الكثير من ولايات الهند، وانتشر بفضل هؤلاء الأباطرة الإسلام في الهند، وازدهرت العلوم والفنون في عهد هؤلاء الأباطرة، وكون الأباطرة المغول في الهند دولة عظمى عالمية تخشاها الدول وتخطب ودها وحكمت هذه الإمبراطورية الهند أكثر من ثلاثة قرون (١٥٢٦-١٨٥٨م) وأول ملوكها بابر وأخرهم بهادر شاه الثاني الذي أعقب حكمه الاحتلال البريطاني للهند.

والخلاصة أن المغول الذين بدأوا نشاطهم السياسي العداء الشديد للعرب والمسلمين والإسلام، ودمروا بلادهم وقتلوا الألوف من المسلمين، واجه العرب والمسلمون تحدياتهم وشروهم بالمقاومة الجادة والحرص على تحويل انتصاراتهم على المسلمين إلى هزائم ، وأثروا فيهم حتى اعتنقوا الإسلام ودافعوا عنه وساهموا في نشره بين الأمم.

وقامت – كما رأينا ثلاث دول مغولية تدين رسميا بالإسلام وهي دولة

المغول الايلخانيين ودوله المغول القفجاق وإمبراطورية المغول في الهند.

هذه الدول ساهمت في ازدهار الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي وبقى من هذه الدول جمهورية تتريا في منطقة القوقاز. لم تؤثر الشيوعية في عقيدة أهل هـــذه البلد بل شيدت المساجد وترجم العلماء الكتب الإسلامية إلى لغاتهم وترجموا معـــاني القرآن الكريم. ولم يؤثر ارتباطهم بروسيا الاتحادية في عقيدتهم.

الحواشي :

(١) خواندمير: دستور الوزراء ، ص ٣٠٢.

(٢) عبد السلام عبد العزيز فهمي: تاريخ الدولة المغولية في إيران ص ١٩٧.

(٣) رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢ جـ٢ ص ١٦٦.

Saunders, the History of the Mongol Conquests, P ١٤٣, ١٤٤.

(٤) العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، جـ٢٣ ت١ ورقة ١٦، ١٧، ١٠٤، أبن العسقلاني: الدرر الكامنة، جـ٣ ص ٤٦٨.

(٥) Cambridge: History of Iran, Vol, ٥ P.٣٩٨, ٣٩٩

(٦) Prawdin: the Mangol Empire, P. ٣٧٨

(٧) المقريزي: السلوك جـ٢ القسم الأول ص ٦.

(٨) المقريزي: السلوك جـ٢ القسم الأول ص ٢٠٩.

(٩) المرجع السابق ص ٢١٤.

(١٠) المقريزي: السلوك جـ٢ القسم الأول ص ٢٩٤.

(١١) المصدر السابق ص ٢٢١ ، ٢٢٣.

(١٢) عبد السلام عبد العزيز فهمي: تاريخ دولة المغول في إيران ص ٢٢٧.

(١٣) رحلة أبن بطوطة جـ ٢ ص ١٤٥.

مشروع حملة لاتينية مغولية بيزنطية مشتركة ضد الشرق الإسلامي ١٢٦٩م / ٦٦٨ هـ

د. نادية مرسى السيد صالح
المدرس بكلية الآداب ببنى سويف

يتناول هذا البحث صفحة في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطي، فى فترة اشتد فيها الصراع بين أتباع المسيحية وأتباع الإسلام، ودخول المغول(١) كطرف ثالث فى ميدان الصراع بين أوروبا والشرق. وقد علق الغرب الأوروبى آمال كبيرة علي تعاون المغول معه فى الحرب المقدسة ضد المسلمين. فى الوقت الذى كانت فيه حركة الجهاد الاسلامية في الشرق في قمتها. وقد أدت الأحوال التى سادت الشرق والغرب في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادى، الى قيام نوع من التجاذب والتقارب بين العوالم الثلاث: الغرب الأوروبي، والمغول، والدولة البيزنطية؛ فالغرب الأوروبي يسعي الى اعتناق المغول للديانة المسيحية علي المذهب الكاثوليكي، والفكر المغولي يسعي الي سيادة العالم، والحصول من الغرب الأوروبى على إمدادات لمحاربة المماليك، والانتقام لهزيمة عين جالوت، والقضاء علي المماليك، والدولة البيزنطية تسعي إلى حماية حدودها خشية الهجوم اللاتيني المنتظر. ونتج عن هذا التقارب تخطيط حملة لاتينية مغولية بيزنطية ضد الشرق الإسلامي فى عام ١٢٦٩م / ٦٦٨ هـ ؛ لاسترداد الأراضى المقدسة، والقضاء علي الدولة المملوكية، وانتهي هذا المشروع بالفشل. وبرغم ذلك، ترددت الرسل، وتعددت السفارات والمناقشات بين العوالم الثلاثة، حول تنفيذ مشروع حملة لاتينية مغولية بيزنطية، ولكن لم يتعد الأمر حدود

السفارات والآراء والوعود، ولهذ السبب قدر للمشروع ألا يخرج إلى حيز التنفيذ.

ان البداية الحقيقية لهذه الحملة تبدأ مع بداية القرن الثالث عشر الميلادى/السابع الهجرى، عندما أسس جنكيزخان (١٢٠٦-١٢٢٧م/ ٦٠٣-٦٢٤هـ) إمبراطورية مغولية واسعة، تمتد من بكين شرقا الى نهر الدنيبر والفرات غربا، فكانت بذلك تشمل شمال الصين وتركستان وفارس وجورجيا وقسما من جنوب روسيا. وغزا المغول شرقي أوروبا، وبدأ الزحف المغولي يهدد غرب أوروبا خاصة بولندا والمانيا، واستمرت حملات المغول علي أوروبا حتى عام ١٢٤١- ١٢٤٢م[٢]. ونجح المغول في إنزال الهزيمة عام ١٢٤٣م / ٦٤٠هـ بالسلطان غياث الدين كيخسرو الثاني (١٢٣٧-١٢٤٥) سلطان سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، فاضطر الي دفع الجزية لهم، كما اعترف هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى (١٢٢٦-١٢٧٠م) بسيادة المغول عام ١٢٤٧م ، اتقاء لشرهم[٣].

وأخذ القلق يدب في نفوس البابوات ومسيحيى الغرب، ورأوا أن الطريقة السليمة لاتقاء خطر المغول، هي الاتصال بهم، ومحاولة التفاهم معهم . ولما كان المغول يدينون بالوثنية، خافت البابوية على الغرب الأوروبي، وحاولت أن ترسم سياسة تجتذب أولئك القوم الى الديانة المسيحية، على المذهب الكاثوليكى الغربى، فتبعد خطرهم عن الغرب الأوروبي لعلهم يتجهون الى المشرق الإسلامي ـ وهذا ما حدث بعد سنوات فقد اتجهوا الى العراق وبغداد ـ وتحاول إن أمكن تحقيق حملة مشتركة لاتينية مغولية ضد المسلمين في الشرق الأدنى لانتزاع الأراضى المقدسة[٤].

وبدأت الاتصالات والسفارات بين البابوية والمغول[٥]، منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادى، فأرسل البابا أنوسنت الرابع (١٢٤٣-١٢٥٤) أول سفارة أثناء اجتماع مجمع ليون عام ١٢٤٥م الى كيوك خان المغول[٦] (١٢٤٥-١٢٤٩م/

٦٤٣-٦٤٧هـ) فى قراقورم، لدعوته الي المسيحية، ولكن الخاقان اشترط لإتمام تلك الخطوة دخول البابوية، وملوك وأمراء الغرب تحت سيادة المغول[٧]. ومع ذلك أخفق البابا في اجتذاب إيلخان[٨] المغول إلي المسيحية الغربية، وإن كان قد أفلح فى دفع الخطر المغولي الذى كان يهدد الغرب الأوروبي. وبعد قليل تجددت السفارات بين لويس التاسع ملك فرنسا (١٢٢٦- ١٢٧٠) وإيلخان المغول في كل من قبرص عام ١٢٤٨-١٢٤٩، وقيسارية عام ١٢٥١م[٩]، بخصوص التعاون بين الطرفين في سبيل الاستيلاء علي بيت المقدس من أيدى المسلمين، وتحويل المغول الي المسيحية. وفشل لويس التاسع ملك فرنسا في اجتذاب المغول الى المسيحية في صراعها ضد الإسلام[١٠].

هذا فى الوقت الذى بسطت فيه قوة المماليك سلطانها على مصر والشام، وكان أفرنج الشام بحاجة ماسة الي المساعدة. فقام الملك لويس التاسع ببذل المساعى، من أجل نجدة الصليبيين بالشام، بعد فشل حملته الصليبية علي مصر عام ١٢٤٨م، وأقام في بلاد الشام أربع سنوات كاملة، بذل فيها جهدا كبيرا، في سبيل تدعيم مركز الصليبيين بالشام، وتصفية ما بينهم من خلافات، ولكن جهوده لم تسفر عن شئ، علي أن عوامل الشقاق والضعف في المجتمع الصليبي، كانت أقوى وأعمق جذورا، فلم يستطع ملك فرنسا القضاء عليها ، ثم غادر عكا عائدا الي بلاده في أبريل ١٢٥٤م، واستمرت الحرب الأهلية بين الصليبيين في كل مكان بالشام[١١].

وكان الغرب اللاتيني يتجه بأنظاره الي الشرق الأقصى، في طلب المساعدة في نضاله ضد القوات الاسلامية في الشرق العربي. وكانت الظروف آنذاك مواتية لتدعيم العلاقات بين اللاتين والمغول، فقد وجد أنهما أمام خصم عنيف يتمثل في مماليك مصر، وأدركا أيضا أن مصلحتهما المشتركة تقتضي تعاونهما معا،

لمجابــهة هذا الخطر الجاثم، وظلت السلطتان المسيحيتان فــي الــشرق والغــرب تتطلعان الي المغول، لمساعدتهما في حروبهما ضد المسلمين، في ســبيل امــتلاك الأراضى المقدسة، وقد شجعهما استمرار تسامح المغول مــع مختلــف المــذاهب المسيحية علي مواصلة هذه السياسة(١٢).

وبعد هزيمة المغول في موقعة عين جالوت، عام١٢٦٠ م / ٦٥٨ هـ ، حدثت تغييرات فى سياسة المغول تجاه الغرب الأوروبي، نتيجة الــسياسة العدائيــة للمغول ضد المماليك في مصر، وخانات القفجاق أو القبيلة الذهبيــة(١٣) (Golden the Kipchak) Horde ، وبدأت مرحلة تحــول هامــة فــي سياســة هولاكــو (١٢٥٦-١٢٦٥) وخلفائه نحو الصليبيين، أخذ المغول فى البحث عن حلفاء، وبــدأ هولاكو يتصل باللاتين، خاصة بعد دخوله فى صراع مسلح مع مغول روسيا عــام ١٢٦١م، للتعاون معهم ضد المماليك. وفي عام ١٢٦٢م، أرسل هولاكو خان سفارة من قبله، تحمل رسائل للبابا، ولملوك الغرب الأوروبي، يطلب التحالف ضد عدوهم المشترك المسلمين، ومن ذلك، رسالة مؤرخة فى ١٠ ابريل ١٢٦٢م طبقا للتقــويم المغولى، وصلت الى ملك فرنسا بواسطة جون الهنغارى John the Hungarian، يدعو هولاكو الأمراء وملك فرنسا الى الخضوع له، ويعبر عن هدفه فى القــضاء على قوى المماليك، ويطلب من الملك الفرنسى أن يتعاون معه فى حملة مــشتركة، وأنه يعتزم ان يعيد مدينة بيت المقدس والأرض المقدسة الــى البابــا، ويطلــب ان يعاونه الفرنجة فى ذلك. ولكن الملك لويس التاسع، أرسل جون الهنغارى وخطابــه الى البابا أوربان الرابع (١٢٦١-١٢٦٤)، ولكن هذه السفارة، عند وصــولها فــى مملكة صقلية، اعترضها منفرد، ومنع المبعوثين من الوصول للبابا. ويعتقد ان جون الهنغارى تمكن من الهرب واستطاع الوصول الى البابا، وبالتالى، قام البابا أوربــان الرابع عام ١٢٦٢ بكتابة رسالة الي هولاكو، ووصل خطاب البابا الي هولاكو فــي

الوقت الذى كان يستعد فيه للثأر من هزيمته من مغول روسيا، وانشغاله بمشاكله الداخلية(١٤).

كما كان هولاكو يرى أن التحالف مع الامبراطورية البيزنطية في غاية الأهمية، وذلك لإيجاد توازن في آسيا الصغرى، بين الامبراطورية وسلطنة سلاجقة الروم، وللحرب ضد المماليك؛ فى وقت كان فيه الامبراطور البيزنطي يسعى ليستعيد القسطنطينة من اللاتين. ولذلك أرسل هولاكو من عاصمته تبريز الى الامبراطورية يطالب بزوجة له، وقد وافق الامبراطور ميخائيل الثامن باليولوجس (١٢٥٨-١٢٨٢ م)، وشرع في إرسال ابنة غير شرعية له هي ماريا. وعندما وصلت ماريا الى البلاط المغولي فى فارس كان هولاكو قد مات، ولكنها تزوجت عام ١٢٦٥م من ابنه وخليفته أبغا(١٥) (١٢٦٥-١٢٨٢م / ٦٦٣-٦٨٠ هـ). وقد اضطر الإمبراطور ميخائيل الثامن باليولوجس لمصاهرة مغول فارس، ليأمن جانبهم، وحتي قبل ان يستعيد ميخائيل القسطنطينية، وأثناء إقامته في المنفى في مدينة نيقية، وارتبط الإمبراطور بالمصاهرة مع ايلخانات فارس، ومع خانات القبيلة الذهبية ، وبهذه المهارة الدبلوماسية أمنت الامبراطورية البيزنطية شر خطر المنافسة المغولية(١٦).

وقد قدر السلطان الظاهر بيبرس (١٢٥٩-١٢٧٧/ ٦٥٨-٦٧٦) أن المغول ـ لابد ـ مقدمون علي الأخذ بثأرهم، فأخذ يستعد لمناضلة المغول، وكان نضاله مع المغول متصلا بنضاله ضد بقايا الصليبيين في الشام. وكان بيبرس علي علم بالمحاولات التي بذلها المغول والصليبين للتحالف معا ضد القوى الاسلامية، ولهذا اختطّ بيبرس لنفسه خطة، تتلخص في عقد سلسلة من التحالفات مع كل القوى الإسلامية والمسيحية المحيطة به وبالصليبيين، حتي لا يدع فرصة للتقرب والتحالف بين المغول والصليبيين، أو الحصول علي معونة حربية. ووفق بيبرس

في تنفيذ خطته، وعقد سلسلة من المعاهدات والاتفاقات الودية مع ميخائيل الثامن باليولوجس امبراطور الدولة البيزنطية، ومع منفرد هوهنشتاوفن امبراطور الدولة الرومانية المقدسة وملك صقلية، ومع الجمهوريات الايطالية، ومع سلطان سلاجقة الروم في آسيا الصغرى(١٧).

وعقد بيبرس حلفا مع بركة خان بن جوجي زعيم مغول القفجاق (١٢٥٧- ١٢٦٦) ـ وكان أول من أسلم من خانات المغول ـ ضد العدو المشترك، ممثلا في مغول فارس، وفى عام ١٢٦١م/ ٦٥٩هـ كتب السلطان بيبرس الي الملك بركة يغريه بقتال هولاكو ويرغبه في ذلك(١٨). وقامت هذه العلاقة علي أساس مصالح تجارية وسياسية، فقد كانت مصر تعتمد علي القبيلة الذهبية للحصول علي المماليك القفجاق، ولما كانت بيزنطة تسيطر علي المضايق التي تمر منها السفن المحملة بالمماليك، عقد بيبرس معاهدة مع الامبراطور ميخائيل باليولوجس للحصول علي تصريح بمرور تجارة المماليك من المضايق البيزنطية؛ وسرعان ما انضم الامبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن باليولوجس الي محور بيبرس ـ بركة فى عام ١٢٦٢م، فأصبح التحالف ثلاثيا، مما مكن بيبرس من القيام بمشاريعه ضد الصليبيين والمغول، وهو آمن(١٩).

ومن العوامل التي دفعت بيزنطة الي هذا التحالف، العداء التقليدى بين بيزنطة والصليبيين، منذ الحملة الصليبية الأولى، كما أن ميخائيل باليولوجس حاول أن يأمن جانب المماليك حتي يستطيع التفرغ لمواجهة المشكلات السياسية التي واجهته، ويضمن حليفا يقف الي جانبه في حالة هجوم صليبي لاتيني؛ فقد كان مهددا من جانب الصليبيين اللاتين الذين كان لديهم الأمل في إعادة الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية، لذلك تقرب ميخائيل باليولوجس الي سلاطين المماليك، وتم تبادل السفارات بين الطرفين عام ١٢٦٢م/ ٦٦٠ هـ. ثم توترت العلاقات بين

السلطنة المملوكية والدولة البيزنطية، عندما عــاق الامبراطــور ميخائيــل رســل السلطان بيبرس، عند عبورهم بلاد الدولة البيزنطية الي بلاط بركة خــان مغــول القفجاق، عام ١٢٦٤م / ٦٦٢هــ، غير أن الامبراطور البيزنطي أطلق سراح رسل بيبرس، وسمح لهم بمتابعة سفرهم، وأرسل الهدايا الي السلطان بيبرس ليــسترضيه. ويقال ان سبب تعويق رسل السلطان بيبرس أنه كان عنــد الامبراطــور ميخائيــل باليولوجس وقت وصولهم رسولا من جهة هولاكو، فاعتذر إليهم الامبراطور عــن تأخير مسيرهم لخوفه من أن يطلع هولاكو علي ذلك[٢٠].

وفي عام ١٢٦٤م/٦٦٣هــ، أرسل بيبرس رسولا الي بركة خان يطلب منــه أن يوقف غاراته علي القسطنطينية، استجابة لرجاء الأشكري (امبراطور بيزنطة)؛ فقد تقدم بالرجاء الي بيبرس أن يقوم بالوساطة بينه وبين الملك بركة[٢١].

وفي الوقت نفسه، واجهت بيزنطة حلفا لاتينيا ضدها، وتفاصيل ذلــك: أنــه عندما زحف كونت بروفانس Provence شارل الأنجوى Charles of Anjou ــ أخو الملك الفرنسى لويس التاسع، على رأس جيشه الى ايطاليا، وحطم منفرد ملــك صقلية في مدينة بنفنتوم Beneventum عام ١٢٦٦م، وبوفــاة مــانفرد أصــبحت صقلية ونابولى تحت النفوذ الفرنسى، وأصبح شارل الأنجوى ملك الصقليتين . وفى مايو عام ١٢٦٧م، وفى حضور البابا في مدينة فيتربو[٢٢] Viterbo ، عقد شــارل الأنجوى معاهدة مع الإمبراطور اللاتيني المعزول من القسطنطينية بلدوين الثــاني (١٢٣٧-١٢٦١)، تعهد فيها الأخير أن يتنازل لشارل الأنجوى عــن حقــه فــي السيادة علي الأملاك الفرنجية، في الامبراطورية اللاتينية السابقة، وأن يحتفظ لنفسه فقط بمدينة القسطنطينية، وعدة جزر في الأرخبيل. وبدأ شارل يكــون حلفــا ضــد الدولة البيزنطية، وأصبح الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن بــاليولوجس تحــت تهديد حملة صليبية قادمة من الغرب، لاسترداد القسطنطينية، ولم يمنع تحقيق هــذا

الأمل الصليبي اللاتيني سوى المهارة الدبلوماسية البيزنطية، فأرسل ميخائيل باليولوجس للبابوية يعدها بخضوع كنيسة القسطنطينية لها، وتحقيق الاتحاد بين الكنيستين الشرقية والغربية. وطلب من البابا استخدام نفوذه لمنع شارل الأنجوى من تحقيق مشروعاته ضد بيزنطة، كما قرر ميخائيل باليولوجس أن يعقد صلحا مع الجنوية، وسمح لهم بالعودة الي القسطنطينية ومنحهم امتيازات تجارية(٢٣).

وبدأ بيبرس نضاله ضد الصليبيين، بمحاصرة عكا عام ١٢٦٣م/ ٦٦١ هـ ، ولكنه لم يستطع الاستيلاء عليها، وزحف الي مدينة قيسارية في عام ١٢٦٥م / ٦٦٣ هـ واستولي عليها، ففر أهلها الى قلعتها، واشتد القتال علي قلعة قيسارية حتي سلم الفرنج القلعة بما فيها. ثم رحل بيبرس الي أرسوف ونازلها وفتحها. ثم أمر بيبرس بعمارة قلعة قاقون(٢٤) فعمرت، وعمرت الكنيسة جامعا(٢٥).

وفي عام ١٢٦٦م / ٦٦٤ هـ ، اجتمعت العساكر المصرية والشامية على صفد، إحدى معاقل فرسان الداوية، وحاصروها وقاتلوا الفرنج عليها قتالا منيعا حتى طلبوا الأمان. واستولي بيبرس علي هونين وتبنين، وعلي مدينة الرملة(٢٦). كما أرسل بيبرس حملة تأديبية، بقيادة الأمير المنصور قلاوون، الى أرمينية الصغرى عام ١٢٦٦م/ ٦٦٥ هـ، لتحالفها مع مغول فارس ضد المسلمين، أغارت على مدن سيس ــ عاصمة أرمينية الصغرى ــ والمصيصة وأذنة وأياس وطرسوس، وعاثت فيها فسادا، ثم عادت بغنائم كثيرة، وعدد كبير من الأسرى، من بينهم ليفون ابن هيثوم الأول ملك أرمينية، وتعهد هذا الملك بدفع جزية سنوية لسلطان مصر والشام، واضطر ان يتنازل عن عدة قلاع في مقابل مسالمته، وإطلاق سراح ولده(٢٧).

ثم هادن بيبرس الصليبيين، وذلك كي يتفرغ تماما لمناضلة ايلخانات فارس، وقد ازداد خطر المغول علي بلاد الشام في عهد أبغا بن هولاكو خان المغول في

فارس، الذى حرص علي أن يدعم علاقاته بالقوى المسيحية في الشرق والغـــرب، للانتقام من المماليك، ويغسل الإهانة التي لحقت بالجيوش المغولية في موقعة عـــين جالوت. وقامت مناوشات كثيرة بين جيوش المغول وجيوش المماليك، ففـــي عـــام ١٢٦٥م/ ٦٦٣ هـــ أغار المغول علي البيرة ـــ وهي قلعة تقـــع علـــي الفـــرات ـــ فأرسل بيبرس حملة سريعة لردهم، ففر المغول هاربين، عندما شـــاهدوا العـــساكر الاسلامية، واسترد البيرة[٢٨]. وفى العام التالى ١٢٦٦م/٦٦٤هـــ، أرسل أبغا رسله بطلب الصلح[٢٩]، ويبدو أن السلطان بيبرس رفض المصالحة.

ومن الجدير بالذكر أنه في هذه المرحلة من القرن الثالث عشر، كانت حركة الزحف النصراني في أسبانيا تسير بخطي سريعة علي حساب المـــسلمين، وكانـــت الممالك النصرانية آنذاك، فى صراع عنيف ضد المسلمين، فى سبيل امتلاك شـــبه الجزيرة الايبيرية. وقد استولي خايم الأول ملـــك أرغـــون[٣٠] (١٢١٣-١٢٧٦م/ ٦١٠-٦٧٥هـــ) علي جزر البليار (١٢٢٨-١٢٣٥م/٦٢٥-٦٣٢هــــ)، ومملكـــة بلنسية (١٢٢٩-١٢٤٦م/٦٢٦-٦٤٤هـــ)، كما استولي الفونسو العاشر ملك قشتالة (١٢٥٢-١٢٨٤) علي مملكة مرسية بمساعدة حماه خـــايم الأول عـــام (١٢٦٢-١٢٦٦م/٦٦٠-٦٦٤هـــ). ويبدو أن النصر الذى حققـــه الملـــك خـــايم الأول فـــي اسبانيا، واسترداده جانبا من الأراضي الاسلامية، قد شجعه علي المضي قدما فـــي جانب آخر ضد المسلمين، وكان يرى أن سيطرة النصارى علي أى بقعة إســـلامية، هي عمل بطولي لايقل عن سياسة الاسترداد في اسبانيا، ولذلك، كان يفكر فـــي أن يتعهد بمواصلة الحركة الصليبية في الأراضى المقدسة، لتقوية الروح المعنوية لدى الصليبيين هناك، وربما أراد أن يحقق انتصارا آخر في الأراضى المقدســـة، حتـــي ينظر إليه الغرب الأوروبى كبطل من أبطال المسيحية، فعرض علي البابا كلمنـــت الرابع مشروع حملة صليبية ضد المسلمين في الشرق الإسلامى، حين كان مشغولا

بالغزو في مملكة مرسية، ولكن البابا وبخه وعنفه لفسقه[٣١].

وهكذا كان الصراع بين المسيحية والإسلام علي أشده في الجبهتين: في الشرق الإسلامي، والغرب الإسلامي، وربما رفض البابا وعارض مشاركة الملك خايم فى حملة صليبية في الشرق الإسلامي، في هذا الوقت الذى كان يحارب فيه المسلمين في الأندلس، خاصة، وأن الأندلس أقرب الي الغرب الأوروبي من الشرق، وقلب العالم المسيحي، وأقرب الي البابوية من الشرق.

ولنا هنا وقفة بالنسبة لموقف البابوية من اشتراك الأسبان في الحروب الصليبية في المشرق الإسلامى. فمنذ بداية الحركة الصليبية في أواخر عام ١٠٩٥م، لم تشجع البابوية حكام اسبانيا النصرانية علي المشاركة في الحروب الصليبية في المشرق الإسلامى، وشجعتهم علي حروب الاسترداد، بهدف طرد المسلمين من شبه الجزيرة الايبيرية، مما حال بينهم وبين المساهمة فى حرب خارج اراضيهم. وكانت البابوية تبارك جهود النصارى في إسبانيا في حربهم ضد المسلمين، ومنحتهم الغفران الذى منحته الي الصليبيين، الذين شاركوا في الحروب الصليبية في الأراضى المقدسة، ولكن استجدت بعض الأمور التي جعلت البابوية تشجع اشتراك الأسبان في الحروب الصليبية في المشرق الإسلامى، كان أهمها استعادة المسلمين لبيت المقدس عام ١٢٤٤م/ ٦٤٢هـ، وسوء أحوال الصليبيين في بلاد الشام، وعدم استقرار المملكة اللاتينية، وسقوط انطاكية عام ١٢٦٨م/ ٦٦٦هـ، وعجز أبغا عن انقاذ انطاكية من المماليك، وضعف أمل النصارى في تحويل المغول الوثنيين الي المسيحية، وقيام تحالف معهم للقضاء علي المسلمين، بالإضافة الي فتوحات خايم الأول في إسبانيا، واستقرار الأمور في شبه الجزيرة الايبيرية بعد عام ١٢٦٦م، كل هذا جعل إمكانية استخدام اسبانيا في شئون مملكة بيت المقدس اللاتينية. فدعا البابا لحملة صليبية، في وقت ضعفت فيه الحماسة

الدينية، فاستجاب لدعوة البابا لويس التاسع ملك فرنسا، وخايم الأول ملك أرغـــون، وتعهدوا بالاشتراك في الحملة[٣٢].

وبعد أن تمكن المماليك في عهد السلطان بيبرس، من تحقيق انتصارات، على كل من الصليبيين والمغول والأرمن، وجد أبغا أنه في حاجة ماسة لتـأمين حـــدود دولته مع دولة المماليك، في الوقت ذاته، كان افرنج الــشام بحاجــة ماســـة الـــي المساعدة والنجدة العاجلة، وفى هذه المرحلة، إزدادت حاجــة الطـــرفين للتعـــاون العسكري ضد المسلمين. وأسرع أبغا خان بإرسال السفارات للغرب الأوروبي فـــي عام ١٢٦٦-١٢٦٧م، لطلب المساعدة العسكرية ضد المماليك، فأرسل خطابا الـــى البابا كلمنت الرابع (١٢٦٥-١٢٦٨) مكتوبا باللغة المغولية، ولم يستطع أحد فـــي الإدارة البابوية Curia قراءته ، ولكن ردد المبعوثين رسالة سيدهم أبغا للبابا، وفيها يعرض أبغا علي البابوية مشروع حملة لاتينية مغولية بيزنطية ضد المسلمين، تقوم بمحاصرة المسلمين بين القوات المغولية شرقا والقوات اللاتينية غربا، ويطلب أبغـــا من البابا كليمنت الرابع إرسال جيوش الغرب الأوروبى، بالتعاون مع قوات صهره ميخائيل الثامن باليولوجس للشام، لمحاصرة قوات المسلمين بـــين المغـــول شـــرقا والقوات الأوروبية غربا، ويستفسر أبغا من البابا عن الطريق الـــذى تـــسلكه هـــذه القوات، وعن موعد وصولها الي الشرق[٣٣].

ووجد أبغا ترحيبا من البابوية، وتوالت السفارات وتبادل الرسائل بين المغول والغرب الأوروبي، مع فرنسا، وانجلترا، وأرغون، ومع البابوية[٣٤]. وأرسل أبغـــا سفراءه الي البابا كلمنت الرابع في عام ١٢٦٧، والي خايم الأول ملك أرغون فـــي عام ١٢٦٩، والي مجمع ليون عام ١٢٧٤، يقترح عليهم القيام بحملة مشتركة ضد العدو المشترك المسلمين. وعلي أي حال كان يـــستحيل ان تـــنظم الحملـــة بـــالقوة الكافية، أو أن تقوم في وقت واحد، بسبب المسافات الطويلة وكثرة المشاكل الداخلية

التي تتعلق بالأطراف المشاركة في الحملة[٣٥].

وفي فبراير عام ١٢٦٧، تلقي الملك خايم الأول دعوة لحملة صليبية من أبغا بن هولاكو، فأوفد اليه جاقم الريك Jacme Alarich[٣٦] مبعوثا الي بـــلاط خـــان المغول للتفاوض معه في هذا الشأن[٣٧]. كما أوفد البابا كليمنت الرابـــع المبعـــوث نفسه جاقم الريك الى الخان أبغا وأرسل معه خطابا مؤرخـــا مـــن مدينـــة فتربـــو الايطالية عام ١٢٦٧، يخبره عن قيام لويس التاسع بإعداد حملة صليبية، وأن ملوك فرنسا ونبرة Navarre وكثيرا من البارونات، وعـــددا لا يحـــصي مـــن الجنـــود، يستعدون للذهاب للأراضى المقدسة، ليهاجموا أعداء الدين [المسلمين]، ويوعـــده بالمساعدة. ويقول لأبغا: " وأنتم قد كتبـــتم أنكـــم تنـــوون الانـــضمام لـــصهرك [الامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجس] ، لمساعدة اللاتين [فـــي الـــشرق] ، ونحن سوف نفعل ما في وسعنا لمساعدتك "[٣٨].

وأرسل البابا كلمنت الرابع خطابا لبطريرك بيت المقدس في عكا، لمـــساعدة ملك أرمينيا الصغرى، وأمير انطاكية، حينما يتقدمان بقواتهما مع قوات المغول ضد المماليك، وأرسل أيضا وعدا بالمساعدة لهيثوم الأول ملك أرمينيا من قوات لـــويس التاسع، عندما تصل الي الشرق. وأرسل البابا كذلك للامبراطور البيزنطـــي يحثـــه علي العودة لحظيرة كنيسة روما، والمشاركة مع صهره ـــ الإيلخان المغولي ـــ في مساعدة الصليبيين. وأخيرا فإنه أرسل لخايم الأول ملك أرغون ولـــويس التاســـع، لتشجيعهما علي سرعة إعداد قواتهما[٣٩].

وبالرغم من هذه السفارات والتدبيرات بين المغول واللاتين، إلا أنها لم تصل الي نتيجة حاسمة ضد المماليك، ولم توضع موضع التنفيذ، فقد كان أبغـــا مـــشغولا بحربه مع القبيلة الذهبية، ولذا كان رده مجرد وعود غامضة[٤٠].

وتمكن السلطان بيبرس من تحقيق المزيد من الانتصارات علـــي الـــصليبيين

والمغول. وفي عام ١٢٦٨م / ٦٦٦ هـ وصلت رسل الفرنج لعقد هدنة مع بيبرس، وأبرمت الهدنة لمدة عشر سنوات مع مدينة صور، وقررت الهدنة مع الاسبتارية علي حصن الأكراد والمرقب لمدة عشر سنين وعشرة شهور وعشرة أيام، ثم فتح بيبرس حصن شقيف أرنون قرب بانياس، وفتح مدينة يافا، وأغار على طرابلس، ثم حاصر مدينة أنطاكية، وقاتل أهلها قتالا شديدا حتي استسلمت في مايو ١٢٦٨م/ رمضان ٦٦٦هـ، وعقد صلحا مع القصير، وفتح حصن بغراس من أيدى الداوية فى السنة المذكورة، واصطلح السلطان مع الملك هيثوم صاحب سيس، وأطلق سراح ولده بعد أن سلم للسلطان قلعة بهنسا والدربساك وغيرها من القلاع التى كان قد استولي عليها من مملكة حلب. كما عقدت هدنة بين السلطان بيبرس وأوك بن هري [هيو الثالث] صاحب قبرس وعكا (١٢٦٩-١٢٧٦)[٤١] لعشر سنين، وسير السلطان اليه هدية عشرين رجلا من أسارى انطاكية قسيسين ورهبانا[٤٢]. وصار موقف الصليبيين فى بلاد الشام فى غاية السوء؛ فقد اعتراهم الانحلال، وأنهكتهم الحروب الأهلية، هذا فى الوقت الذى فترت فيه الحماسة الصليبية فى غرب أوروبا. واستجد علي المجتمع الأوروبى الغربى من المستحدثات ما جعل الأوربيين يعيدون النظر في تلك التضحيات البشرية والمادية الضخمة، دون أن يصلوا الى نتيجة مشجعة، فى وقت كان فيه المماليك يدكون آخر المعاقل الصليبية على ساحل الشام[٤٣].

وفي عام ١٢٦٨م/٦٦٦هـ ، تفجر النزاع بين أبغا وبين مغول التركستان، وانشغل جزء هام من قواته في حروب علي الحدود الشرقية، في الوقت الذى لا يزال النزاع مستمرا علي حدوده الشمالية مع روسيا. وقد حاول أبغا ان يسعي الى مصالحة بيبرس، فأرسل اليه خطابا سنة ١٢٦٨م/٦٦٦هـ[٤٤]، يعرض عليه الصلح[٤٥]، غير أن الخطاب كان ذا لهجة تهديدية، فكان من جملة كتابه : " إن

الملك أبغا لما خرج من الشرق، تملك جميع العالم، وما خالفه أحد، ومن خالفه هلك وقتل. فأنت لو صعدت الى السماء، أو هبطت الـــى الأرض، مـــا تخلـــصت منـــا، فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحا "(٤٦). ولهذا رفض بيبرس المصالحة.

وبوصول مبعوث البابا لأبغا خان، قام الأخير علي الفـــور بإرســـال ســـفارة للغرب الأوروبى، بخطاب مؤرخ من أذربيجان، في الثالث مـــن أغـــسطس عـــام ١٢٦٨، فيه يدخل أبغا خان في تفاصيل مشروع التحالف المشترك، ويبلغ البابا أنـــه سيرسل أخاه أغاى Aghai علي رأس قوة كبيرة الى بلاد الشام، لينضم الي جـــبش البابا، عندما يرسو في قيليقية، كما أن حماه ميخائيل باليولوجس، سوف يقوم بإمداد الحملة الصليبية بالمؤن(٤٧). وان جيش البابا الذى سيتولي ملك فرنسا قيادته، وجيش ملك أرغون سوف يهاجمان المماليك من الناحية الأخرى، لحصار وتدمير عـــدوهما المشترك بينهما. وعندما وصلت سفارة أبغا، بصحبة المبعوث البابوى الـــي رومـــا عام ١٢٦٨م، وجدت أن كليمنت الرابع قد مات، ومن ثم ذهبت الي خايم الأول ملك أرغون وبقية ملوك غرب أوروبا(٤٨).

وفى أواخر ديسمبر ١٢٦٨م، أثناء وجود الملك خايم فى مدينة طليطلـــة لحضور الكريسماس، وصلته رسالة من جاقم الريك، المبعوث الذى كان أرسله من بربينيان الى خان المغول، يخبره بعودته الي الغـــرب، وبـــصحبته مبعـــوثين مـــن المغول، ومندوب من الامبراطور البيزنطى، لدعوته الى تنظيم حملة الـــى الـــشرق وغزو الأراضى المقدسة. وعرض خايم الأول دعوة المغول على الملـــك الفونـــسو العاشر ملك قشتالة، الذى لم يشجع مشاركته في هذه الحملة، وأجابه بأن هذا العمـــل عمل عظيم ومشرف، ولكنه محفوف بالمخاطر، ويصعب تحقيقه ، ولم يحقق أحـــد من الملوك النجاح في مشروع أو عمل يتعلق بغزو الأراضى المقدسة، فيمـــا وراء البحار والقبر المقدس، ونصحه بألا يثق في المغول أو في وعودهم، وحذره مـــنهم،

ووصفهم بالخداع، وعدم تنفيذ ما يتعهدون به، ونصحه ملك قشتالة بالعدول عن هذا المشروع، لبعد المكان، وطول المسافة[٤٩]. وبرغم ذلك كان خايم الأول متحمسا لتنفيذ هذا المشروع ولم يأخذ بنصيحة ملك قشتالة.

ورفض الملك الفونسو العاشر أن يشترك في الحملة، ولكنه عرض المساعدة فقط بالمال وبعض الفرسان، وقدم للملك خايم مائة ألف مرابطي من الذهب[٥٠]، ومائة فارس. وتلقي خايم وعدا بالمساعدة من قائد الاسبتارية في اسبانيا الأخ جونسلفو بريرو Brother Gonsalvo Perero ، وعرض دون بلاى بريز كوريا Don Pelay Perez Correa قائد منظمة سنتياجو مساعدته بمائة فارس من منظمته، وأيضا دون جونتالو بريرا Don Gonzalo Pereyra نائب عام منظمة القديس خوان في اسبانيا[٥١].

عاد الملك خايم من طليطلة الى مدينة بلنسية، وهناك استقبل جاقم الريك الذى اصطحب مبعوثي المغول، ومبعوثا آخر من الامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجس. وعرض مبعوثا المغول علي الملك خايم رغبة الخان فى مساعدته في حملة صليبية ضد الشرق، واقتراحات أبغا بخصوص غزو القبر المقدس، واقترحا على الملك خايم أن يذهب الى مدينة آياس Alayas[٥٢]، أو أى مكان آخر، وهناك ينتظره الخان الأكبر أبغا خان بالإمدادات التى يحتاج اليها، والميرة ومعدات الحرب، ثم يتجهون جميعا لغزو القبر المقدس. وكان هذا أول تحالف بين مملكة أرغون والمغول. بينما عرض مبعوث الإمبراطور البيزنطي رغبة سيده في مساعدة الملك خايم في حملته ضد الشرق، بإرسال الإمدادات التى يحتاج اليها بالبحر[٥٣].

وكان الملك خايم يحتاج لبعض الوقت للإعداد للحملة، وتنظيم شئون مملكته أثناء غيابه في الشرق، فقضي سبعة شهور مشغولا بالاستعداد للحملة، وقد طاف

بأنحاء مملكته لطلب مساعدة شعبه في الحملة، فذهب الي جزيرة ميورقة للاستعانة بالسفن الموجودة هناك ، وطلب من أهل المدينة المساهمة في نفقات الحملة، فساعدوه بمبلغ خمسين ألف سولدس فضة[٥٤]، وبهذه النقود أجر خايم ثلاث سفن. كما ساعده مشرف جزيرة مينورقة بألف ثور وبقرة ، بينما ساهمت مدينة برشلونة بمبلغ ثمانين ألف سولدس برشلوني[٥٥].

وفي أول أغسطس من عام ١٢٦٩/ أول ذي الحجة ٦٦٧هـ ، كان الملك خايم في مدينة برشلونة استعدادا للرحيل، وأعد اسطولا يتكون من ثلاثين سفينة كبيرة، وبعض السفن الأخرى الصغيرة والمراكب، جميعها قطالونية. وكان على متنها ثمانمائة أو أكثر من الفرسان والجنود، بالاضافة الي أساقفة برشلونة ووشقة ولاردة، وعدد من النبلاء والمغامرين، وقادة فرسان الداوية والاسبتارية ، وقائد الكانيس Alcaniz [٥٦] ، وأبناء الملك غير الشرعيين فرنان سانشيز Fernan Sanchez ، وبطره فرنانديز Pedro Hernandez [٥٧]. ويبدو ان الحروب الطويلة التي خاضها الملك خايم الأول ضد المسلمين في الأندلس لطردهم منها، قد أنهكته عسكريا وماديا، ما أدى الي عدم تمكينه من المساهمة وحسن الإعداد في حرب صليبية خارج شبه جزيرة ايبيريا.

ومن الواضح أن هذه الحملة ضعيفة في تكوينها، غير كاملة الإعداد، ولا تكفي لغرض حملة صليبية الي الشرق، فكانت تحتاج الي عدد كبير من السفن والقوات، بالإضافة الي كميات كبيرة من الإمدادات والمؤن ، فعندما قام الملك خايم بغزو جزيرة ميورقة، كانت استعداداته تفوق بكثير إعداده لحملته هذه. وربما يرجع قلة عدد قطع الأسطول والقوات الي اعتماد الملك خايم علي المساعدات التي وعده بها خان المغول، وامبراطور الدولة البيزنطية، ولعل هذا المشروع لم يجد استجابة أو تحمسا في أرغون.

وفي اليوم الرابع من سبتمبر ١٢٦٩، الموافق الأربعاء الخامس من محرم ٦٦٨هـ[٥٨]، أبحر الملك خايم من ميناء برشلونة، ولم يكد الأسطول يقلع حتي هبت ريح قوية، وفي الصباح كان الأسطول علي بعد خمسة وعشرين ميلا من مياه جزيرة منورقة، ومع غروب اليوم التالي، هبت عاصفة قوية مصحوبة بسقوط أمطار بعثرت الأسطول، واستمرت هذه العاصفة عدة أيام، وقد تحطمت دفة سفينة فرسان الداوية بسبب شدة العاصفة. ولما رأى الملك خايم عدم استقرار البحر، جمع فرسانه الذين كانوا معه في السفينة، وخاطبهم قائلا : " يبدو ان الرب لم يشأ لنا بالذهاب فيما وراء البحر، مثلما حدث من قبل، عندما أعددنا أنفسنا للذهاب الي هناك، استمرت العاصفة سبعة عشر يوما بعثرت الأسطول ولم نتمكن من جمعه"[٥٩].

وحينئذ التمس أسقف برشلونة وقادة الداوية والاسبتارية في أرغون، وزعماء برشلونة وقواد السفن والبحارة، من الملك خايم عدم مواصلة الرحلة، لخشيتهم من عواقب البحر، ونصحوا الملك بعدم المجازفة في مكان غير مأمون العواقب، ولكن الملك رأى ان مصير الحملة يتوقف علي حالة البحر والرياح، ومع شروق الشمس هبت رياح شرقية أعاقت الأسطول عن مواصلة الرحلة الي الشرق، فقرر الملك خايم العودة الي بلاده، وذلك في اليوم الرابع من العاصفة التي بعثرت السفن، ووصل جزء منها الي آسيا، وجزء دخل ميناء شرطانية Sardaigne. بينما دفعت الرياح سفينة الملك خايم الي ميناء إجمورت Aiques-mortes بجنوب فرنسا[٦٠].

ويبدو أن الملك الأرغوني كان محرجا من عودته دون استكمال الرحلة الي الأراضي المقدسة، ويخشي من توبيخ شعبه له، وخاصة أن هناك سفنا أخري واصلت الرحلة. فبعد أيام قليلة، ذهب الملك خايم الي مدينة مونبلييه Montpeller، واستدعي قناصل المدينة[٦١]، وما يقرب من خمسين أو ستين رجلا من زعماء

المدينة ، وخاطب الملك المجتمعين، وأخبرهم بالمعاناة والخطورة التي تعرض لهـا في البحر بسبب العاصفة الشديدة التى هبت في البحر، وأرغمتهم على العودة . وقد برر الملك خايم عودته بأن الرب لم يشأ له عبور البحر ، وأنه كـان مـضطرا ان يتراجع عن مشروع الحملة بعد ان فقدت سفينته ما لا يقل عن خمسة عشر فارسـا، بينما من السفن الأخري مايقدر بمائة رجل بين متوفي ومفقود(٦٢). ورجع الملك الي قطالونيا ومنها الي أرغون(٦٣).

وبالرغم أن الأسباب التي جعلت الملك خايم يتراجع عن حملته الي الأراضي المقدسة غير معروفة، إلا أن بعض المؤرخين ذكروا أنه عاد " بمـشورة امـرأة " بسبب حبـه لـدونيا برنجـويلا ألفونـسو Dona Berenguela (Berengiere) Alfonso التي كان لها تأثير علي زوجها بسحرها وجاذبيتها(٦٤). بينمـا الروايـة الاسلامية تتفق مع رواية الملك خايم بأن العواصف القوية بعثرت السفن، وأعاقتـه عن استكمال الرحلة الي الشرق، فتروي ان الله أرسل ريحا مزعجة، كسرت عـدة من سفائنه، ولم يسمع لهم خبر(٦٥).

وقد اكتفت المصادر الاسلامية بالاشارة الي التحالف الأرغوني المغولي ضد المماليك، من ذلك ما رواه ابن عبد الظاهر، في معرض حديثه عن إغارة الـسلطان علي عكا فيقول : " في هذه السنة ٦٦٨ هـ(٦٦) [١٢٦٩م] وردت جماعـة مـن الفرنج الغرب الي عكا، وتباشر الفـرنج وحـضرت الـيهم سـفائن يـذكرون أن الريدراكون [ملك أرغون] ، أحد ملوك الغرب، واصل اليهم بجماعة مقاتلة، ووصل أصحابه وأقاربه في هذه السفائن، وتوجهت رسله الى أبغا هلاؤن [ابـن هولاكـو] بأنه واصل لمواعدته، واتصلت الطرقات بينهما من جهة سيس. فأرسـل الله ريحـا مزعجة، أهلكت جماعة من سفائنه، ولم يسمع بعدها للمذكور خبر"(٦٧).

وبذلك فشل التحالف المغولي اللاتيني البيزنطي، ومما لا شك فيه، أن الملـك

خايم كان يمكنه مواصلة رحلته الي الشرق، بدليل وصول جـزء مـن الأسـطول الأرغوني الي ساحل عكا، بقيادة أبناء الملك غير الشرعيين بطره فرناانديز وفرنـان سانشيز. وفي ذلك الوقت من السنة في فصل اعتدال الخريف، كان يمكـن للملـك خايم أن ينتظر حتي استقرار العاصفة، ليلحق بأبنائه الذين واصـلوا رحلـتهم الـي الشرق. والحقيقة ان الكتب التي تحت أيدينا قد صمتت عن مصير هـذا التحـالف اللاتيني المغولي البيزنطي، هل كان تحالفا حقيقا أم أنها كانت وعودا كاذبة. وعلـي ما يبدو أن موقف المغول والدولة البيزنطية من هذه الحملة، لم يكن واضحا ، بـل كان يكتنفه الغموض.

على أى حال، تمكن جزء من الأسطول الأرغوني بقيادة أبناء الملـك غيـر الشرعيين بطره فرنانديز وفرنان سانشيزمن مواصلة الرحلة، بعدد من السفن يقـدر بثمان عشرة سفينة، تحمل نحو ٤٤٢ من الفرسان[٦٨]، ووصلوا الى عكا فى أواخر أكتوبر ١٢٦٩م[٦٩]، وكلهم تواق الي محاربة المسلمين، وشاركوا فى الـدفاع عـن عكا، وأمدوها بالمؤن، وجددوا بعض الأمل للفرنجة في فلسطين، ولكن تلك القـوة الأرغونية لم تستطع أن تفعل شيئا ذا أهميـة فـي مـساعدة الـصليبيين، بـسبب صغرها[٧٠]. فغادر غالبيتهم عكا بعد مضى شهر تقريبا، منتظرين وصول الملـك، بينما بقي مع أمراء أرغون أقل من مائتى فارس، واشتركوا في الدفاع عن عكا[٧١].

وترتب علي هذا التحالف اللاتيني المغولي، أن تواعد المغـول مـع الفـرنج الساحلية، علي القيام بهجوم مشترك علي بلاد الشام، وأغـاروا علـى الـساجور، بالقرب من حلب، فى نوفمبرعام ١٢٦٩م / ربيع الأول ٦٦٨هـ ، وفى ذلك يقـول المؤرخ ابن عبد الظاهر: " ولما بلغته [السلطان] حركة التتار، وأنهم تواعدوا مـع الفرنج الساحلية، وتقوى الفرنج بمن وصل اليهم من أصحاب الريـدراكون [ملـك أرغون] ، وأن التتار أغاروا على الساجور، قريبـا مـن حلـب، وعلـى جهـة

أخرى"[٧٢]. فخرج السلطان لمحاربتهم، ووصل الى دمشق فى الرابع من ديـــسمبر ١٢٦٩/ السابع من ربيع الآخر عام ٦٦٨هـــ، ولما سمع المغول بوصوله، انهزموا وارتدوا[٧٣].

ولما علم بيبرس بوصول السفن الأرغونية الي عكا، سرعان ما نقض الهدنة في منتصف ديسمبر عام ١٢٦٩م/ ربيع الآخر ٦٦٨هـــ، مع هيـــو الثالـــث ملـــك قبرص والقدس ، وقام بالاغارة على الصليبيين بعكا، وأعد كمينا للصليبيين خلـــف التلال الواقعة أمام أسوار عكا، فظهر مع ثلاثة آلاف رجل فى الحقول أمام عكـــا، وأخفى عددا آخر من الجند فى التلال. وشهد أمراء أرغون هذه الغارة، التي اشترك فيها فرسان الداوية والإسبتارية، ورغب الأمراء الأرغونيين فى الاسراع فى الحال لمهاجمة المسلمين الذين كانوا يكتسحون السهل، ويحاولون سحب الفرنجة خلفهـــم، وخرجت الكتيبة الفرنسية بقيادة روبرت دى كريسيك Robert de Cresecques، وأوليفر دى تيرم[٧٤] Olivier de Termes، للقيام بغارة عبر حـــصن مونتفـــورت Montfort ، شمال شرق عكا، ولمح هؤلاء المغيـــرون عنـــد عـــودتهم القـــوات الاسلامية، ورغب أوليفر دى تيرم في التسلل، دون أن يلحظه أحد خـــلال حـــدائق الفاكهة عائدا الي عكا، لكن القائد روبرت دى كريسيك أصر علي مهاجمة الأعداء، وأعلن انه جاء لكي يموت من أجل الرب في الأرض المقدسة ، ووقعوا في الكمين الذى نصبه بيبرس لهم، ودفع ثمن تهوره؛ وبعد قتال شديد انتهت المعركة بهزيمـــة الفرنج، ومقتل أحد أقارب ملك أرغون ولم ينج منهم سوى قلة ضئيلة[٧٥]. وقد حدد جروسيه هذه المعركة في ١٩ ديسمبر ١٢٦٩م/ ٢٢ربيع الآخر ٦٦٨هـــ[٧٦].

والمؤرخ ابن عبد الظاهر يروى بشئ من التفصيل هذه الغـــارة التـــي شـــنها السلطان بيبرس ضد مدينة عكا، والكمين الذى نصبه ووقع فيه الفرنج، والمعركـــة التي نشبت بين الطرفين الإسلامى والصليبى، فقال : " وخرج الفرنج الغرب، وأهل

عكا ، وخيموا بظاهر عكا، وصاروا يركبون وتعجبهم نفوسهم، وبلغهـم قلـة مـن وصل مع السلطان الي الشام، فتوهموا أنه لا يقصدهم ، فخرج السلطان متصيدا الي جهة الحارثية، وعاد مسرعا وتوجه علي أنه يتصيد في مرج برغـوث(٧٧)، ولمـا وصل في أثناء الطريق الي برج الفلوس سير مملوكه الأمير عـز الـدين معـن ، السلاح دار ، لإحضار العدد والجواشن ، وسير الأمير ركن الدين أناجي لإخـراج العسكر الشامي، وسير كلا من خواص السلطان غلاما لإحضار عدته. وفي بكـرة الثلاثاء الحادى والعشرين من هذا الشهر [ربيع الآخر / الثامن عشر من ديـسمبر ١٢٦٩م] تكامل الناس في مرج برغوث، وركب وساق ، فوصل جـسر يعقـوب عشية النهار، وساق فأصبح الصبح والسلطان بأول المرج ، وكان قـد سـير الـي الأمير جمال الدين الشمسي مقدم عسكر عين جالوت، والى الأميـر عـلاء الـدين ايدغدى مقدم عسكر صفد، بالإغارة في ثاني وعشرين من الشهر [التاسع عشر من ديسمبر] ، وانهم ينهزمون قدام الفرنج ، فخرج جماعـة مـن الفـرنج ، مقـدمهم كندلوفير [المقصود كونت اوليفر] المسمي بزيتـون، وفـيهم أقـارب الريـدراكون وغيرهم من الغرب، ودخل السلطان الكمين، فعندما خرج الفـرنج لقتـال العـسكر الصفدى تقدم الأمير عز الدين إيغان الركني، وبعده الأمير جمال الـدين الحـاجبي ومعهما أمراء الشام ، وساق قدام السلطان الأمير سيف الـدين ايـتمش الـسعدى، والأمير علاء الدين كند غدى، أمير مجلس، الظاهرى، ومعهما مقدمو الحلقة، وقاتل الأمراء الشاميون أحسن قتال، وأمسك الأمير عز الدين ايغان فارسا اسمه ريمـون دكول. وأما السلطان ومن كان قدامه من الأمراء المذكورين، فمـا وصـلوا الـي الأمراء المتقدمين إلا والعدو قد انكسر، فلم يحصل لهم اختلاط، وكان القتال شـديدا تماسكا بالأيدى، وبقيت الخيالة والخيل مطرحين في المرج، وأكمن زيتـون فحـال العسكر بينهم، وأخذوا عليه وعلي أكابر الفرنج حلقة، وقتل أخو زيتون، وأسر ابـن

اخت الري دراكون، وجماعة من الخيالة المحتشمين لم يؤسر مثلهم إلا فـي نوبـة المنصورة الأولي، وقتل نائب فرنسيس بعكا، ولم يعدم من عسكر الإسلام إلا الأمير فخر الدين الطوبنا الفائزي. وعاد السلطان ورؤوس القتلي قدامه، الى صفد، وتوجه منها الي دمشق ، فدخلها يوم الأحد سادس عشرين الشهر، والأسرى والرؤوس بين يديه، وخلع علي الأمراء "[٧٨].

ولما وجد أمراء أرغون خطورة موقفهم، ولم يجدوا أى مساعدة فى عكـا، لا من الامبراطور البيزنطي، ولا من خان المغول ، قرروا العودة الى أرغون، خاصة بعد أن لمسوا حالة الضعف التى انتابت الفرنج هناك، ورجعوا الـى أرغـون فـي فبراير عام ١٢٧٠م عن طريق جزيرة كريت وصقلية، دون تحقيق أى أهداف[٧٩]. وهكذا لم يوفق الأطراف المشتركة فى الحملة الى تنظيم عمل مشترك ضد مـصر، وكان مشروع الحملة اللاتينية المغولية البيزنطية وعدا لا سبيل لتحقيقه، وظلت كفة الميزان فى صالح المماليك.

وفشلت خطة أبغا المقترحة للحملة، ولم ينضم للصليبيين، وفشلت الحملة فـي إنجاز تحالف مع أبغا الذى كان مشغولا في الوقت ذاته، في ديسمبر ١٢٦٩ بالدفاع عن إقليم خراسان ضد غزو أبناء عمومته مغول تركستان بقيـادة الأميـر بركـة خان[٨٠]، ولذلك لم يقدم سوى وعودا غامضة، كما انشغل بحرب أخري، بعد قليـل، مع أبناء عمومته آل جغطاى الذين أغاروا علي أراضيه الشرقية في عـام ١٢٧٠، وبعد انتصاره عليهم ، كتب للملك لويس يتعهد بتقديم مساعدة عسكرية فور وصول الحملة الصليبية الى فلسطين، ولكن الملك لويس ذهب الى تـونس عـام ١٢٧٠م، حيث لا يستطيع المغول مساعدته، ومات الملك لويس هناك. وفى السنتين التاليتين، كانت المهمة الرئيسية لأبغا، هى إعادة فتح خطوط المواصلات مع عمـه وسـيده الأعلى الخان الأعظم قوبيلاى في الصين[٨١]. وهكـذا انتهـي التحـالف اللاتينـي

المغولي البيزنطي بالفشل، وكان تفوق بيبرس السياسي والحربي عاملا من عوامــل فشل هذا التحالف.

واستأنف بيبرس جهاده ضد الصليبيين، فأغار علي المرقب، واســتولي فــى عام ١٢٧٠م/ ٦٦٩ هــ علي المنافذ المؤدية الي مدينة طرابلس، فاســتولي علــي صافيتا في يناير ١٢٧١/ جمادى الآخرة ٦٦٩، وحصن الأكراد في أبريل/ شــعبان من العام نفسه، وحصن عكار فى مايو/ رمضان من العام نفسه، ثم قصد الــسلطان طرابلس، ولما نزل بها ، أرسل بوهيموند السادس فى طــرابلس، يطلــب الــصلح والمسالمة، فأجابه السلطان وعقدت الهدنة فى مايو ١٢٧١/ شوال ٦٦٩هــ لمــدة عشر سنين وعشرة شهور وعشرة أيام[٨٢]. وقد اضطر بيبرس الي عقد الصلح مــع صاحب طرابلس، لأن فى ذلك الوقت وصلت الي عكا، فــى التاســع مــن مــايو ١٢٧١م، حملة انجليزية بقيادة الأمير ادوارد[٨٣] ــ ملك انجلترا فيما بعد ــ لإنقــاذ الصليبيين في الشام.

ثم اتجه بيبرس الى صفد ، ومن هناك هاجم قلعة القــرين أو مونتفــورت ــ شمال شرقى عكا ــ المجاورة ، واستولي علي القــرين فــي يونيــه ١٢٧١م/ ذى القعدة ٦٦٩ هــ . وأرسل بيبرس حملة بحرية لغزو جزيرة قبرص عــام ١٢٧١/ ٦٦٩ هــ ، ولكن هذه الحملة تعرضت لريح عاصفة هبت علي السفن الإســلامية، فحطمتها قرب ميناء ليماسول[٨٤].

أما عن حملة الأمير ادوارد، فقد كان ينوى الانضمام الى الملك لويس التاسع في تونس ومواصلة الإبحار معه الى الأراضي المقدسة، لكن عند وصــوله وجــد الملك لويس قد مات، فوصل الي عكا في مايو عام ١٢٧١، ولما كانت القوة التــي أحضرها الأمير إدوارد معه صغيرة ــ حوالى ألف رجل ــ فإنه فكر في محالفــة المغول لقتال المسلمين[٨٥]، وأرسل بمجرد وصوله الي عكا سفارة الي أبغــا خــان

مغول فارس لهذا الغرض، مكونة مـن ريجنالـد روسـيل Reginald Russel ، وجودفرى ويليس Godfery Welles، وجون باركر John Parker . وقد جـاء رد أبغا في أوائل سبتمبر عام ١٢٧١ يتضمن وعـدا بالحـضور للاشـتراك مـع الصليبيين في محاربة المماليك. ولما كان أبغا مشغولا بمحاربة مغول التركـستان، فاكتفي بإرسال بعض الجموع المغولية من الأناضول بقيادة صـمغار Samaghar في أواخر اكتوبر ١٢٧١م/ ٦٧٠هـ الي شمال الشام ، فـاتجهوا جنوبـا، مـرورا بمدينة عين تاب داخل سوريا، ثم الى حلب، ففرت الحامية المملوكية الـى حمـاة، فتقدمت القوات المغولية فى إثرهم حتى معرة النعمـان وأفاميـة، وهـؤلاء قـاموا بإغارات لمجرد السلب والنهب، في حوض نهر العاصي ، ثم عادوا من حيث أتـوا قبل أن يصل اليهم بيبرس(٨٦). ومن الملاحظ أن إدوارد لـم يتقابـل مـع القـوات المغولية، ولم يكن هناك أى تنسيق فى العمليات العسكرية(٨٧).

وفي تلك الأثناء، وقع اتفاق بين الفرنج بالشام والمغول، لـشن غـارة علـي المسلمين، ففي نوفمبر عام ١٢٧١م/ جمادى الأولي ٦٧٠ هـ ، أغار الفرنج علـي قاقون، وكانت الغارة باتفاق مع المغول. ولما بث السلطان العساكر فـي الجهـات المذكورة ، انكف المغول ، وولى الفرنج الأدبار(٨٨). وهذه كلها غـارات محـدودة الأثر والأهمية. ووصلت رسل الفرنج بعكا تطلب الهدنة مـن الـسلطان بيبـرس، وعقدت الهدنة فى ابريل ١٢٧٢/ رمضان ٦٧٠ لمدة عشر سنين وعشرة أشهر(٨٩).

ومن الواضح ان الحلفاء الثلاثة الانجليز والفرنج والمغول ، لم يتجروأ علـى القيام بهجوم واسع على المماليك، واضطر الأمير ادوارد الي عقد هدنة مع بيبرس، فى مايو ١٢٧٢/ شوال ٦٧٠ مدتها عشر سنوات، وفي يونية من العام نفسه، تسلل أحد الحشيشية الى مقر الأمير ادوارد، وطعنه بخنجر مسموم . فغادر عكـا فـور شفائه في سبتمبر ١٢٧٢م/ ٦٧١هـ ،عائدا الي الغـرب بعـد ان تعـذر إصـلاح

أوضاع الصليبيين بالشام[٩٠]. وبعد ذلك أسرعت بقية المدن والقلاع الصليبية بطلب هدنة مماثلة من بيبرس. وهكذا لم يؤد التحالف اللاتيني المغولي الي نتائج مرضية.

ثم جدد المغول طلب الصلح، ووصل الى بيبرس رسل البرواناه[٩١]، ورسول صمغار مقدم المغول في طلب الصلح، فأرسل بيبرس معهم بعض الهدايا، ولكنه رفض الصلح مع المغول. مما جعلهم يجددون هجماتهم علي البيرة والرحبة في أكتوبر ١٢٧٢/ ربيع الأول ٦٧١ هـ ، فتوجه بيبرس من دمشق، ووصل الى الفرات، وعبر بجنوده نهر الفرات، وانتصر علي المغول الذين سريعا ما تقهقروا تاركين معداتهم[٩٢].

وهكذا، في الوقت الذى ضعف فيه الصليبيون بالشام ، فترت فيه الحماسة الصليبية في غرب أوروبا، ولهذا سعى البابا جريجورى العاشر (١٢٧١-١٢٧٦) علي إحياء الروح الصليبية، فدعا الي عقد مجمع يعقد فى مدينة ليون في مايو ١٢٧٤. غير أن ملوك العالم المسيحي تجاهلوا الدعوات الملحة المرسلة اليهم، إذ اعتذر فيليب الثالث ملك فرنسا عن الحضور، وحتي إدوارد الأول كان مشغولا بأموره الداخلية، ولم يظهر فى مجمع ليون سوي خايم الأول ملك أرغون[٩٣].

فعندما تلقى الملك خايم دعوة من البابا جريجورى العاشر، بحضور مجمع ليون عام ١٢٧٤، لمناقشة الإعداد لحملة صليبية الى الأراضي المقدسة، سارع بالذهاب الى هناك. وشارك في هذا المؤتمر قائد الداوية في فلسطين، وعدد كبير من الأساقفة، ورؤساء الأديرة، ورجال الدين والبارونات، ومندوبون عن ساداتهم، سواء كانوا ملوكا أو أمراء[٩٤]، كما حضر المجمع وفد من قبل الامبراطور ميخائيل الثامن باليولوجس، ووفدا آخر من قبل أبغا خان المغول للمشاركة في أعمال المجمع، ويبدو أن وصولهم كان متأخرا ، بعد انصراف الملك خايم من المجمع، لأنه لم يشر في مدونته عن وصولهم.

عقد مجلس ليون أولى جلساته فـــي اول مـــايو ١٢٧٤م، وكـــان موضـــوع المؤتمر "استرجاع القبر المقدس" ، وبدأ البابا يتحدث عن الأراضي المقدسة، ودعـــا الي ضرورة العمل علي استرجاع القبر المقدس من المسلمين ، ومنح الغفران عـــن جميع الخطايا لكل الصليبيين الذين يشتركون فى هذا العمل، والذين يـــسهمون فـــي نفقات الحملة(٩٥).

ثم تحدث الملك خايم في المؤتمر، ودعا الحاضرين الى العمل على اســـترداد القبر المقدس فيما وراء البحار، موضحا أنه حضر لسببين؛ أولهما : تلبيـــة دعـــوة البابا، وتقديم المشورة، وإبداء النصيحة بخصوص إعداد حملة صليبية الـــى الأرض المقدسة، والسبب الآخر: تقديم المساعدة . ونوه الملك خايم الى أنه لم يحضر هـــذا المؤتمر أحد من ملوك أوروبا سواه ، وعرض علي المجتمعين نصيحته، بخصوص إعداد حملة صليبية الي الأرض المقدسة، فاقترح أن يقوم البابا بإرسال خطابات فى الحال الي قادة الداوية والاسبتارية فى فلسطين، والي ملك قبرص، والي مدينة عكا ليعلمهم بالغرض الذى من أجله عقد هذا المجلس وقتذاك، وهو العمل علي استرداد الأرض المقدسة فيما وراء البحار؛ كما نصح البابا ان يقوم بإرسال أول فرقة تتألف من خمسمائة فارس، وألفين من المشاة الى الأراضي المقدسة في الحال، تلك الفرقة كطليعة أمامية، وإعداد فرق أخرى للعبور الي هناك، الفرقة الأولي تكون مهمتهـــا القيام بتحصين القلاع الصليبية، والأماكن التي تحتاج الي تحصين، والبقـــاء هنـــاك لحين وصول الحملة الكبيرة أو القوات الصليبية بعد سنتين من يوم القـــديس يوحنـــا القادم؛ أى في يونية ١٢٧٦م . أما بخصوص المساعدة التي يقدمها الملك خايم، فقد عرض أن يمنح العشور من أملاكه، مثلما يسهم الأساقفة بعشور أسقفياتهم، كما أنه يعتزم اصطحاب البابا بألف فارس، في حالة ذهاب البابا الي الأراضى المقدسة(٩٦).

ويبدو أن الاقتراحات الحربية التي عرضها الملك خـــايم لـــم تؤخـــذ بعـــين

الاعتبار، وربما لم يستحسنها بعض الحاضرين في المؤتمر؛ لأنهـم كـانوا أكثـر معرفة منه بشئون الشرق. واستمرت المناقشات في المجلـس، بخـصوص تـدبير المؤن والإمدادات ومعدات الحرب والقوات العسكرية.

وانتهز الملك خايم هذه الفرصة لتتويجه في المجلس، بدلا من تتويجـه فـي روما، فأرسل الى البابا رسولا برغبته فى تتويجه، فطلب البابا من الملك خايم تأكيد الضريبة التي دفعها من قبل والده الملك بطره الثاني الكاثوليكى (١١٩٦-١٢١٣) عن مملكة ارغون عندما توج في مدينة روما عام ١٢٠٤م، والتـي كانـت تقـدر بمئتين وخمسين مصموديا[٩٧]، ودفع المتأخرات، منذ عهد الملك بطره حتي وقتذاك، وأن يتعهد بما تعهد به والده[٩٨]. واندهش الملك خايم من مطالب البابـا، ورفـض تتويجه حتي لا يلزم نفسه وأبناءه من بعده بمثل هذا التعهد، وأجاب قائلا : " ... انا حضرت هذا المجلس البابوى، لخدمة الرب وكنيسة روما، ولـيس لألتـزم بـدفع ضريبة ". وفضل العودة الي بلاده ــ دون تتويج ــ من أن يتعهد بـدفع الـضريبة للبابوية، وغادر مدينة ليون بعد أن مكث بها حوالى عـشرين يومـا، وعـاد الـي قطالونيا (٩٩).

ويعلق رانسيمان علي موقف الملك خايم، في مجمع ليون، فيقول: " فهو عجوز ثرثار، لم يحقق شيئا في محاولته الأولي للقيام بحملة صليبية ضد الـشرق، لكنه كان صادق التلهف علي وسيلة مدوية للانطلاق في مغـامرة أخـرى، لكنـه سرعان ما أصابه الضجر من المناقشات، وسارع عائدا الي أحضان عشيقته اللادي برنجاريا "(١٠٠).

ووافق الحاضرون فى المجلس علي الإعداد لحملة صليبية تتحالف مـع المغول، وأن يتم جمع عشر الدخل من أجل استعادة بيت المقـدس. وفـي الجلـسة المنعقدة يوم ٦ يوليو ١٢٧٤، وعدت وفود من الامبراطـور البيزنطـي ميخائيـل

باليولوجس بالعمل علي إخضاع كنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية لتعاليم كنيسة روما الكاثوليكية؛ إذ كان ميخائيل الثامن مرعوبا من طموحات شارل الأنجوى(١٠١). الذى وجه سياسته نحو مشروع غزو القسطنطينية، ومحاولة اكتساب صداقة السلطان بيبرس(١٠٢). وفيما بعد، تدخل البابا وعقد هدنة بين شارل الأنجوى وميخائيل الثامن في اول مايو ١٢٧٥م(١٠٣).

وقد أرسل أبغا خان سفارة لحضور مجمع ليون ، وقدم البابا سفراء أبغا خان للحاضرين في نهاية الجلسة الرابعة لأعمال المجمع في يوم ٧ يولية ١٢٧٤، حيث تليت رسالة الايلخان المغولي باللغة اللاتينية، ومضمونها إن الخان يريد التحالف مع المسيحيين التابعين للكنيسة الرومانية، وطلب ثلاثة من سفراء المغول من البابا تعميدهم علي المذهب الكاثوليكي، وتم ذلك أمام المجمع. ثم انصرفت السفارة، دون أن تظفر بوعد عن حملة صليبية جديدة، تخرج من الغرب لمحاربة المسلمين(١٠٤).

وعلي الرغم من الجهود التي بذلها البابا جريجوري العاشر لتهيئة المناخ في أوروبا، للقيام بحملة صليبية للشرق، وبينما كان الجميع علي استعداد للحديث عن الحملة الصليبية، لم يتقدم أحد بعروض ذات فائدة لإطلاق تلك الحملة الصليبية، وأن الوعود التي تلقاها البابا من الأمراء العلمانيين كانت مجرد شعارات، لم تجد طريقها للتنفيذ؛ لانشغال كل منهم بمشاكله الداخلية، وهكذا قد باءت خطط البابا جريجورى كلها بالفشل(١٠٥).

وهذا يدل علي اضمحلال الروح الصليبية، وفتور الحركة الصليبية في الغرب الأوروبى، ويمكن الاستدلال علي هذا الفتور، من قصيدة كتبها شاعر فرنسي معاصر لأحداث تلك الفترة، يدعي رتبوف Rutebeuf (١٢٤٥- ١٢٨٥م)، يقول فيها إنه من الحماقة أن يخاطر الإنسان في حرب دينية خارج بلاده، طالما كان بوسعه أن يتصل بالله في وطنه، ويعيش في نعمة وسلام، ويسخر الشاعر في

القصيدة من رجال الدين الذين جعلوا مـن الحـروب الـصليبية وسـيلة لابتـزاز الأموال[١٠٦].

واستمر المماليك في التوسع في الشرق الأدني، من ذلك ما قام به بيبرس في عام ١٢٧٥/ ٦٧٤ هـ ، فأغار علي بلاد سيس ومرعش؛ لأن صاحب سيس خالف شروط الهدنة، ثم رحل بيبرس الى المصيصة وآذنه. كما استـولي علـي حـصن القصير – جنوبي انطاكية – في نوفمبر ١٢٧٥/ جمادى الأولي ٦٧٤ هـ . وبعـد ذلك بقليل، وصل المغول الي البيرة وحاصروها، وعندما علموا أن السلطان بيبرس في طريقه اليهم، وهنوا ورحلوا عنها[١٠٧].

وقرر بيبرس أن ينتقم من المغول وغزوهم لبلاد الشام، فتوجـه الـي غـزو سلاجقة الروم بالأبلستين[١٠٨]، وكان وصوله اليها فـي فبرايـر ١٢٧٧م/رمـضان ٦٧٥هـ، ورتب جيشه، واشتبك مع الجيش المغولي وهزمه وقتل ما يقـرب مـن سبعة آلاف من المغول، ثم دخل مدينة قيسارية عاصمة سلاجقة الروم، وجلس فـي مرتبة السلطنة، وأما معين الدين سليمان البرواناه فقد هرب وتوجه الي توقات[١٠٩]. وبعد رحيل بيبرس الى الشام، وصل أبغا الي موضع المعركة، وشاهد جميع القتلـي من المغول، ولم يكن فيهم أحد من السلاجقة، فغضب وأيقن ان البرواناه واطأ عليهم المسلمين، فأمر بقتله[١١٠].

مما سبق يتضح أن زمام الموقف كان فى قبضة المماليك، بينما المغـول لـم يكن في إمكانهم الدفاع عن أنفسهم أو عن أتباعهم، أو مساعدة الإمارات الـصليبية في بلاد الشام، مما يدل علي فشل التحالف اللاتيني المغولي البيزنطي ضد السلمين. وأعاد أبغا إرسال سفارة عاجلة للبابوية ولملوك الغرب الأوروبـي، واعـدا إيـاهم التحالف معهم ضد المسلمين، والانضمام الي قواتهم فور وصولها الي الشرق[١١١]. ويبدو أنه لم يستجب أحد من ملوك الغرب الأوروبى. ولم يلبث أبغا أن شـغل بعـد

ذلك باضطراب أحوال بلاد فارس، مما صرف نظره ـ مؤقتا ـ عن فكرة مهاجمة المماليك.

وفى عهد أسرة قلاوون استمر الصراع بين المماليك ومغول فارس والصليبيين، وكانت كفة الميزان فى صالح المماليك، فتمكن السلطان المنصور سيف الدين قلاوون (١٢٧٩-١٢٩٠/ ٦٧٨-٦٨٩ هـ) من هزيمة المغول جهة حمص فى عام ١٢٨١م/ ٦٨٠ هـ[١١٢]، كما استولى على حصن المرقب من الفرنج فى عام ١٢٨٥/ ٦٨٤، واستولى على طرابلس عام ١٢٨٩/ ٦٨٨ ، ثم استولى الأشرف خليل (١٢٩٠-١٢٩٣/ ٦٨٩-٦٩٣) على مدينة عكا عام ١٢٩١/ ٦٩٠، ومدن صور وعثليث وبيروت وصيدا وحيفا، وتوجه أهل هذه البلاد الى جزيرة قبرص[١١٣]. ثم توجه الأشرف خليل لمحاربة المغول، وسار على رأس جيش كبير الى قلعة الروم، وقام بحصارها عام ١٢٩٢م/ ٦٩١هـ ، الى ان استولى عليها ، وأمر بأن تسمى قلعة المسلمين الأشرفية بدلا من قلعة الروم[١١٤].

وكلل جهاد المماليك بطرد اللاتين من بلاد الشام، وبرغم ذلك استمرت فكرة الحروب الصليبية نحو قرن من الزمان، واستمرت فكرة غزو الأراضي المقدسة حلما من أحلام اللاتين فى الغرب الأوروبي، بينما استمرت السياسة العدائية لمغول فارس نحو المماليك ومحاولة تحقيق حلمهم القديم، وهو الاستيلاء على مصر والشام.

واستغل السلطان محمود غازان سلطان المغول (٦٩٤-٧٠٣/ ١٢٩٤-١٣٠٣) فترة الضعف، التى سادت مصر أثناء اغتصاب عرش الناصر محمد بن قلاوون (١٢٩٣-١٣٤٠/ ٦٩٣-٧٤١)، وقام بغزو بلاد الشام عام ١٢٩٩م/ ٦٩٩هـ، وانتصر غازان علي المماليك في موقعة مجمع المروج، وهو مكان يعرف بوادى الخزندار، بالقرب من مدينة حمص، واستولي المغول علي مدينة

حمص ودمشق، ولكن غازان اضطر للانسحاب من الشام، والعـودة الـى إيـران، لمواجهة هجوم مغول الجغطاى، على الحدود الشرقية لإيران. وبعد قليـل عـادت سورية الى حوزة المماليك، وانسحب المغول منها[١١٥].

وكان لهذا الانتصار المغولي رد فعل كبير فـي أوروبـا، وتفـاعل حكامهـا بالكثير، فقد وصلت الأخبار الي أوروبا، أن الخان غازان قد استولي علي كل بـلاد الشام ومصر أيضا، وأنه أعاد الأراضى المقدسة الـي جماعـة فرسـان الداويـة والاسبتارية، وأنه وضع الضريح المقدس في حماية جماعة الرهبـان الـدومنيكان. وسارت الشائعات في أوروبا، أن سقوط الأراضي المقدسـة يرجـع الـي تعـاون عسكرى بين المغول وحكام الامبراطورية البيزنطية وملكـي قبـرص وأرمينيـا. والحقيقة ان الجانب الذى ينسب الي أوروبا في هذا الموضوع قد بولغ فيـه بقـدر كبير جدا وينافي الحقيقة. ولكن هناك بعض الحقيقة حول هذه المـساعدة، وترجـع هذه الشائعة الي انه في عام ١٣٠٠-١٣٠١ أرسل هنرى الثـاني لوزجنـان ملـك قبرص (١٢٨٥-١٣٢٤) بعض قطع الأسطول يساعده في ذلك جماعـة فرسـان الداوية والاسبتارية وهاجموا مدينة رشيد حيث وقعت بعض المناوشات[١١٦].

وبعد استيلاء غازان علي الشام، أرسل خايم الثاني ملـك ارغـون (١٢٩١-١٣٢٦) خطابا مع سفيره بدرو سوليفير Pedro Soliver الي غازان مؤرخا فـي ١٨ مايو عام ١٣٠٠، ليعرض عليه الصداقة والتحالف ضد المماليك، وفيه يعرض ملك أرغون على الخان المغولي مساعدته في غزو بيت المقدس والاستيلاء عليـه من أيدى المسلمين، وأعلن استعداده بتقديم الـسفن والرجـال والفرسـان والمـؤن اللازمة لجيش المغول. وفي مقابل ذلك، طلب خايم الثاني من غازان إعطاءه خمس الأراضى المقدسة التي استولي عليها، وأن يحصل علي جزء من الأراضى التي يتم غزوها. والتصريح لرعاياه بالسفر الي سوريا والتجـوال بهـا، وزيـارة الأمـاكن

المقدسة دون دفع أية ضرائب أو رسوم. وطلب من غازان ان يتولي الـدفاع عـن المسيحيين المقيمين بتلك المناطق، وعلي الأخص رعايا مملكة أرغون. ويشير خايم الى أنه قد أمر رعاياه الراغبين في الذهاب الي هذه الأراضى، بأنه لا عـائق أمـام ذهابهم وانضمامهم الي الجيش المغولي(١١٧). ولم ينفذ الملك خايم الثـاني الوعـود بالنجدة التى عرضها علي غازان(١١٨).

وقام غازان بحملته الثانية علي بلاد الشام عام ١٣٠٠ / ٧٠٠هـ، ووصـل الى حلب، وفى ذلك الوقت، هطل المطر بغزارة، فى ذلك الشتاء، واشـتد البـرد وكثر الوحل، فهلك كثير من جنود المغول ودوابهم، واضطر غازان الى العودة الي بلاده(١١٩).

وفي عام ١٣٠٣م / ٧٠٢هـ قرر غازان القيام بحملته الثالثة علـي الـشام، وقاد جيشه وعبر الفرات، ووصل حتى مدينة الرحبة علي الـساحل الأيمـن لنهـر الفرات، ثم عاد الى ايران، بعد أن ترك مهمة فتح سورية الى قائده قتلغ شاه، بسبب تهديد حدوده الشرقية. والتقي الجيش المغولي بجيش السلطان الناصر محمد، عنـد مرج الصفر، جنوبي دمشق، فدارت الدائرة علي المغول فى هذه الموقعـة، وهلـك عدد كبير منهم، وتشتت شملهم. ولما وصلت أنباء هزيمة الجـيش المغـولي الـي غازان، فكان لها أسوأ الأثر في نفسه، ومات غازان في مـايو ١٣٠٤(١٢٠). وبعـد هذه الموقعة ، سرعان ما تلاشى أمل توحيد جهود اللاتين والمغـول والبيـزنطيين، فى حملة مشتركة ضد المسلمين.

ومما سبق يتضح ان المحاولات التى قام بها المغول فـي سـبيل إخـضاع سورية، قد باءت بالفشل، وتدل على ان المغول لم ينسوا وعودهم، واستمر يحسب حسابهم فى المشروعات الصليبية(١٢١). وأخذ يتردد السفراء المغول فـي بلاطـات البابوية وملوك أوروبا، يعرضون التعاون العـسكرى المغـولي الأوروبـي ضـد

المماليك، إلا أن ملوك أوروبا كانوا مشغولين بمشاكلهم الداخليـــة، فلـــم يعطـــوا إلا وعودا فقط بإعداد حملة صليبية ضد المسلمين في الشرق، بالتحالف مـــع المغـــول، ومحاولة استرداد بيت المقدس، ثم عقد الصلح بـــين المماليـــك والمغـــول، وجـــنح الفريقان للسلم، وأخذ ينتشر الإسلام بين المغول ، وخفف اعتناق المغـــول للإســـلام من حدة العداء بينهم وبين المماليك.

أما بالنسبة للدولة البيزنطية، فقد تخلصت من تهديد شارل الأنجوى، عنـــدما شبت ثورة في جزيرة صقلية عرفـــت باســـم " الـــصلوات الـــصقلية Visperas Sicilianas " فى غروب يوم ٣٠ مارس عام ١٢٨٢م، ضـــد الجنـــد الفرنـــسيين بالجزيرة، وأرسل الصقليين الي بطـــره الثالـــث ملـــك أرغـــون (١٢٧٦-١٢٨٥) لمساعدتهم، والمطالبة بحقـــوق زوجتـــه فـــي تـــاج الجزيـــرة الأميـــرة قنـــستانزا Constanza ، ابنة منفرد ووريثته في صقلية وجنوب إيطاليا. ووصل بطره الثالث الي بالرمو، وتم تتويجه ملكا علي الجزيرة، وحققت قواته انتصارات برية وبحريـــة علي القوات الفرنسية، وتأكدت سيطرة بطره علي الجزيرة. وأدت هذه الثورة الـــي انفصال جزيرة صقلية عن مملكة نابلي الفرنسية، وقضت علي مـــشروعات شـــارل الأنجوى ضد الدولة البيزنطية[١٢٢].

وفي هذه المرحلة وجد الملك خايم الثانى أن مصالح بـــلاده تقتـــضى توثيـــق الروابط مع مصر، وحرص ملوك أرغون علي إقامة علاقات طيبة مـــع ســـلاطين المماليك، وكانت الظروف السياسية والمصالح التجارية عاملا هاما مـــن العوامـــل التي ساعدت علي التقارب بين الطرفين، وإقامة علاقات دبلوماسية مـــع ســـلاطين المماليك، وأخذت السفارات تتوافد الي مصر، في مهمات سياسية ودينيـــة وأخـــرى تجارية[١٢٣].

وواجهت الدولة البيزنطية تـــهديدا شديدا من الأتراك العثمانيين، علي الجبهة

الشرقية، فاضطر الإمبراطور البيزنطي أندرونيق الثـاني (١٢٨٢-١٣٢٨)، فـي عام ١٣٠٣ الي الاستعانة بفرقة من الجند المرتزقة من القطلان الأسـبان، بقيـادة روجر دى فلورRoger de Flor ، قائد المرتزقة في صقلية، وحققت هذه العـصبة القطالونية بمساعدة بعض فرق الجيش البيزنطي، بعض الانتصارات البسيطة فـي آسيا الصغرى ضد الأتراك ، ونجحت في إيقاف الزحف التركـي، وامتـد النفـوذ القطلاني الي الشرق، وتم تأسيس الشركة القطالونية في اليونـان[١٢٤]. كمـا عقـد الامبراطور اندرونيق تحالفا مع دولة المماليك ضد الأتراك العثمانيين[١٢٥].

أما بالنسبة للدولة المملوكية، فقد أصبح لمصر مركزا ممتازا في نظر ملـوك أوروبا، وقامت علاقات سياسية بين معظم ملوك أوروبا، وبين سلاطين المماليـك ، وخاصة في عهد السلطان الناصر محمد، وتردد على بلاطه رسل من مغول فارس، والقبيلة الذهبية، وأرمينية وبيزنطة، وملوك الغرب والفرنج.

وهكذا نجد أن المحاولات التي بذلها المسيحيون من أهل الغـرب والـشرق، لاجتذاب المغول إليهم سياسيا ودينيا أخذت تتضاءل شيئا فشيئا، ولم تؤد في النهايـة الي النتيجة المرجوة منها. وضعف أمل الإتحاد بين أوروبا والمغول وبيزنطة ضـد الإسلام. ولم يلبث أن تحطم هذا الأمل نهائيا عندما اعتنق ايلخانـات المغـول فـي أوائل القرن الرابع عشر الميلادي، الدين الاسلامى، وأعلن الاسـلام دينـا رسـميا لامبراطوريتهم الواسعة، وكان هذا نصرا للإسلام علي المسيحية والمغول[١٢٦].

الخاتمة :

ومما سبق يتضح ان مملكة ارغون بعد ان تولت مهمة طرد المـسلمين مـن جانب كبير من الأراضى، فى شبه جزيرة ايبيريا، أخذت تـشارك فـي الحـروب الصليبية في المشرق الاسلامي، وربما كان الامتداد الأرغوني مـن صـقلية الـي شرقي البحر المتوسط ، جعل البلاط الأرغوني يفكر في إقامة كيان سياسي أرغوني

في الشرق، بجانب الامتداد القطلاني التجارى هناك، لتأمين التجارة القطالونية في شرق البحر المتوسط . وفرضت المصالح التجارية اتخاذ سياسة التقارب الى المماليك ، وقامت علاقات سياسية بين المماليك وملوك أرغون، ترتب عليها حصول مملكة أرغون علي امتيازات تجارية ودينية في الدولة المملوكية.

ولا شك، أن انشغال مغول فارس بالحروب سنوات طويلة مع مغول روسيا من ناحية، ومع مغول التركستان من ناحية أخرى. فضلا عن كثرة الخلافات والمنازعات حول السلطة، كل ذلك حال دون تفرغ ايلخانات فارس للاستيلاء على الشام أو تنفيذ خطط التحالف مع الأوربيين ضد المماليك[١٢٧].

بينما انصرفت بيزنطة الي مشاكلها الداخلية والحدودية، ومواجهتها لقوة الأتراك العثمانيين. ولم يظهر لها أى دور في التحالف؛ بسبب سياسة العداء التقليدية مع الصليبيين، منذ الحملة الصليبية الأولي، كما أنها كانت متخوفة من التعرض لهجوم لاتيني لاسترداد القسطنطية. وكل ما قدمته بيزنطة هو الاستعداد للمساعدة فقط .

لقد كان مشروع حملة لاتينية مغولية بيزنطية عام ١٢٦٩م / ٦٦٨هـ، لاستخلاص القبر المقدس من المسلمين مشروعا غير مجد، وخاصة بعد فشل الحملات الصليبية السابقة في تحقيقه. ولم يخرج مشروع التحالف المشترك لحيز التنفيذ، بالصورة المرجوة؛ بسبب القوة الحربية لدولة المماليك، وضعف الحماسة الصليبية للاتين، وانهيار الكيان الصليبي في الشرق، واهتمام الدول الأوروبية بمشاكلها الداخلية والأوروبية، وربما عدم اقتناع فريق كبير من الأوربيين بالفكرة الصليبية.

وقد اعتقد الغرب الأوروبي أنه يمكن باستمالة المغول في الشرق الأقصي اليهم، القيام بعمل حملة مشتركة لاتينية مغولية بيزنطية ضد المسلمين في الشرق

الأدنى، ولكنها فشلت لعدة أسباب:

أولا، لم يكن هناك هدف مشترك يجمع بين أطراف التحالف، فكل طرف كان يعمل لمصلحته الخاصة، فالمغول كانوا يرمون الي تكوين امبراطورية قوية لهم تدخل في نطاقها بلاد العراق والشام ومصر، وكان هذا يتعارض مع أهداف الصليبيين، بينما كان الفكر البابوى، يركز علي دعوة ايلخانات المغول الى اعتناق المسيحية على المذهب الكاثوليكى، ومملكة أرغون تسعي الي تأكيد وجودها السياسى والتجارى في الشرق، فى حين أن الدولة البيزنطية تسعي الي تأمين حدودها. بينما كان لملوك الغرب الأوروبي مشاكلهم الخاصة، فقدموا وعودا فقط وتأييد فكرة التحالف مع المغول، ولم يتعد الأمر حدود تبادل السفارات.

ثانيا، البعد الجغرافي بين الغرب الأوروبى والشرق الأقصى في ذلك الحين لم يكن ليسمح بقيام مثل تلك المحاولة، فالملك لويس التاسع حاول، وفشل في حملته علي مصر، وفشل أيضا في اجتذاب المغول الي الديانة المسيحية والتحالف معهم ضد الاسلام، كما حاول الأمير ادوارد الانجليزى وفشل أيضا.

ثالثا، إن مصر كانت معقل القوي العربية الاسلامية، آنذاك، وكان مركز الثقل يميل الي جانبها، أيام بيبرس والمنصور قلاوون والأشرف خليل، فأى حملة مشتركة، حتي ولو قدر لها أن تقوم، كان مآلها هو الفشل، وقد قضي علي هذا التحالف اللاتيني المغولي البيزنطي وهو في المهد؛ لأن الظروف نفسها لم تكن لتسمح بقيامه. ولكن كل المسألة، ان القيام بحملة صليبية كانت حلم في خيال الملك خايم الأول ملك ارغون لا يمكن أن يخرج الي حيز الواقع.

الهوامش :

١ – المغول، نشأ المغول فى الجهات الشمالية من الصين، في الهضبة المعروفة باسم هضبة منغوليا شمال صحراء جوبى، وهى تمتد من أواسط آسيا جنوبي سيبيريا، وشمال التبت، وغربي منشوريا، وشرقي التركستان. وفي هذه المنطقة كانت تعيش قبائل المغول مستقلا بعضها عن بعض، وكانت تتقاتل فيما بينها، كما كانت تتقاتل مع جيرانها، وخاصة مع قبائل التتار، والتى سكنت فى أقاليم آسيا الشمالية. واستطاع هؤلاء التتار ان يخضعوا أغلب القبائل، وكانوا يتمتعون بشهرة ذائعة وشوكة قوية، بحيث ان قبائل الأتراك الأخرى كانوا يتسمون باسمهم، فأطلق علي الجميع اسم " تاتار " أو " تتر ". وانتقل اسم التتار كمرادف للبرابرة المتوحشين الى المصادر العربية والفارسية ثم الأوروبية. ولم يهدأ صراع هؤلاء التتار مع بعضهم البعض حتي ظهر جنكيزخان (تموجين)، الذى صمم علي إخضاع القبائل المجاورة والمناوئة له. ولما كان هؤلاء التتار يعادون المغول، ويناصرون القبائل الثائرة عليهم، قام جنكيزخان بالانتقام من التتار، واستئصال شأفتهم. وهكذا تم القضاء على قبائل التتار، قبل ظهور المغول على مسرح التاريخ، ولم يبق منهم إلا الإسم الذى أطلق على القبائل المغولية. وعلى أثر انتصار جنكيزخان علي التتار، أطلق اسمهم عليه وعلى أتباعه، وقد اشتهر هؤلاء القوم في التاريخ بهذين الإسمين. وكان المغول يعرفون في اوروبا باسم " ترتار Tartar "، ونقل هذا الإسم عن طريق التجار والرحالة، وورد ذكرهم بهذا الاسم فى المدونات والحوليات الأوروبية. فؤاد عبد المعطى الصياد، المغول فى التاريخ، جـ ١، بيروت ١٩٨٠، ص ٢٦–٢٧، ٣٠–٣١؛ أبرار كريم الله، من هم التتار، ترجمة وتعليق رشيدة رحيم الصبروتى، سلسلة الألف كتاب، العدد ١٤٧، القاهرة ١٩٩٤، ص ٢٦–٢٨.

٢ – جوزيف نسيم يوسف، لويس التاسع في الشرق الأوسط ، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٥٩، ص ٢٣٧–٢٣٨ ؛ Morgan,D., The Mongols, Oxford, 1986, pp. 136–140

٣ – سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، جـ ٢، الطبعة السادسة، القاهرة ١٩٩٤، ص ٨٦٨–٨٦٩؛

Sinor,D., The Mongols in the West, Journal of Asian History, v. 33 n.1 (1999), pp. 1–44. http://www.deremilitari.org

٤ – Atiya, A.S., The Crusade In The Later Middle Ages, London, 1938, pp.233–234;

جوزرف نسيم يوسف، لويس التاسع في الشرق الأوسط، ص ٢٣٨.

٦ – الخان Kaghan، كلمة تركية بمعنى الحاكم، وهو اللقب الذى استخدمه الأتراك والمغول فى القرن السابع الميلادى، وقد استعمل المغول لقب " خان" أيضا بمعنى "خاقان "، فصارت كلمة " خاقان " تطلق علي ملك المغول الأعظم أى الخان الأعظم، وقصر لفظ خان علي الملوك الذين يتولون جزءا من الامبراطورية المغولية. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة، الطبعة الثانية، مصر ١٩٥٦، جـ١ ق٢ ، ص ٣٠٧ هـ٤ ؛ أبرار كريم الله ، المرجع السابق، ص ١٢٠.

٧ – جوزيف نسيم يوسف، المرجع السابق، ص ٢٤٠–٢٤٢؛

Morgan, The Mongols, pp. 180–181.

٨ – تعاقب علي عرش ايران سلسلة حاكمة أسسها هولاكو، ظلت تحكم هذه البلاد من عام ٦٥٤ هـ الي عام ٧٥٤ هـ ، علي وجه التقريب، وقد عرفت هذه السلسلة في التاريخ باسم " الإيلخانيين في إيران " . فؤاد عبد المعطي الصياد ، مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذاني، الطبعة الأولي، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٥٨.

٩– Atiya, op.cit.p.241–243.

١٠– فيما يتعلق بخصوص هذه السفارات راجع :

Morgan, op. cit., pp. 181–183; Atiya, op.cit. pp. 238–241; Sinor, The Mongols in the West, Journal of Asian History, v.33 n.1 (1999), 1–44;

جوزيف نسيم يوسف، المرجع السابق، ص ٢٤٠– ٢٤٤؛ رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية، ترجمة نور الدين خليل، جـ ٣، القاهرة ١٩٩٨، ص ٣١١–٣١٢.

١١ – سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، جـ ٢، ص ٨٧٢.

١٢ – جوزيف نسيم يوسف، المرجع السابق، ص ٢٥٤، ٢٦٩.

١٣ – كان للمغول دولتان عظيمتان هما: دولة بنى هولاكو وتشمل بلاد العراق وفارس وخراسان وما وراء النهر، ودولة بنى جوجى بن جنكيزخان فى الشمال، وتعرف باسم بلاد

القفجاق، ويطلق عليها اسم القبيلة الذهبية، نسبة الى خيم معسكراتها ذات اللون الذهبى، وهى البلاد الواقعة بين نهر إرتش Irtish والسواحل الجنوبية لبحر قـزوين، وكـان غالب أهلها من الأتراك والتركمان، وامتد سلطانها علي سيبيريا والجزء الجنـوبي مـن الروسيا، وكثيرا ما قامت الحروب بين هاتين الدولتين، وكانت سياسة بنى جوجى قائمة علي أساس الود والمسالمة لسلاطين المماليك . المقريـزى، الـسلوك، جـ ١ ق ٢، ص٣٩٤-٣٩٥ هـ ٤٤؛ على ابراهيم حسن، دراسات فى تاريخ المماليـك البحريـة، مصر ١٩٤٤، ص ١٦٦.

١٤- Morgan, op. cit., pp. 95, 183–184; Richard, The Crusades, Cambridge, 1999, pp. 421–423;

عادل اسماعيل هلال، العلاقات بين المغول وأوروبا، الطبعة الأولى ، القـاهرة ١٩٩٧، ص ١٠٦-١٠٩.

١٥ - أبغا ، ولد بمنغوليا عام ١٢٣٤، ووفد على فارس عام ١٢٥٦ مع أبيه هولاكو، وبعد موت أبيه انتخبه ممثلو أسرته أميرا علي فارس، وبعد خمس سنوات أيد انتخابه قوبلاى خـان الأكبر.ولقد واصل ابغا الصراع الذى بدأه أبوه هولاكو مع مماليك مصر، ولكنه لم يوفق فيه مع أن مغول القفجاق الذين كانوا فيما مضى حلفاء المماليك تهادنوا مع أبناء جنسهم فى فارس منذ ابتداء حكم أبغا. ولكى يزداد أبغا تمكنا من محاربة المماليك، أقام علاقات مع مسيحي الغرب، فظهر سفراؤه فى ليون عام ١٢٧٤، وفى روما عام ١٢٧٧، وقابلت أوروبا هذا التقرب بالترحاب، فراسله كل من إدوارد الأول ملك انجلتـرا عـام ١٢٧٤، والبابا كلمنت الرابع عام ١٢٦٧، وجريجورى العاشر عام ١٢٧٤، ونيقولا الثالث عـام ١٢٧٧. بارتولد ، دائرة المعارف الاسلامية ، كتاب الشعب، مادة " أباقا " ، جـ ٢ ، الطبعة الثانية، ١٩٦٩، ص ١٣٠-١٣١.

١٦ - محمود سعيد عمران، المغول وأروبـا، الاسـكندرية ١٩٩٦، ص ٦٥، ص ٢٢٩-٢٣٠؛ رانسيمان، المرجع السابق جـ ٣، ص ٣٨٥؛

Richard, Jean, op. cit. p. 423; Sinor, The Mongols in the West, Journal of Asian History,v.33n.1. 1999, pp.1–44. http://www.deremilitari.org

١٧ - جمال الدين الشيال، تاريخ مصر الاسلامية، جـ ٢، الاسكندرية ١٩٦٧، ص ٢٠٤-٢٠٥.

١٨ – المقريزى، السلوك، جـ١ ق ٢، ص ٤٦٥.

١٩- Vasiliev, A.A., History of the Byzantine Empire, second Edition, Canada, 1952, p. 601; Richard Jean, op. cit. pp. 423–424; Sinor, The Mongols in the West, Journal of Asian History, v.33,n.1,1999, pp.1–44.

سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، جـ ٢ ، ص ٩٠٧.

٢٠ – المقريزى، السلوك، جـ١ ق ٢، ص ٥١٤؛ حسنين محمد ربيع، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، الطبعة السادسة، القاهرة ١٩٩٨، ص ٢٩٣.

Richard Jean, op.cit. p.423–424.

٢١ – جمال الدين الشيال، تاريخ مصر الاسلامية، جـ ٢، ص ١٩٣؛

Sinor, The Mongols in the West, v.33 n.1, 1999 .

٢٢ – فيتربو Viterbo، مدينة ايطالية صغيرة تقع شمال روما.

Vasiliev, A. A., History of the Byzantine Empire, p. 592.

٢٣- Vasiliev, op. cit. pp.591–593;

Ostrogorsky,G., History of the Byzantine State, Oxford, 1956, pp.404–405;

حسنين محمد ربيع، المرجع السابق ، ص ٢٩١-٢٩٢.

٢٤ -قاقون Caco ، حصن بفلسطين قرب الرملة. المقريزى، السلوك، جـ ١ ق ٢، ص ٥٥٧ هـ ٤.

٢٥ -- بيبرس المنصورى، مختار الأخبار، حققه عبد الحميد صالح حمدان، الطبعة الأولي، الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٣، ص٢٤-٢٥، ٢٩-٣٠، ٣٣؛ المقريزى، السلوك، جـ ١ ق ٢، ص ٥٢٦-٥٢٩.

٢٦ – المقريزى، السلوك، جـ ١ ق ٢، ص ٥٤٥-٥٤٧، ٥٥٠.

٢٧ – المقريزى، السلوك، جـ١ ق٢، ص ٥٥٢، ٥٦٨-٥٦٩ ؛ أحمد مختار العبادى، فى التاريخ الأيوبي والمملوكي، الاسكندرية ١٩٩٢، ص٢٠٩، ٢١٩.

٢٨ – بيبرس المنصورى، المصدر السابق، ص ٢٩؛ المقريزى، السلوك، جـ ١ ق ٢، ص ٥٢٤.

٢٩ – المقريزى، السلوك، جـ١ ق ٢، ص ٥٥٣.

٣٠ – أرغون Aragon عربها العرب علي وجهين الأول " أرجون " بالجيم ورد في نزهة المشتاق للادريسي وغيره، والثاني بالغين وقد ذكره المقري في جملة مواطن من نفح الطيب فذكرها " ارغون "، غير انه في مواطن ذكرها بالجيم، وهذا يفيد أن عرب الأندلس كانوا يجمعون بين الوجهين في رسمها. وتقع أرغون في الشمال الشرقي من اسبانيا، واشتق اسم أرغون من نهر أرغون، الذى ينبع من وادى كانفرانس Canfranc ، وينحدر من جبال البرتات، ويصب في نهر إبره. سيبولد دائرة المعارف الاسلامية، المجلد الثالث ، مادة الأندلس، ص ٣٥-٤٧.

٣١ – Chaytor, H.J., A History of Aragon and Catalonia, London, 1933, p.90; Setton, K.M., A History of the Crusaders, vol. II. London, 1962, P. 722.

٣٢ – O'Callaghan, J., A History of Medieval Spain, London, 1975, pp.369–370.

٣٣ – عادل هلال، المرجع السابق، ص ١١٠؛

Richard, op. cit. p. 423.

٣٤– Sinor, The Mongols in the West, Journal of Asian History.

٣٥– Setton, A History of the Crusades, vol. 11, p.722.

٣٦ – جاقم الريك، موطنه الأصلي مدينة بربنيان Perpignan ، العاصمة القديمة لمقاطعة روسيللون Rosellon، والتي تقع علي الضفة اليمنى لنهر تيت Tet ، وتشكل جزءا من البرنيه الشرقي.

The Chronicle of James ١, King of Aragon, Trans. By Johon Forster, London, 1883, vol.11, p. 594, not.1; Diccionario de Historia de Espana, ٢ tomes, Madrid. 1952. t. 11,p. 824.

٣٧ – Swift, F.D., The Life and Times of James the First, Oxford, 1894, p.116.

٣٨ – نقلا عن : عادل هلال، المرجع السابق، ص ١١٠-١١١.

٣٩ – عادل هلال، المرجع السابق، ص ١١١.

٤٠ – رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية، جـ ٣، ص ٣٨٥.

٤١ – بعد وفاة هيو الثاني ملك قبرص (١٢٥٣-١٢٦٧) عام ١٢٦٧، خلفه الوصي باسم هيـو الثالث ملك قبرص (١٢٦٧-١٢٨٤)، الذى لم يلبث ان توج ايضا في صور ملكا علـي مملكة بيت المقدس عام ١٢٦٩، وبذلك تم توحيد المملكتين الصليبيتين بالشرق تحت تاج واحد من جديد. على أن هيو الثالث لم ينتظر تتويجه ملكا علي مملكـة بيـت المقـدس الصليبية ليتخذ اجراءا عاجلا وسريعا لحماية الصليبيين بالشام، وإنما لجأ في صيف عام ١٢٦٨ الي عقد هدنة مع السلطان بيبرس. سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الـصليبية، جـ ٢ ، ص ٩١٣.

Stevenson,W.B., The Crusaders In The East, Beriut, 1968, p. 342.

٤٢ – بيبرس المنصورى، المصدر نفسه، ص ٣٦-٣٨.

٤٣ – سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، جـ ٢، ص ٩٠٢.

٤٤ – جاء فى المقريزى ان هذه السنة هى ٦٦٧هـ، السلوك، جـ ١ ق ٢، ص ٥٧٣-٥٧٤.

٤٥ – بيبرس المنصورى، المصدر نفسه، ص ٣٨.

٤٦ – المقريزى، السلوك، جـ ١ ق ٢، ص ٥٧٤.

٤٧– Richard, op. cit. p. 423.

٤٨ – عادل هلال، العلاقات بين المغول وأوربا، ص ١١٢.

٤٩– Chronicle of James 1, vol. II. Pp. 593–594, 598.

٥٠ – المرابطي Morabatin، عملة ذهبية سكها أمراء المسلمين المرابطين، ودخلت أسبانيا في نهاية القرن الحادى عشر، وقد استخدمت كلمة مرابطي بدلا من المثقال الذى كان وزن الدينار، وكان وزن الدينار المرابطي حوالي سبع أوقيات من الذهب.

Chronicle of James 1. vol.1. p.47,not. 1, vol.11. Appendix G. pp.694 –695.

٥١ – Michaud, M., Histoire des Croisades, vol. 1v. Paris, 1822, p. 379, Bleye,P. A., Manual de Historia de Espana, Madrid, 1947, tomo 1. p.728.

٥٢ – آياس، بلدة قديمة علي ساحل قيليقية، وعلى الشاطئ الغربى لخليج اسكندرونة، الى الشرق من نهر جيحان، وكانت تعرف قديما باسم أيكاى. وكان الملاحون والتجار الايطـاليون في القرون الوسطي يعرفونها باسم " أجاتزو " أو " لاجاتزو " Ajazzo أو Lajazzo

. وكانت جزءا من إمارة ارمينيا الصغرى، تركزت فيها التجارة بين الشرق والغـرب، وكانت تربطها بالشام وبلاد الجزيرة، طرق برية جيدة. وكذلك كانت ترتبط بايران عـن طريق شرقي الأناضول. تيشنر، دائرة المعارف الاسـلامية، مـادة " آيـاس "، كتـاب الشعب، جـ ٢، ص ١١٥-١١٦ .

٥٣ - Chronicle of James 1, vol. 11. pp. 599–600.

٥٤ - سولس أو سولدس Sueldos ، عملة صغيرة من الفضة، وكانت سائدة في أرغـون فـي ذلك الحين. ويذكر باسكوال دى جاينجوس Pascual de Gayangos الذى قام بكتابـة حواشي مدونة الملك خايم الأول ان السولدس يقدر بحوالي خمسة عشر جنيها من العملة الانجليزية.

Chronicle of James 1. vol. 1. not. 2 .P. 321

٥٥- Chronicle of James 1, vol. II. Pp. 600–601; Michaud, op. cit. vol. Iv, p.379; Swift, op. cit., p.118.

٥٦ - الكانيس Alcaniz ، مقاطعة في أرغون تابعة لمنظمة فرسان قلعة رباح الدينية العسكرية Order of Calatrava .

Chronicle of James 1, vol. 11. p. 431, not.1.

٥٧- Chronicle of James 1, vol. 11.p. 600.

تختلف الروايات حول تحديد عدد القوات المرافقة للملك خايم، فيحددها المؤرخ ميشو ب ٨٠٠ فارس و٢٠٠٠٠ من المشاة، ويتفق معه المؤرخ مارتن فرناندث. ومن الواضـح أن هذا العدد مبالغ فيه، إذ ليس من المعقول أن تكفي ثلاثين سفينة لنقل ما يقرب من ٢٠ ألف وثمانمائة جندى بمعداتهم وسلاحهم. بينما حدد كينج عدد القـوات ب ٢٨٠٠، فـي حين أن المؤرخ بلاى يذكر أنه كان علي متن السفن ٨٠٠ رجل من المغاورين والجند المسلحين و٣٠٠ فارس .

Michaud, Hist. de Croisades, vol.1v.p.379; King, E.J., The Knights Hospitallers,London,1931, p.266; Bleye, op.cit.,p.729; Martin Fernandez de Navarrete, Espanoles en las Cruzadas, Revista ARBIL.n.38, Zaragoza (espana). http://www.arbil.org

٥٨- اختلفت الروايات حول تاريخ إبحار الملك خايم من برشلونة، فحدد الملك خايم في مدونتــه أنه أبحر في اليوم الثالث أو الرابع قبل ميلاد العذراء؛ بينما حـــدد تـــاريخ هرقـــل أول سبتمبر ١٢٦٩، واتفق معه رانسيمان وجروسيه؛ فى حين ان المؤرخ ميشو حدد تاريخ الرحيل في الرابع من سبتمبر عام ١٢٦٨، ويبدو أنه خطأ سهوا في تحديد السنة، حيــث اتفقت المصادر علي أن الحملة كانت عام ١٢٦٩م/ ٦٦٨ هـــ.

Chronicle of James 1, vol. 11.p.601; Michaud,op. cit.,1v, p.379; L'Estoire de Eracles Empereur, R. H. C., Hist. Occ. Tome 11 .Paris, 1859, chap. X11, pp.457–458.not.a.

٥٩ – Chronicle of James 1, vol.11. pp.601–604.

نستنج من مخاطبة الملك خايم لفرسانه، أن هذه المحاولة للعبور الي الأراضي المقدسة، لم تكن المحاولة الأولي للملك خايم، وإنما قام بمحاولة سابقة للـــذهاب الـــي الأراضـــي المقدسة علي رأس حملة صليبية، ولكنه لم يوفق؛ بـــسبب هبـــوب العواصـــف. ولكـــن المصادر التي تحت أيدينا لم تسجل شيئا عن هذه المحاولة الأولـــي. ويـــذكر المـــؤرخ سويفت أن الملك خايم حاول الإبحار للشرق علي رأس حملة صليبية فـــي نهايـــة عـــام ١٢٦٠، لكن عاصفة أرجعته، ويدلل علي ذلك، من خطاب مؤرخ في عشرين ســـبتمبر عام ١٢٦٠ من ألفونسو ملك قشتالة الي حماه، يلح عليه أن يقلع عن حملتـــه الـــصليبية التي يعتزم القيام بها، وأيضا عن مثيلتها الصقلية؛ كما يستدل من كلمات الملـــك اثنـــاء حملته الصليبية عام ١٢٦٩: " يبدو أن الرب لم يشأ أن أعبر البحر، لأنني حاولت سابقا بدون نجاح ".

pp .103 –104. not. 4. Swift,F.D., op. cit.

٦٠ –Chronicle of James 1, vol. 11, pp. 604 –606 ; Michaud, op. cit., 1v, p. 379; L'Estoire de Eracles Empereur.R.H.C. Hist. Occ., t.11, p.458.

٦١ – منذ عام ١٢٣٩، كانت مونبلييه يحكمها قناصل يختارهم مواطنين المدينة.

Chronicle of James 1, vol. 11, not. 1, p. 609.

٦٢ – Chronicle of James 1, vol. 11. pp. 608, 609.

٦٣– Chronicle of James 1, vol. 11. pp. 609–610.

٦٤- Michaud, op.cit., vol. 1v. p. 380; L'Estoire de Eracles, R.H.C., Hist.Occ.t.11.p.458; Bleye, op.cit. p.729.

٦٥ – النويرى، نهاية الأرب في فنون الأدب، جـ ٣٠، تحقيق محمد عبد الهادى شعيرة، محمد مصطفي زيادة ، مركز تحقيق التراث، مصر، ١٩٩٠، ص ٣٢١.

٦٦ – جاءت فى المقريزى تحت عام ٦٦٧ هـ. السلوك ، جـ ١ ق ٢، ص ٥٨٤-٥٨٥.

٦٧ – الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر، الطبعة الأولى، الرياض، ١٩٧٦، ص ٣٦٢.

٦٨- Richard, op. cit. p. 426.

٦٩ – اختلف الكّتاب حول تاريخ وصول السفن الأرغونية الي عكا، فجاء عند جروسيه أنها وصلت في أواخر اكتوبر عام ١٢٦٩م ، ويوافقه في ذلك الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور.

Grousset, R., Hist.des Croisades et du Royaume France de Jeruesalm, Paris, 1936, vol. 111. p. 649;

سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، جـ ٢، ص ٩١٤؛ بينما ذكر سيتون ورانسيمان أن السفن الأرغونية وصلت الى ميناء عكا فى أواخر ديسمبر عام ١٢٦٩م.

Setton, op.cit.,vol. 11. p.580;

رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية، جـ ٣، ص ٣٨٤.

٧٠- l'Estoire de Eracle Empereur, R.H.C., Hist.Occ.t.11.p.458

Don Gaspar Castellano, Cronica de la Corona de Aragon, Zaragoza, 1919, p.94;

سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع نفسه، جـ ٢ ، ص ٩١٤.

٧١- Richard, op. cit. p. 426.

٧٢ – ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، ص ٣٦١.

٧٣ – ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٣٦١-٣٦٢؛ بيبرس المنصورى، المصدر السابق، ص ٤٣. جاءت هذه الأخبار في المقريزى تحت عام ٦٦٧هـ. السلوك ، جـ ١ ق ٢، ص ٥٨٤.

Grousset, op. cit.,vol. 111. p .651.

٧٤ – وصل أوليفر اوف تيرم الى بلاد الشام، فى أواخر عام ١٢٦٤م، بامدادات عسكرية الى جيوفرى اوف سارجين Geoffrey of Sergines قائد الكتيبة الفرنسية فى عكا، والذى توفي فى ربيع عام ١٢٦٩م، وحل محله أوليفر اوف تيرم فى قيادة الكتيبة الفرنسية. Richard, The Crusades, p. 417.

٧٥ – L'Estoire de Eracles, R.H.C., Hist.Occ.t.11, chapitre X١١, p.458; Grousset, Hist. des Croisades, vol. 111, pp. 649–650; Setton, op.cit. vol.11. pp.580–581;
رانسيمان، المرجع نفسه، جـ ٣ ، ص ٣٨٤-٣٨٥.

٧٦ –Grousset, op. cit. vol. 111. p. 650.

٧٧ – مرج برغوث، موضع علي الطريق بين دمشق وجسر يعقوب. المقريزى، السلوك، جـ١ ق٢، ص ٥٨٥ هـ ٣.

٧٨ – ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٦٢-٣٦٤؛ ويذكر النويرى الرواية نفسها. نهاية الأرب، جـ ٣٠، ص ٣٢١-٣٢٣. وجاءت عند المقريزى تحت عام ٦٦٧هـ . السلوك، جـ ١ ق٢، ص ٥٨٥.

٧٩– Cronica de la Corona de Aragon, p.94; O'Callaghan, A History of Medieval Spain, p. 371;
رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية، جـ ٣، ص ٣٨٥ .

٨٠– Grousset, Hist. des Croisades, vol. 111 , p. 651; Richard, op. cit. p.426.

٨١ – رانسيمان، المرجع السابق، جـ ٣، ص ٣٨٤-٣٨٥.

٨٢ – بيبرس المنصورى، المصدر السابق، ص ٤٤-٤٥. Stevenson,W.B., op. cit. p. 343.

٨٣ – المقريزى، السلوك، جـ ١ ق٢، ص ٥٩٢. Stevenson,W.B., op.cit., p. 343.

٨٤ – بيبرس المنصورى، المصدر السابق، ص ٤٦ . Stevenson, op. cit. pp.343–344.

٨٥– Sinor, The Mongols in the West, Journal of Asian History.

٨٦ – رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية، جـ ٣، ص ٣٨٨ -٣٩٠؛ سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ ٢، ص ٩١٦-٩١٧؛ Richard, op. cit. p.433.

٨٧ – محمود سعيد عمران، المغول وأوروبا، ص ٦٦.

٨٨ - بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص ٤٧-٤٨؛ رانسيمان، المرجع السابق، جـــ ٣، ص ٣٩٠؛ Stevenson, op. cit. p. 344.

٨٩ - المقريزى، السلوك، جـــ١ ق٢، ص ٦٠١؛ Stevenson, op.cit. p. 344–345.

٩٠ - رانسيمان، المرجع السابق، جـــ ٣، ص ٣٩١؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص ٩١٧؛ Stevenson, op. cit. p. 345.

٩١ - الأمير معين الدين بروانه أو البرواناه (ت ٦٧٥ هـــ)، الذى نصبه هولاكو واليـــا علـــي بلاد الروم، لما أظهره من الاخلاص والطاعة للمغول، وكان يتولى قبل ذلـــك منـــصب الوزارة لسلاجقة الروم في آسيا الصغرى، والبروانه لفظ فارسي معناه الحاجـــب، وقـــد أطلق فى دولة السلاجقة الروم بآسيا الصغرى على الوزير الأكبر. المقريزى، الـــسلوك، جـــ ١ ق ٢، ص ٥٧٢ هـــ ؛؛ رشيد الدين الهمذانى، جامع التواريخ، المجلـــد الثـــانى، جـــ١، نقله الى العربية محمد صادق نشأت، محمد موسى هنداوى، فؤاد عبد المعطـــى الصياد، القاهرة ١٩٦٠، ص ٣٣٨؛ فؤاد عبد المعطى الصياد، المغول فى التاريخ، ص ٣٢٤.

٩٢ - بيبرس المنصورى، المصدر السابق، ص ٤٨-٤٩.

٩٣ - رانسيمان، المرجع السابق، ص ٣٩٤.

Fernandez de Navarrete,M., Espanoles en las Cruzadas Revista ARBIL.n.38.

٩٤- Chronicle of James 1, vol.11. p. 642.

٩٥- Chronicle of James 1, vol.11. pp. 643–644.

٩٦- Chronicle of James 1, vol. 11. pp. 642, 646–647.

٩٧ - المصمودى Masmodines Jusefichs : المصمودى عملة ذهبية دخلت اسبانيا في عهد الموحدين، في عهد السلطان أبو يوسف يعقوب (١١٨٤-١١٩٩م/ ٥٨٠-٥٩٥هـــ)، ثالث سلاطين = الموحدين، ونقش الموحدين أسمائهم علي الدنانير. وكلمـــة مـــصمودى نسبة الي قبيلة مصمودة البربرية، وعملة المصمودى سكها سلاطين الموحدين بافريقيـــا وأسبانيا، مثل المرابطي نسبة الي سلاطين المرابطين.

Chronicle of James 1, vol.11.p. 651, not.1.

٩٨- Chronicle of James 1, vol.11. p. 651; Cronica de la Corona de Aragon, p. 95-96.

٩٩- Chronicle of James 1, vol.11. pp. 652-653.

١٠٠ - رانسيمان، المرجع السابق، ص ٣٩٤-٣٩٥.

١٠١ - Ostrogorsky, op. cit. pp. 409-410;
رانسيمان، المرجع السابق، ص ٣٩٤؛ محمود سعيد عمران ، المغول وأروبا، ص ١٤٤.

١٠٢ - سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، جـ ٢، ص ٩١٩.

١٠٣- Atiya, op. cit. p. 262.

١٠٤ - سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، جـ٢، ص ٩١٩؛ عادل هلال، المرجع السابق، ص ١١٤.

١٠٥ - رانسيمان، المرجع السابق، جـ ٣، ص ٣٩٥؛ عادل هلال، المرجع السابق، ص ١١٥.

١٠٦ - نقلا عن جوزيف نسيم يوسف، العدوان الصليبي علي مصر، الطبعة الأولى، الاسكندرية ١٩٦٩، ص ٢٨١-٢٨٢.

١٠٧ - بيبرس المنصوري، مختار الأخبار، ص ٥٣-٥٥.

١٠٨ - أبلستين Albistan، تسمي كذلك " آبلستان "، تقع شرق مدينة قيسارية الروم بين جبل طوروس والقسم العلوى من نهر جيحان. ليوار، دائرة المعارف الاسلامية، مادة " أبلستين "، كتاب الشعب، جـ ٣، ١٩٦٩، ص ١٨٢-١٨٣؛ فؤاد الصياد، مؤرخ المغول رشيد الدين ، ص ٥٩ هـ ٣.

١٠٩ - توقات، بلدة حصنية واقعة بين قونية وسيواس، وبينها وبين قيسارية مسيرة أربعة أيام. بيبرس المنصورى، المصدر السابق، ص٥٩٠؛ المقريزى، السلوك، ج١ ق٢، ص ٦٢٩ هـ٢.

١١٠ - بيبرس المنصورى، مختار الأخبار، ص ٥٧-٦٠.

١١١ - عادل هلال، المرجع السابق، ص ١١٦.

١١٢ - بيبرس المنصورى، المصدر نفسه، ص ٧١-٧٣.

١١٣ - بيبرس المنصورى، المصدر نفسه، ص ٨٤، ٨٧ ، ٩١-٩٢

١١٤ - النويرى، نهاية الأرب فى فنون الأدب، جـ ٣١، تحقيق الباز العرينى، مراجعة عبد العزيز الأهوانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢، ص ٢٢٦-٢٢٧؛ بيبرس المنصورى، المصدر نفسه، ص ٩٢-٩٣.

١١٥ - بيبرس المنصوري، مختار الأخبار ، ص ١١١-١١٤؛ رشيد الدين فضل الله الهمـذاني، جامع التواريخ ، تاريخ غازان خان، دراسة وترجمة فؤاد عبد المعطى الصياد، الطبعـة الأولي، القاهرة ٢٠٠٠، ص ١٦٠-١٦٥.

١١٦ - محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص ٢٤٢.

١١٧ - محمد محمود النشار، علاقة مملكتى قشتالة وأراجون بسلطنة المماليك، الطبعة الأولـى، القاهرة ١٩٩٧، ص ١٢٦-١٢٨. ملحق رقم ١٨، ص ٢٩٥-٢٩٦.

Fernandez de Navarrete, M., Espanoles en las Cruzadas, Revista ARBIL.n.38; Richard, The Crusades, p. 468.

١١٨ - هايد، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى، جـ ٢، ترجمة أحمد رضا محمد رضا، القـاهرة ١٩٩١، ص ٣٠٤ هـ ٣٠٨.

١١٩ - بيبرس المنصورى، المصدر السابق، ص ١١٥-١١٦؛ رشيد الدين الهمـذاني، جـامع التواريخ، ص ١٦٧-١٦٨.

١٢٠ - رشيد الدين الهمذاني، جامع التواريخ، ص ١٨٠- ١٨٥؛ فؤاد عبد المعطـى الـصياد، مؤرخ المغول رشيد الدين ، ص ١٣٣-١٣٦.

١٢١- Richard, op. cit. p. 469.

١٢٢- Cronica de La Corona de Aragon , pp. 103–105;

حسنين محمد ربيع، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص ٢٩٢ -٢٩٣.

١٢٣ - لمزيد من التفاصيل عن العلاقات بين مصر وأرغون، انظر:

A. Alarcon Y Santon, Los Documentos Arabes Diplomaticos Del Archivo de la Corona de Aragon, Madrid, 1940, doc. Num. 145–153, pp. 335–377.

١٢٤- Callaghan , op. Cit . p . 483;

حسنين محمد ربيع، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص ٢٩٧-٢٩٨.

١٢٥ - علي ابراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية، ص ١٧٦.

١٢٦ - جوزيف نسيم يوسف، لويس التاسع في الشرق الأوسط ، ص ٢٧١-٢٧٢.

١٢٧ - عادل هلال، المرجع السابق، ص ١٤٥.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية :

- **ابن عبد الظاهر (ت ٦٩٢ هـ / ١٢٩٢م) محي الدين بن عبد الظاهر:**
  - الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر، الطبعة الأولى، الرياض ١٩٧٦م.
- **بيبرس المنصورى (ت ٧٢٥ هـ) ركن الدين بن عبد الله المنصورى الدوادار:**
  - مختار الأخبار، تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ، حققه عبد الحميد صالح حمدان، الطبعة الأولي، الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٣م.
- **المقريزى (ت ٨٤٥ هـ/ ١٤٤٢م) تقى الدين أبو العباس أحمد:**
  - السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١ ق٢ ، صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة، الطبعة الثانية، مصر ١٩٥٦م.
- **النويرى الكندى (ت ٧٣٢ هـ) شهاب الدين أحمد :**
  - نهاية الأرب في فنون الأدب، جـ ٣٠، تحقيق محمد عبد الهادى شعيرة، محمد مصطفي زيادة، الهيئة المصرية العامة للكتاب١٩٩٠م.
  - نهاية الأرب فى فنون الأدب، جـ ٣١، تحقيق الباز العرينى، مراجعة عبد العزيز الأهوانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢م.
- **الهمذاني (ت ٧١٩ هـ / ١٣١٨م) رشيد الدين فضل الله :**
  - جامع التواريخ، تاريخ المغول، المجلد الثانى ، جـ ١، تاريخ هولاكو، نقله الى العربية محمد صادق نشأت، محمد موسى هنداوى، فؤاد عبد المعطى الصياد، راجعه يحيى الحشاب، القاهرة ١٩٦٠م.
  - جامع التواريخ ، تاريخ غازان خان، دراسة وترجمة فؤاد عبد المعطى الصياد، الطبعة الأولي، القاهرة ٢٠٠٠.

ثانيا: المراجع العربية والمعربة:

- أبرار كريم الله، من هم التتار، ترجمة وتعليق رشيدة رحيم الصبروتي، سلـسلة الألـف كتاب، العدد ١٤٧، القاهرة ١٩٩٤.
- أحمد مختار العبادى، فى التاريخ الأيوبي والمملوكي، الاسكندرية ١٩٩٢.
- بارتولد ، دائرة المعارف الاسلامية، مادة " أباقا "، كتاب الشعب، ج٢، إعداد وتحريـر ابراهيم زكى خورشيد، أحمد الشنتناوى، د. عبد الحميد يونس، الطبعة الثانية، ١٩٦٩.
- تيشنر، دائرة المعارف الاسلامية، مادة " آياس "، كتاب الشعب، ج٢، الطبعة الثانية، ١٩٦٩.
- جمال الدين الشيال، تاريخ مصر الاسلامية، جـ ٢، الاسكندرية ١٩٦٧.
- جوزيف نسيم يوسف :
  - لويس التاسع في الشرق الأوسط ، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٥٩.
  - العدوان الصليبي علي مصر، الطبعة الأولى، الاسكندرية ١٩٦٩.
- حسنين محمد ربيع، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، الطبعـة الـسادسة، القـاهرة ١٩٩٨.
- رانسيمان ، تاريخ الحملات الصليبية، ترجمة نور الدين خليل، جـ ٣، القاهرة ١٩٩٨.
- سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية ، حـ ٢ ، الطبعة السادسة، القاهرة ١٩٩٤.
- عادل اسماعيل هلال، العلاقات بين المغول وأوروبا، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٩٧.
- على ابراهيم حسن، دراسات فى تاريخ المماليك البحرية، مصر ١٩٤٤.
- فؤاد عبد المعطى الصياد:
  - مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذاني، الطبعة الأولي، القـاهرة ١٩٦٧.
  - المغول فى التاريخ، جـ ١، بيروت ١٩٨٠.
- محمد محمود النشار، علاقة مملكتى قشتالة وأراجون بسلطنة المماليك، الطبعة الأولـى، القاهرة ١٩٩٧.
- محمود سعيد عمران، المغول وأوروبا، الاسكندرية ١٩٩٦.
- هايد، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى، ج٢، ترجمة أحمد رضا محمد رضا، القاهرة ١٩٩١.

ثالثا: المصادر الأجنبية:

- -Don Gaspar Castellano, Cronica de la Corona de Aragon, Zaragoza, 1919.
- -L'Estoire de Eracles Empereur, R. H. C., Hist. Occ. Tome 11. Paris, 1859.
- Michaud, M., Histoire des Croisades, vol. ١v. Paris, 1822.
- -The Chronicle of James ١, King of Aragon, Trans. By Johon Forster, 2vols, London, 1883.

رابعا: المراجع الأجنبية:

- Atiya, A.S., The Crusade In The Later Middle Ages, London, 1938.
- Bleye,P. A., Manual de Historia de Espana, Madrid, 1947.
- Diccionario de Historia de Espana, ٢ tomes, Madrid. 1952.
- Fernandez de Navarrete, M., Espanoles en las Cruzadas, Revista ARBIL.n.38.
- Grousset, R., Hist.des Croisades et du Royaume France de Jeruesalm, vol. 111, Paris, 1936.
- King, E.J., The Knights Hospitallers, London, 1931.
- -Martin Fernandez de Navarrete, Espanoles en las Cruzadas, Revista ARBIL.n.38, Zaragoza (espana). http://www.arbil.org
- Morgan, D, The Mongols, Oxford, 1986.
- O'Callaghan, J., A History of Medieval Spain, London,1975.
- Ostrogorsky,G., History of the Byzantine State, Oxford, 1956.
- Richard, The Crusades, Cambridge, 1999.
- Setton, K.M., A History of the Crusaders, vol. II. London, 1962,
- Sinor,D., The Mongols in the West, Journal of Asian History, v. 33 n.1 (1999), pp. 1-44. http://www.deremilitari.org
- Stevenson,W.B., The Crusaders In The East, Beriut, 1968.
- Swift, F.D., The Life and Times of James the First, Oxford, 1894.
- Vasiliev, A.A., History of the Byzantine Empire, second Edition, Canada, 1952.

دور الأسطول المرابطي
في مواجهة اعتداءات القوى البحرية المسيحية
على السواحل المتوسطية الإسلامية

د. إيناس أحمد السيد عباس

كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

وقع الصدام بين العرب والروم الشرقيين (البيزنطيين) منذ ظهور الإسلام، تبعًا لتطبيق الأمر الإلهي للرسول ﷺ بضرورة نشر الإسلام في جميع أصقاع الأرض حيث أنَّ رسالته جاءت آخر رسالات السماء إلى الأرض ودعوته آخر الدعاوى يقوم بها نبي ورسول بوحدانية الله تعالى.

المقدمة :

{ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وترعون حدود الله } صدق الله العظيم.

بهذه الدعوة الحقة خرج المرابطون من مضاربهم في صحراء المغرب الأقصى يحملون لواء الجهاد لإعلاء كلمة الدين .

يتعرض هذا البحث لصفحة من صفحات المرابطين الجلية في أعمال الجهاد، تقف إلى جانب تلك الصفحات التي سجلت انتصاراتهم الباهرة حين خاضوا ذلك الصراع القوي ضد الممالك الإسبانية النصرانية في الأندلس ، وهي الصفحات التي زخرت بها المصادر وما زالت تستحوذ على اهتمام الباحثين .

أما هذه الصفحة فهي تلقي بعض الضوء على ما قام به المرابطون من

أعمال جهاد بحري في غربي البحر المتوسط ووسطه في مواجهة القوى البحرية المسيحية .

يشغل البحث الفترة الزمنية التي شهدت سلطان دولة المرابطين بمختلف مراحلها من إتمام فتح المغرب وتكوين الدولة المرابطية الكبرى(٤٧٤ – ٥٢٥ هـ / ١٠٨٢ – ١١٣٠م) وصولاً إلى مرحلة الانحدار (٥٢٥ – ٥٤٢هـ / ١١٣٠ – ١١٤٧م) لتمتد حتى سقوط آخر معقل مرابطي وهو الجزائر الشرقية أو جزر البليار سنة ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م في يد الموحدين. وذلك من خلال مناقشة النقاط التالية :

- فتح سبته (٤٧٦ – ٤٧٧ هـ / ١٠٨٢ – ١٠٨٣م) وامتداد حدود المرابطين إلى سواحل البحر المتوسط .
- اصطناع المرابطين لسياسة بحرية ومظاهر تلك السياسة .
- المرابطون والمواجهة مع القوى البحرية المسيحية في البحر المتوسط . ورد اعتداءاتها عن السواحل الإسلامية في جزر البليار وشمال إفريقيه .
- النشاط البحري لأسرة بني غانيه – حكام البليار – (٥٢٠ – ٦٠ هـ/١١٢١ – ١٢٠٣م) كآخر معقل مرابطي وعلاقتها بالقوى البحرية المسيحية .
- تقييم الجهاد البحري المرابطي في البحر المتوسط .

وإنّا إذ نحاول تتبع تلك الأحداث نهدف إلى إيضاح كيف استجاب المرابطون – وهم القوم الصحراويون – للتحديات التي فرضها عليهم امتداد حدودهم إلى السواحل المتوسطية ، ليقوموا بدورهم كقوة تتحمل عبء حماية سواحلها وفرض الأمن على تلك الحدود ، ثم دفع غائلة الأعداء عن الاعتداء على حدود دولة الإسلام .

* * * * *

المتتبع للفتح المرابطي يجد أن المغرب الأقصى في القرن الخامس الهجري كان يومئذ تسوده إمارات متفرقة وقبائل متنافرة . وما أن علا صيت المرابطين في تلك الأنحاء ، سرعان ما بدأت العناصر الناقمة على زعامات تلك الطوائف تتطلع إلى أولئك القوم الذين يضطرمون بالحماسة الدينية آملين أن يفتحوا تلك البلاد حتى ينادوا بالإصلاح والالتزام بأحكام الدين الحنيف ويقضوا على المارقين عن الدين .

ولقد خاضت جيوش المرابطين البرية – وهي قوام قوتهم – خلال مراحل ذلك الفتح حروباً ومعارك [1] ، أثبتت فيها قدراتها . إلى أن اعترضهم موقف فاصل يعد منعطفاً في مسيرة إقامة دولتهم . وذلك عندما قصدوا آخر إمارات قبائل برغواطه في المنطقة من أصيلا على الساحل الغربي للمغرب الأقصى حتى طنجه وسبته على الساحل الشمالي للمغرب .

وكانت قيادة هذه الإمارة ، فضلاً عن مروقها عن الدين ، تمارس أعمال القرصنة . وعند مطاردة المرابطين لها اعتصمت بثغر سبته ، مما استوجب ضرورة محاصرتها براً وبحراً معاً ، الأمر الذي تطلب امتلاك سفن لتنفيذ هذه المهمة .

عند متابعة ما ورد بالمصادر والدراسات بشأن إحداث المواجهة مع تلك الإمارة نستطيع أن نتبين كيف تغلّب المرابطون على تلك المشكلة .

عندما رفض حاكم الإمارة " سقوط البرغواطي " الدخول في طاعة المرابطين بعد أن كاد يفعل ، اضطرت جيوش المرابطين ملاقاته مع حشوده في أحواز طنجه حتى قضى عليه في ذلك اللقاء سنة ٤٧١هـ / ١٠٧٩م ، وأفضت دولته إلى ابنه الحاجب ضياء الدولة الذي اعتصم بسبته بينما دخل المرابطون طنجه. وقد طلب المرابطون من الفقهاء الفتوى في القضاء على تلك الدولة فأجازوا ذلك بعد أن سار هذا الابن نفس مسيرة أبيه . [2]

واكب ذلك الموقف صريخ أهل الأندلس وطلبهم النجدة من المرابطين بعد أن اشتدت وطأة الضغوط التي تمارسها عليهم قوى أسبانيا النصرانية . فبـدأت وفـود أهل الأندلس تتوافد على الأمير يوسف بن تاشفين (٤٦٣ – ٥٠٠هـــ / ١٠٧١ – ١١٠٧م) تدعوه لنصرة المسلمين في تلك البلاد . [٣]

تواترت الروايات حول تلقي المرابطين معونة بحرية قدمها المعتمد بن عبـاد ، صاحب إشبيليه (٤٦٠ – ٤٨٤هـ / ١٠٦٨ – ١٠٩١م) ، الذي كانت بين بلاده وبين إمارة سبته وحشة وحروب وسفك دماء ، انقطع على إثرها بحر الزقاق بينهما بسبب ممارسات حاكمها الجائرة ، المغتصب للحقوق منذ عام ٤٥٠هـــ / ١٠٥٨م [٤] . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى قدمها ابن عباد طوعاً رغبة منه في تعزيـز قدرة المرابطين والتعجيل بتلبية مطلبه ومن ورائه ملوك الأندلس بعبور المـرابطين إلى العدوة لنجدتهم [٥] . أو بناء على طلب من المرابطين بعد أن تصادف مـرور سفينة لابن عباد ، على أثر هزيمة لحقت بسفن المرابطين فـي لقائهـا الأول مـع حاكم سبته عام ٤٧٤هـ / ١٠٨٢م ، طبقا لروايـة ابن بسام صاحب " الـذخيرة " ونقلها ابن خلدون في " مفاخر البربر " . [٦]

وأيا كان الأمر فإن عزم المرابطين على إخضاع سبته كـان يعنـي وجـود بعض السفن تحت أيديهم ، بعد إخضاع قبائل غمارة في منطقة سلا والريف علـى سواحل المغرب الأقصـى ، ثم تلك المناطق التي كانت خاضعة لبرغواطه ، ومـن بينها ثغر فضالة على نفس الساحل الذي كان قاعدة لأسـطول تلـك القبائـل [٧] . بالإضافة إلى ما وقع أخيراً في أيديهم من سفن بعد إخضاع طنجـه .

وما أن تم ذلك الفتح عام ٤٧٧هـ / ١٠٨٣م نجد المصادر تـشير إلـى أن يوسف فرح لفتح سبته وخرج من حينه نحوها ليجوز منها إلى الأندلس ، وعنـدما دخلها هدنها وأصلح أحوالها وسفنها ولحقت به العساكر والجنود [٨] . وفي روايـة

أخرى أن يوسف بعد أن ملك المغرب تاقت نفسه إلى العبور إلى الأندلس ، فهم بذلك وأخذ في إنشاء المراكب والسفن ليعبر فيها [٩] .

وعليه فإن توالي الأحداث على هذا النحو يثبت أن مسألة إخضاع سبته ، كانت بالنسبة للمرابطين ضرورة لإتمام فتح المغرب أولاً وتأكيد سيادتهم على سواحله لتبدأ على إثرها عملية إنشاء الأسطول المرابطي ومن ثم مسيرة البحرية المرابطية . ثم بعد ذلك مواصلة ما يحملونه من رسالة الجهاد في ميدان صار يلح عليهم الجواز إليه في الأندلس . إذ قرب هذا الفتح الصلة بين المغرب والأندلس ، وأصبح المرابطون وقد اطلوا على هذه البلاد يشهدون عن كثب ما يجري من أحداث ويرقبون المعركة الدائرة الرحى بين المسلمين والنصارى هناك . [١٠]

وهكذا صارت طنجه وسبته مراكز أمامية يرابط بها الجنود المرابطون استعداداً للعبور إلى الأندلس ، وغدت في الوقت ذاته قواعد للأسطول المرابطي الناشئ . إذ أشارت المصادر أن حوض بناء السفن بسبته وجد فيما يعرف بقصر المجاز . [١١]

حقيقة أن أسطول ملوك الأندلس عرض تدبير مسالة عبور قوات المرابطين في جوازها الأول إلى الأندلس عام ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م ، لكن افتتاح ميدان الجهاد بتلك البلاد والذي بدا منذ الوهلة الأولى أنه سيكون طويل الأمد ، جعل المرابطين يحرصون على تأمين طرق ووسائل الإمداد . وذلك بان تكون هذه الوسائل في أيديهم وتحت سيطرتهم ، الأمر الذي أبداه ابن تاشفين حينما أصر على امتلاك الجزيرة الخضراء ، أقرب نقطة إلى العدوة المغربية.

وقد ألمحت المصادر إلى ذلك حين عرضت لظروف امتلاك المرابطين للجزيرة الخضراء ، إذ وصلوا إليها قبل أن يخليها حاكمها ابن المعتمد ، وأخذوا يزيدون ويترادفون وأحدقوا حواليها يحرسونها ونزلوا بدار الصناعة بها . ثم

خاطب ابن تاشفين ابن عباد يعلمه بما صنع قائلاً لــه : " كفينــاك مؤنـــة القطــائع وإرسال الأقوات لأجنادنا .... " . [١٢]

ثم جاءت الخطوة التالية حين دعت الظروف إلى السيطرة على ممالك جنوب الأندلس وشرقه بقواعدها البحرية وواجهاتها البحرية المطلة على البحر المتوسط .

عندئذ أتاح ملك الأندلس للمرابطين قوة بحرية حين ملكــوا غرناطـــه ســنة ٤٨٤هــ / ١٠٩٣م ، ثم ملكوا المرية في نفس العام [١٣] ، ومـــن بعــدها مرســية ودانيه وشاطبه [١٤] .

غير أن اهتمام ولاة المرابطين بما تملكه تلك القواعد البحرية مـــن إمكانـــات جعلهم ينهضون بدور صناعتها ، وأولوا هذا الأمر جل عنايتهم ، كما حرصوا على تنشيط الصناعات التي تقوم عليها صناعة السفن خاصة في المرية [١٥] . بالإضافة إلى ما ذكره الإدريسي عن دار صناعة الجزيرة الخضراء التـــي اســتمرت فيهـــا صناعة السفن حتى القرن الثالث عشر الميلادي والتي كانت موجودة داخل المدينـــة [١٦] . كذلك حرصوا على الاستفادة من دور الصناعة الكبرى بمدن شمال شـــرق الأندلس مثل دار صناعة طرطوشه على نهر إبره على بعد ٢٠ ميلاً من البحـــر ، والتي ذكر الإدريسي أيضاً أن العمل كان ما يزال مستمراً فـــي تلـــك الـــدار فـــي عصره، حيث كانت تنتشئ بها السفن الكبيرة . وكانت منشأة على قدر كبيـــر مـــن الأهمية ، إذ كانت تحميها أبراج عددها سبعة عشر برجاً تكون سوراً دائرياً محاطاً بها.[١٧] وكانت مهمة قاعدة طرطوشة البحرية الدفاع عن سواحل شرق الأندلس[١٨].

وقد ظهر حرص المرابطين الدائم على تأمين تلك الثغور البحريـــة ، فنظـــراً لانشغالهم بمعارك الأندلس من جهة وطبيعة وظروف دولتهم من جهة أخرى ، فإلى جانب سلسلة القلاع والحصون والأسوار التي انتشرت من مراكش فـــي الجنـــوب حتى مدينة فاس في الشمال ومن تلمسان في الشرق إلى طنجه في الغرب ، والتـــي

كانت تتولى مهمة مراقبة السكان في غياب جيوش المرابطين في ميدان القتال بالأندلس ، لوحظ انتشار الرباطات والمحارس على امتداد السواحل [١٩] . وخير مثال على تلك الرباطات والمحارس " محرس سبته " ذو الوظيفة الدفاعية لكونه تحت أسوار وأبواب المدينة وتحت سيطرة أهلها ، وهي الأسوار التي أمر يوسف ببنائها أسفل الميناء قبل عام ٤٩١هـ . [٢٠]

يضاف إلى ذلك أسوار المرية التي تولى النظر فيها عام ٥١٩هـ رجل من أصحاب ابن ميمون ، قائد أسطول المرابطين ، فكمل السور على واجبه من التحصين والتحسين . [٢١]

كما وجد رباط على بعد فرسخ من المريه على ساحل البحر يعرف باسم " رباط عمروس " . وكذلك يرتفع ما يسمى بنقطة الزاوية على مسافة قصيرة من مدينة قرطاجنة في ميناء يسمى المسارة ALmazarron . وأيضا رباط الشِعب الذي أشير إلى وجوده على الساحل . [٢٢]

هذا إلى جانب وجود رباط على أحد التلال الواقعة خلف المدينة في مالقة بجنوب شرق الأندلس . [٢٣]

بهذا الاهتمام الذي أبداه المرابطون نحو ما أصبح تحت سيطرتهم من قواعد بحرية ، أمكن لبحرية المرابطين بعد توافر عوامل النمو المطرد هذه اصطناع سياسة بحرية دخلت بها ميدان القوى البحرية في عالم البحر المتوسط . ومن مظاهر تلك السياسة التي يقاس بها قدرة أية قوة بحرية هي أن تثبت قدرتها على تحمل مسؤولية ضمان الأمن على الطرق الملاحية المارة بحدودها . ويبدو أن البحرية المرابطية كانت تقوم بدورها في هذا الشأن ، مما سمح بتدفق تجارة المغرب الذاهبة إلى الأندلس أو العكس ، ومنها إلى سائر الموانئ المنتشرة على السواحل في ذلك الوقت . فقد أشارت المصادر أن السفن كان تتردد بين ثغر المرية

وبين ثغور المغرب سبته ، وهران ، بجاية ، تونس [٢٤] إذ كانت المريه على عهد المرابطين إلى جانب دورها كقاعدة بحرية لقسم كبير من أسطول المرابطين ، وفي ظل تلك العناية التي أولاها لها ولاتها ، مركزاً صناعياً وتجارياً نشطاً تؤمه السفن التجارية من سائر موانئ البحر المتوسط الإسلامية وغيرها من موانئ الجنويين والبيزيين والبنادقه والقطلان . [٢٥] وكذلك سبته التي كانت سوقاً كبيراً يتجمع فيه الوافدون بمنتجات بلاد الشمال لتجد طريقها نحو الجنوب ، حيث يلتقون بنظرائهم من التجار وما يحملونه من خامات بلاد الجنوب .

وكان لسيطرة المرابطين على طريق التجارة من وإلى الجنوب عبر المغرب الأقصى بمراكزه الهامة مثل سجلماسة ، حيث يتدفق على هذا المركز ذهب الجنوب إلى المغرب مقابل منتجات المغرب والأندلس الذاهبة إلى الجنوب . وكان هذا الذهب ، الذي أتاح إمكانية سك العملة ، هو السبب في اتساع تداول الدينار ، وذيوع شهرة العملة المرابطية [٢٦] . مما ينهض دليلاً على ازدهار التجارة الدولية في العهد المرابطي .

وعليه يعد نجاح البحرية المرابطية في أداء دورها وتحمل مسؤولياتها في ضمان الأمن على تلك الطرق الملاحية المارة بحدودها مظهراً من مظاهر نجاح السياسة البحرية للمرابطين وإظهار قدرة الدولة المرابطية كقوة بحرية .

أما أهم مظاهر الإضطلاع بمهام القوة البحرية كان ما قامت به البحرية المرابطية من دور في دفع غائلة الأعداء عن الاعتداء على الحدود الإسلامية المتوسطية ، وهو ما يعتبره المرابطون دورهم الأساسي في أداء رسالة الجهاد .

أثناء قيامهم بأداء هذا الدور تحتم عليهم خوض مواجهة جديدة في ميدان آخر مع قوى أخرى بخلاف القوى الإسبانية النصرانية التي يواجهونها على أرض الأندلس ، ذلك الميدان هو عالم البحر المتوسط الذي دخلوه كقوة بحرية

ليواجهوا بعد ذلك القوى البحرية الناهضة فيه .

كان المرابطون أثناء أداء رسالتهم في دفع اعتداءات القوى الاسـبانية علـى أراضي المسلمين بالأندلس قد رأوا أنهم بإمكانهم ترك الثغور المواجهة للعدو فـي حكم قادتها لكونهم أخبر بأحوالها وأدرى بلقاء العدو وشن الغارات . [٢٧]

وقد طبقوا هذا المبدأ مع بني هود – حكام سرقسطه – الثغر الأعلى الأندلسي (٤٣٦ – ٥٠٢هـ / ١٠٤٤ – ١١٠٨م) ، الذين ارتضوا منهم أن يكونوا بيـنهم وبين العدو سداً ، لا يصل إليهم ضرر وقد قنعوا بمـسالمتهم [٢٨] ، طالمـا كـانوا قادرين على أداء هذه المهمة .

ومن بين من تركوهم أيضاً من أجل القيام بتلك المهمـة ، حكـام الجزائـر الشرقية أو جزر البليار ، الذين كانوا يمثلون الدرع الواقي لمدن شرق الأنـدلس ، التي كانت مجالاً لجهود كبيرة بذلها المجاهدون من قادة المرابطين وجنودهم طيلة وجودهم على أرض الأندلـس .

وقد كانت الجزائر الشرقية محط أنظار القوى الإسبانية والقـوى المـسيحية المواجهة لها على السواحل الشمالية للبحر المتوسط ، نظراً للهجمات التـي كانـت تتعرض لها سواحلهم من قبل أساطيل هذه الجزر منذ أيام مجاهد الـداني ، حـاكم دانيه والجزائر (٤٠٥ – ٤٣٦هـ / ١٠١٥ – ١٠٤٤م) .

وتعد جمهوريتا بيزا وجنوة البحريتان في مقدمة القـوى المـسيحية اهتمامـا بوضع ذلك الثغر ؛ إذ عانت من هجمات أساطيله حتى أوائل القرن الحادي عـشر الميلادي . لكن ما أن أطل العقد الثاني من ذلك القرن حتى تنامت قدراتها البحرية. عندئذ تمكنتا عن طريق التحالف فيما بينهما من التخلص من الخطر الذي كان يمثله لهما مجاهد الداني بالقضاء على معظم قوته البحرية وهزيمته وإخراجه من جزيـرة سردانية عام ٤٠٧هـ / ١٠١٦م . وإن ظل ذكره يثير القلق والرعب حتـى عـام

وفاته ٤٣٦هـ / ١٠٤٤م . [٢٩]

ومن القوى الإسبانية التي شاركت بيزا وجنوة العداء مع جزر البليار فكانت كونتيه برشلونه أو ما يعرف بالمارش الإسباني أو إقليم قطالونيه على الساحل الإسباني الشمالي الشرقي لشبه الجزيرة ؛ إذ تعرضت هي الأخرى لغزوات مجاهد عام ٤٠٩هـ/ ١٠١٨م [٣٠]. ثم واصل ولاة البليار من قبل مجاهد ومن بعده غزواتهم البحرية ، فقد كانوا رجالاً من نفس طراز مجاهد ، أمثال واليها الأغلب (٤٢٨ – ٤٣٦هـ / ١٠٣٧ – ١٠٤٤م) وكان جندياً وبحاراً قديراً دائم الإغارة بسفنه على الشواطئ النصرانية القريبة سواء في قطالونيه أو على ساحل البروفانس. ثم من بعده سليمان بن مشكيان (٤٣٦ – ٤٤٢هـ/١٠٤٤ – ١٠٥١م) الذي غزا سردانيه مرة ثانية عام ٤٤١هـ / ١٠٥٠م) وفتحها[٣١]. غير أن قوات جنوه وبيزا نجحت في إخراجه منها والسيطرة عليها . وقد تحولت من وقتها من موقف الدفاع إلى موقع الهجوم . وبدأت تتحفز لتسديد أية ضربة للسواحل الإسلامية التي كانت تأتيها من الهجمات .

ثم خلف سليمان مبشر الملقب بناصر الدولة (٤٨٦-٥٠٩هـ/ ١٠٩٣-١١١٥م) الذي تسببت غزواته في حفز برشلونه ضده ؛ إذ أخذ يكرر غزواته عليها حتى جمع له حاكمها جموعه[٣٢]. وهو الكونت رامون برنجير الثالث (١٠٦٩ – ١١٣١م) الذي كانت برشلونة في عهده من أكبر المراكز التجارية على الساحل الإسباني ، بالإضافة إلى أطماعه في أملاك المسلمين ، ناهيك عن قرب سواحل بلاده من جزر البليار ، عندئذ اتحدت أهداف هذه القوى معاً على الإيقاع بذلك الثغر. وقد أصبح الثغر الأمامي الباقي للمسلمين في غرب البحر المتوسط .

عند متابعة الأحداث التي مر بها هذا الثغر يتبين كيف اقتضى الأمر تدخل المرابطين في هذه المواجهة .

جاء في الرواية العربية " أنه في سنة ثمان وخمسمائة (١١١٤م) اجتمع أهل بيشة وجنوه ، وعمروا ثلاثمائة مركب وخرجوا إلى جزيرة يابسة من عمل ميورقه فغلبوها وسبوها وانتهبوها . ثم انتقلوا إلى جزيرة ميورقه .... وكان يقوم بالأمر بها مبشر الخصى الملقب بناصر الدولة . فلما نازله العدو ، ذب عن حماه ... إلى أن مات رحمه الله ، فقام بالأمر من بعده قريبه القائد أبو الربيع سليمان بن لبون ، فحمى جهده حتى غلب عليه وتملك العدو البلد .

وفي خلال ذلك الحصار كان ناصر الدولة كتب إلى أمير المسلمين يستصرخه ويستنصرنه ، ووجه كتابه مع القائد أبي عبد الله بن ميمون ، وكان إذ ذاك قائد غراب * بين يديه . فلم يشعر العدو حتى خرج الغراب معمراً ليلاً من دار الصناعة عليه ، فانطلق في الحين يقفوا أثره ، واتبعه نحو عشرة أميال ، والظلام قد ستره ، فلما قطع يأسه في الظفر به ، رجع خاسئاً على عقبه ، فوصل ابن ميمون بالكتاب إلى أمير المسلمين ، فأمر في الحين بتعمير ثلاثمائة قطعة ، وأن تلقي بعد شهر دفعة ، فامتثل أمره في ذلك ، واندفعت بجملتها من هناك ، وإذ ذاك تعين ابن ميمون عند أمير المسلمين .

فلما شعر العدو بخروج ذلك الأسطول أخلى وصدر عن الجزيرة ، وعينه بما احتمل من السبي والأموال قريرة . فلما وصل الأسطول ، وجد المدينة خاوية على عروشها محترقة سوداء منقبضة . فعمرها قائد الأسطول " ابن تافرطاس " بمن معه من المرابطين والمجاهدين وأصناف الناس ، وجلب إليها من كان فر عنها إلى الجبال فاستوطنوها وعمروها وسكنوها ، وانصرف الأسطول إلى مكانه ، وعاد إلى موضع مقره واستيطانه .

وفي انصراف العدو إلى أوطانه ، هبت عليه ريح ببحار طامية ، فحملت منه أربع قطائع إلى ناحية دانية . فعمر (أو عبر) إليها قائد البحر أبو السداد ، ففرت

أمامه ، وغرقت واحدة منها قدامه وعكس الثلاث (عكسها أي صيرها مراكب إسلامية) . [٣٣]

تعتبر هذه الرواية أكثر الروايات العربية تفصيلاً في متابعة الحدث . في حين اكتفت روايات أخرى بذكر سيطرة المرابطين على الجزائر في العام المذكور . [٣٤]

ومع ذلك فهي تنقصها بعض التفاصيل الدقيقة اللازمة لفهم سياق الأحداث .

فعلى سبيل المثال لم تذكر متى توفى مبشر حاكم الجزائر وفي أي ظروف . كما لم تذكر القاعدة البحرية التي خرج منها الأسطول المرابطي لإنقاذ الجزائر . وكذلك لم تذكرها عند الإشارة إلى عودته إليها . كما لم تذكر ما مر من أحداث خلال المدة التي استغرقها تجهيز الأسطول للقيام بهذه المهمة منذ طلبه حتى أنه وصل ليجد المدينة خاوية على عروشها محترقة . وكان غياب هذه التفاصيل هو ما جعل الرواية تكاد لا تنسب لأسطول المرابطين أي دور في إنقاذ الجزيرة بل على العكس صوّرته على أنه لم يقدم على فعل شئ للدفاع عنها ، بل وصل بعد فوات الأوان .

في حين قدمت الرواية الغربية رواية مغايرة تعكس وجهة نظرها في سير الأحداث ، وإن كانت يمكن أن تفيد في استجلاء بعض الأمور التي أغفلتها الرواية العربية وبالتالي قد تجيب على تلك التساؤلات .

أولاً أشارت المصادر التي تمثل أحد الأطراف المشتركة في الحملة وهي بيزا أن جنوه لم تشترك فيها وقد أنحت باللائمة على موقفها هذا [٣٥] . ويبدو أن هذه المصادر على صواب بهذا الخصوص ؛ إذ كانت العلاقات بين بيزا وجنوه في تلك الفترة على قدر كبير من التوتر نتيجة للتنافس الشديد فيما بينهما على السيطرة على جزر البحر المتوسط المجاورة وهي قورصقه وسردانيه . وزاد من حدة الخلاف عندما خص البابا أوربان الثاني بيزا بالسيادة على قورصقه . وبعد أن

اشتركت جنوه مع بيزا في إخراج المسلمين من سردانيه عام ١٠٥٠م ، تسبب تقسيم الجزيرة بينهما في زيادة الشقاق بينهما . وبدأت الأعمال العدائية بينهما ولم تتوقف إلا بتدخل البابا أنوسنت الثاني عام ١١٣٣م . (٣٦)

وعليه يصح اعتماد ما جاء بتلك الرواية بخصوص عدم اشتراك جنوه في الحملة . على خلاف ما جاء بالمصدر العربي .

ورد بتلك المصادر أيضاً أنه عندما فرض الحصار على الجزيرة أرسل مبشر رسولاً إلى أمير دانيه يناشده إرسال عون بحري ، وأرسل مركباً خفيفاً إلى دانيه (من مدن شرق الأندلس المقابلة لها على الساحل الأندلسي) وفيه مبعوث له يحمل رسائل إلى الأمير الداني مستصرخاً إياه وطالباً إليه إمداده بما يعينه على التصدي للحصار . ويجيبه أمير دانيه بأنه قد جهز له أسطولاً مزوداً بالرجال والعدة ومستعداً للإبحار في أقرب وقت . ومن أجل تسليط الضوء على ما قامت به قوات بيزا من مجهودات ، عمد المصدر البيزي إلى الإشارة إلى أن سفن بيزا قامت بالقبض على السفن أثناء عودتها من مهمتها ، ومن بينها مركب دانيه الذي يحمل جواب أميرها وفيه يعلن إليه أنه قبل أن ينتهي الشهر ، فإن الإمدادات سوف تصل إليه . (٣٧)

وهذه الرواية وإن كانت تتشابه في قدر كبير منها مع ما ذكرته الرواية العربية من خروج سفينة لطلب النجدة إلا أنه يمكن بناء على هذه الرواية معرفة القاعدة التي خرج منها الأسطول المرابطي الذي تم إعداده لنجدة الجزائر ، واتضح أنها " دانيه " أقرب مدن الأندلس إلى الجزائر - . كما يمكن أن يفهم من الرواية أن الأسطول حتى وإن كان جاهزاً للخروج فإنه لم يكن من المتوقع وصوله قبل شهر أو يزيد من طلب أهل الجزائر له . وإنه ربما تأخر أكثر من ذلك ، ريثما تحين له فرصة الاقتراب ، نتيجة وجود سفن بيزا حول سواحل الجزائر . وعليه

يمكن أن يعزي إلى هذا الوضع السبب في وصوله متأخراً .

كما جاءت معلومات هامة من خلال مصدر آخر يمثل أحد الأطراف المشتركة في الحملة وهو طرف لم تذكره الرواية العربية ، على الرغم من الدور الكبير الذي قام به في توجيه مسار الأحداث ومن ثم في النتيجة التي أفضت إليها الحملة .

فقد فصل هذا المصدر الدور الذي قام به كونت برشلونه في جمع الحشود لتلك الحملة . وكيف أنها مع قوة بيزا قد اجتمعت في مراسي برشلونه . وأنها خرجت من بلاده ، وتحت قيادته . (٣٨)

وإن كانت بالطبع قد ركزت على ما قامت به قوات برشلونه ومجدت بطولات الكونت ونسبت إليه ما حققته الحملة من نتائج . إلا أنها عند متابعة المناوشات التي حدثت أثناء الحصار بين قواتها وبين مسلمي الجزيرة وقيادتها قد لفتت النظر إلى الدور الذي قام بها حاكم الجزيرة والذي تسبب في إطالة أمد العمليات دون أن تحقق نتائج حاسمة . كما عمدت إلى إظهار مسلمي الجزيرة في حالة من الضعف وخاصة بعد موت حاكمهم . وإن كانت دون قصد قد أثبتت شدة المقاومة حينما تابعت جهود قوات برشلونه وقيادتها أثناء الحصار الطويل.

أما أهم ما يمكن أن يؤخذ من هذه الرواية هو ما حدث للكونت أثناء الحملة وما استتبعه من تصرفات من قبله وجهت الأحداث وأفضت إلى النتيجة التي وصلت إليها الحملة .

فقد ذكرت أنه أثناء وضع الحصار على مدينة ميورقه والاشتداد فيه حتى أوشكت على السقوط أتت أنباء من برشلونه تخبر الكونت بقيام قادة المرابطين بمدن شرق الأندلس بالإغارة على حدوده ، وأنهم على مشارف برشلونه ، فما كان منه إلا أن همَّ بالعودة مسرعاً تاركاً مهمة إسقاط الجزيرة على عاتق البيزيين . (٣٩)

وبمتابعة أحداث ما وقع من قتال بين قادة المرابطين وقوات برشلونه – وهو ما ذكرته المصادر العربية – إذ ذكرت أن القائد محمد بن الحاج بعـد أن أخـضع سرقسطه عام ٥٠٢هـ لم يزل بها إلى أن خرج غازياً إلى برشلونه فاستشهد بهـا وذلك في سنة ثمان وخمسمائة . وكان طوال أيام ولايته ببلنسيه وسرقسطه قد ضيق بالنصارى تضييقاً عظيماً بالغارات على بلادهم . [٤٠]

كما ذكرت أن القائد ابن عائشة اشترك مع ابن الحاج في غزو برشلونه فـي ذات العام في تلك الحملة التي انتهت بوقعة " البورت " . التي أصـيب فيهـا ابـن عائشة ، واضطر بعدها لوقف نشاطاته [٤١] . ثم ولى مكان ابن الحاج القائد أبو بكر بن إبراهيم بن تافلوت وكان عاملاً على مرسية ، فاجتمـع إليه من كان بهـا مـن الجند إلى جند سرقسطه وسار بهـا إلى برشلونـه ، فنزلهـا وأقـام عليهـا عشرين يوماً حتى هتكها وقطع ثمارها وخرب أنحاءها وقراها . [٤٢]

عندئذ تبين أن هذه العمليات الهجومية قد نجحت في إشغال الكونت وإبعـاده عن مواصلة حصار الجزائر ، في ذات الفترة التي يـتم فيهـا إعـداد الأسـطول المرابطي ليتوجه لإنقاذ الجزائر ، مما كان له أكبر الأثر في رفع الحصار عنهـا . بعد أن اضطرت قوات بيزا بعد مفارقة قوات برشلونه لهم إلى الإسـراع بمغـادرة الجزائر . وهكذا يمكن أن تنسب لتلك التحركات من جانب المرابطين دور كبير في تخليص الجزيرة ، حتى وإن لم يحدث اشـتراكهم فـي المواجهـة المباشـرة مـع المعتدين، إلا أنهم استعملوا ما أمكنهم من وسائل ضغط ، أجبرت المعتـدين علـى التراجع . ومن ثم ظهر أسـطولهم كأسـطول ردع ، اضـطر المعتـدون عنـدما استشعروا قرب وصوله إلى المغادرة قبل أن يحدث الالتحام معه .

هكذا اتضح حجم وطبيعة ما قام به المرابطون من دور في تلـك المواجهـة أسهم في رد تلك القوى البحرية المسيحية ومن حالفها من قـوى النـصرانية فـي

الأندلس عن جزر البليار . ومن ثم حق للمرابطين أن يستخلصوها ويتولوا أمرها بأنفسهم ويعيدوها لتؤدي دورها كدرع واقي لمدن شرق الأندلس من جهة ، ومن جهة أخرى لأهميتها الإستراتيجية في الحوض الغربي للبحر المتوسط بالنسبة لوضع القوة البحرية المرابطية حتى أن عملية السيطرة عليها واستنقاذها من أيدي الغزاة النصارى تعد في نظر المعلقين من أعظم الأعمال التي حققها أمير المسلمين عليّ بن يوسف (٤٣) (٥٠٠ – ٥٣٧هـ / ١١٠٦ – ١١٤٢م) .

عندما شرع المرابطون في حكم هذه الجزائر ، وهي المرة الأولى التي يتولون فيها السيطرة على جزر ، واجهوا تحدي آخر وهو أن يجدوا من بين قادتهم من يصلح لإدارة هذا الثغر .

ذكرت المصادر أنه ما أن أضحت الجزائر الشرقية ضمن الدولة المرابطية الكبرى ، أرسل إليها أمير المسلمين عليّ بن يوسف واليا من قبله هو وانور بن أبي بكر اللمتوني (٤٤) . بعد ولاية قصيرة للقائد أبي السداد * ثم خلفه ابنه الذي يبدو أنه لم يوفق خلالها في إدارة هذا الثغر ؛ حيث جاء بخطاب تولي الحاكم الذي خلفه بعد موته ، نعته بالسفيه المعتوه الذي أوحش أهل الجزيرة وروعهم . وعليه كان على أمير المسلمين أن يسدي النصح للوالي الجديد ويلفت نظره إلى ظروف الجزيرة وأهلها (٤٥) . فقد كانت أحوال الجزيرة وأهلها سيئة للغاية بعد تلك المأساة المروعة التي مروا بها . وإزاء هذه الظروف الصعبة والمسؤولية الكبيرة التي ألقيت على عاتق هذا الوالي الجديد ، فلم يجد غير أسلوب الصرامة والحزم ليأخذ به زمام الأمور . فتذكر المصادر أنه عصف بأهل الجزائر واشتد في إرهاقهم . ويبدو أنه أراد أن يتفادى تكرار المأساة ، ففكر في ترك ثغر ميورقه وإنشاء مدينة جديدة داخل الجزيرة تكون بعيدة عن البحر (٤٦) . دون أن يتفهم طبيعة حياة هؤلاء الناس ومدى ارتباطهم وارتباط معيشتهم بالبحر، فثاروا عليه واعتقلوه ، وأرسلوا إلى أمير

المسلمين يعلموه بالأمر ، فاستجاب لهم وأرسل إليهم والياً جديداً ، هو محمـد بـن عليّ بن غانيه الذي قدمها عام ٥٢٠هـ / ١١٢٦م ليتولى زمام الأمور فيها . وهو من تلك الأسرة التي وليّ عدد من أفرادها على مدن الأندلس إشبيليه ، وقرطبـه ، وغرناطه وقرمونه [٤٧] . وهكذا وفق المرابطون آخر الأمر في إيجاد قيادة تـصلح لإدارة هذا الثغر ، إذ لم تشهد الجزائر الاستقرار والهدوء إلا بولاية محمد بن عليّ، الذي قدر له أن يؤسس لأسرته بهذه الجزائر ملكاً يتوارثونه ، إذ عمل على توطيـد سلطانه هناك [٤٨] . في الوقت الذي بدأت فيه الأنواء تهز ملـك المـرابطين فـي المغرب والأندلس ، حيث ستستمر الجزائر آخر معقل مرابطي في يـد المـرابطين من أسرة بني غانية زهاء ثمانية وخمسين عاماً بعد سقوط الدولة المرابطيـة عـام ٥٤٢هـ/١١٤٧ م في يد الموحدين . وهو ما سيتبين في حينه عندما نتابع مـسيرة هذا المعقل المرابطي.

عندما نجح المرابطون في دفع الهجوم الذي أقدمت عليـه القـوى البحريـة المسيحية على الجزائر الشرقية وتمكنوا من رفع الحـصار عنهـا ، عندئـذ تأكـد اضطلاع المرابطين بدورهم كقوة بحرية في مواجهة اعتداءات تلـك القـوى فـي غربي البحر المتوسط .

إبان تلك الآونة تقريباً لم يكن الوضع في الحوض الأوسط لهذا البحر يختلف كثيراً عن الوضع في غربه ، إذ كان ظهور قوة النورمان واتجاههم للدخول كقـوة بحرية في عالم البحر المتوسط ينذر بحتمية المواجهة مع المسلمين . فما أن وطـد هؤلاء النورمان لأنفسهم موطناً في جنوب إيطاليا بحلول النصف الثاني من القـرن الحادي عشر الميلادي ، حتى بدأ توجسهم من مجاورة أملاكهم للمسلمين .

وكانت صقليه بحكم موقعها المجاور لحدود النورمان أول أراضي المـسلمين عرضة لتنفيذ ما عزم النورمان عليه من سياسة إزاء المسلمين [٤٩] . فقـد عقـدوا

العزم على أن يكون همهم هو الحصول على أكبر قدر من المكاسب على حساب المسلمين .

وما لبثت أحوال صقليه أن مهدت لسقوطها التدريجي في أيديهم من ١٠٦٠ – ١٠٩١م / ٤٥٤ – ٤٨٤هـ ، وانتزاعها من المسلمين . ومنها بدأوا يوجهون أنظارهم نحو سواحل إفريقية والمغرب انتظاراً لأية فرصة لوضع أيديهم على أية بقعة منها . ومن ثم تحددت العلاقة بينهم وبين المسلمين على ذلك الساحل المواجه لهم .

كان تدخل بني زيري – حكام إفريقية – في محاولات إنقاذ صقليه ، مما أدى إلى إطالة أمد العمليات وأخّر عملية احتلالها من قبل النورمان ، قد تسبب في فتح سجل العداء بين النورمان وبين إفريقيه .

حتى العقد السادس من القرن الخامس الهجري كانت إفريقيه في عهد تميم بن المعز (٤٥٤ – ٥٠١هـ / ١٠٦٢ – ١١٠٨م) قادرة على توجيه هجماتها صوب النورمان في كل من جنوب إيطاليا وصقليه .

فقد أشارت المصادر المسيحية – دون العربية – إلى حملتين ، أولاهما على جنوب إيطاليا عام ١٠٧٤م / ٤٦٦هـ حيث انقض أسطول تميم الذي كان يتجول في المياه الصقليه فجأة على مدينة نقُوطرة الواقعة في إقليم كلابريا ، فغنم غنائم وافرة وسبى بعض الأسرى ، ثم أطلق سبيلهم مقابل فدية وقفل راجعاً إلى المهديه .

كما قام عام ١٠٧٥م / ٤٦٧ – ٤٦٨هـ ذات الأسطول بإنزال بعض جنوده في مازر (على الساحل الغربي لصقليه) وحاصروا قلعتها مدة ثمانية أيام مقرين العزم على السيطرة على المدينة . ولكن رجار الأول (ت ١١٠١م / ٤٩٤هـ) الذي استدعاه بعض المبعوثين قدم على جناح السرعة مصحوباً بفرقة عسكرية عتيدة ودخل القلعة محرزاً انتصاراً باهراً . وأكدت ذات المصادر على أن ابن أخي

ملك إفريقيه قد وقع في الأسر. (٥٠)

يبدو أن فشل هاتين الحملتين قد أدى إلى دخول الطرفين في مفاوضات انتهت بتوقيع معاهدة أنهت تدخل تميم في شؤون صقليه . (٥١)

كما حدث خلال الأشهر من عام ١٠٧٦م / ٤٦٨هـ أن استطاع البابا جريجوري السابع التفاوض مع خصوم تميم منهم الناصر بن حماد (٤٥٤ – ٤٨١هـ / ١٠٦٢ – ١٠٨٨م) حاكم المغرب الأوسط . وارتبط هذا الأخير مع البابا بعلاقات ود وصداقة . وتعهد بإطلاق جميع الأسرى المسيحيين في مملكته . كما فتحت هذه العلاقات الطريق أمام الجمهوريات الإيطالية لتوقيع معاهدات معه منحوا بمقتضاها امتيازات كبيرة في موانيه . (٥٢)

كما مارست البابويه ضغطها على بحرية إفريقيه بصورة أخرى حين دعت المدن المسيحية إلى منع تصدير الأسلحة والخشب المستخدم في صناعة السفن للمسلمين . مما كان له أكبر الأثر في إضعاف بحرية إفريقية . (٥٣)

ولا شك أن النورمان بدورهم قد بذلوا كل ما في وسعهم لمنع وصول الخشب إلى المهديه . في الوقت الذي كان يتنامى فيه أسطولهم بعد تمكنهم من السيطرة على المدن البحرية على الساحل الغربي لإيطاليا مثل بوني ١٠٧١م ، وأمالفي ١٠٧٣م ، سالرنو ١٠٧٦م . (٥٤)

بعد ذلك تلقت المهديه الضربة الكبرى حين انتهزت كل من بيزا وجنوه فرصة ما خلفته تلك الممارسات ضد بني زيري وقاموا بحملتهم المدمرة على البلاد عام ١٠٨٧م / ٤٨٠هـ ، والتمسوا المعونة من الملاحين الإيطاليين وبمباركة البابا فيكتور الثالث الذي قام بتعيين الأسقف مودينو المسمى بنديكتوس على رأس الحملة العسكرية بعدة كبيرة قدرت بثلاثين ألف فارس على متن ثلاثمائة سفينة .

وكان الهجوم عنيفاً مدمراً ، كما استهدف بصورة مباشرة مدينة زويله في

ضاحية المهدية إلى الداخل نحو الجنوب الغربي منها ، وكانت زويله ذات أهميـــة تجارية وصناعية كبيرة ، إذ كانت المركز الاقتصادي الذي تعتمد عليه المهدية وقد أقدمت هذه القوى على تلك الحملة بدعوى إيقاف النشاطات البحرية التي كان يقـــوم بها أسطول إفريقيه وتبنيه لعمليات القرصنة ضد السفن المسيحية وموانيها ، وكـــذا تخليص الأعداد الكبيرة من الأسرى المسيحيين الذين كان يحتفظ بهم بنو زيري في سجونهم . (٥٥) – على حد زعمهم .

ولاستنفاذ المهدية اضطر تميم إلى دفع مبلغ نقدي كبير قدر ما بـــين ثلاثـــين ومائة ألف دينار ، كما منح تجار بيزا وجنوه حرية الدخول إلى المهدية والمنـــاطق التابعة لها ، كما قام بإطلاق سراح الأسرى المسلمين لديه ، ووعـــد بـــالكف عـــن أعمال القرصنة . (٥٦)

هكذا نجحت تلك الحملة في تحقيق أهدافها وأدت إلى إضعاف قوة الزيـــريين في إفريقيه عسكرياً واقتصادياً .

حقيقة أن النورمان لم يشتركوا في تلك الحملة بسبب المعاهدة التي تـــربطهم ببني زيري . وبسبب انشغالهم بإتمام فتح صقليه . إلا أنهم استفادوا – دون شـــك – من نتائجها التي أصابت قوة الزيريين .

فقد أشارت رواية عربية إلى وصول الرمانيين إلى المهديه باجفـــان كثيـــرة حربية تسمى الشواني ومعهم ثمانية وعشرون مركباً . وكـــان قـــصدهم أن يجـــدوا فرصة كما وجدها الروم المتقدم ذكرهم ، فقصدوا إلى باب دار الـــصناعة ليمنعـــوا أسطول المهدية من الخروج إليهم ، فهزموهم وقتلوا كثيراً منهم . (٥٧)

وقد أعطت الرواية هذه الحادثة تاريخ ٤٩٤هـــ / ١١٠١م وهي السنة التـــي توافق وفاة رجار الأول وتولية رجار الثاني حكـــم مملكـــة النورمـــان (١١٠١ – ١١٥٤م) .

بيـــد أن الهدوء ســـاد العلاقات بين بني زيري والنورمان خلال عهد يحيـــى بين تميم (٥٠١ – ٥٠٩هـــ / ١١٠٨ – ١١١٦م) ، إذ احترمت كل من إفريقيـــه وصقليه العهد المبرم بين رجار وتميم . وكثف البلدان مبادلاتهما التجارية .

كما تمكن يحيى من أن يعيد بناء قوته البحرية فزاد في عدد السفن وأكثر من عمليات الغزو في البحر ، والذي انتهج فيه برنامجاً يقوم على الإغارات الخاطفـــة ومناوشة السفن بواسطة مجموعة صغيرة من المراكب لا تترك المجال لردود فعـــل للعدو إلا في حدود ضيقة للغاية [٥٨] . وقد اتخذت هذه العمليات مجالاً لها ســـواحل البحر التيراني وسواحل الجزر في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، حسبما أشارت المصادر العربية حين ذكرت تردد تلك الأساطيل على سواحل جنوه وســـردانيه[٥٩]. أي بعيداً عن حدود النورمان .

إلى أن جاء إلى الحكم علـــيّ بـــن يحيـــى (٥٠٩ – ٥١٥هـــ / ١١١٦ – ١١٢١م) ليبدأ عهد جديد في العلاقات مع النورمان . بدأ مع أحداث أهم قضية في عهد عليّ وهي قضية قابس * التي استنجد صاحبها بملك النورمان .

تناقلت المصادر العربية أحداث هذه القضية وتابعت تـــداعياتها فيمـــا اســـمته بالوحشة بين رجار وعليّ ، والتي وقعت في العام ٥١١هـــ / ١١١٨م .

كان رافع حاكم قابس قد استقل بها عن سلطة بني زيري منذ عهد تميم ، ثـــم أقدم على إنشاء سفينة بساحل قابس أعدها لما يعرض له في البحر من الأمر . فلـــم يبد يحيى بن تميم أنكاراً لذلك بل أعانه عليها وأمده بما احتاجه إليه فيها . [٦٠]

فلما ولى عليّ بن يحيى أنف ذلك وكره أن يقاومه أحد من أهل إفريقيه فـــي إجراء السفن في البحر . فأنفذ أسطولاً إلى ساحل قابس لمنع هـــذه الـــسفن مـــن الإقلاع وأخذها إن أقلعت . فما كان من رافع إلا أن كتب لرجار صـــاحب صـــقليه يسأله الإعانة على عليّ ويخبره أنه إنما أنشأ تلك السفينة لبعث هدية يجب أن يهديها

له[٦١].

ربما اعتبر رجار هذه الحادثة فرصة للاستفادة من رافع في تجاوز الرسوم التي كانت تتقاضاها حكومة بني زيري من السفن التجارية الصقليه . [٦٢]

وعليه أرسل رجار أسطولاً لنصرة قابس . ولما علم عليّ بأمر هذا الأسطول أخرج أسطوله إلى قابس[٦٣].

اختلفت المصادر حول لقاء الأسطوليين أمام قابس ، فمنهم من ذكر أن الأسطول الصقلي عاد من حيث أتى دون قتال . وبقى أسطول عليّ يحصر رافعاً بقابس مضيقاً عليه[٦٤].

وفي رواية أخرى جاء أن أسطول عليّ وجد الروم قد نزلوا من قطعهم في ضيافة رافع . فراعهم وجوده وبادروا إلى قطعهم ، فغلبهم المسلمون على أكثرها وقتلوا منهم جماعة[٦٥].

وعلق صاحب الرواية الأخيرة في نهايتها بأن ذلك ، من أسباب الوحشة التي وقعت بين رجار وعليّ وابن الحسن بعده ، حتى أدت إلى تغلب الروم على المهديه وانقراض دولة بني مناد منها[٦٦].

زادت مظاهر الوحشة بين الطرفين إثر بعض الأحداث منها وصول رسول رجار إلى عليّ سنة ٥١٢هـ / ١١١٨ - ١١١٩م يقتضي أموالاً كانت موقوفة له بالمهدية . وكان عليّ عند تلك الوحشة قد أمسك وكلاءه ، فسرحهم له عليّ ووجههم إليه بأمواله ، فلما وصلت إليه وجه رسولاً ثانياً بمكاتبة فيها إغلاظ وتهديد وتقصير على العادة وإساءة في الأدب ، فأغضب ذلك علياً وصرف رسوله دون جواب ، وبلغ علياً أن النصراني يتهدده ويتوعده ، فأمر باستجداد الأساطيل والاستعداد لقتاله فأنشأ أسطولاً قويت به أنفس الناس[٦٧].

وأشارت رواية أخرى أن علياً جهز قبل وفاته عشرة مراكب حربية وثلاثين

غراباً مجهزة ومزودة بالمؤونة والنفط ، وأضافت أن علياً كاتب المرابطين بمراكش في الاجتماع معه على الدخول إلى صقليه . فكف رجار عما كان يعتمده(٦٨).

على هذا النحو يتبين من هذه الحادثة وتداعياتها كيف كان النورمان علـــى استعداد لاستغلال أية فرصة للتدخل في شؤون إفريقيه . غير أن ما حدد تصرفاتهم هو ما كان يربطهم بحكامها من معاهدات واتفاقات من جهة . كما كـــبح جمـــاحهم إمكانية تدخل المرابطين من جهة أخرى.

عادت الأحداث إلى التأزم في عهد الحسن بـــن علـــيّ (٥٠٢ – ٥٤٣هـــ / ١١٠٩ – ١١٤٨م) أعزت المصادر السبب في ذلك إلى قيام أسطول عام ٥١٦هـــ / ١١٢٢م بقيادة عبد الله بن ميمون – قائد أســـطول علـــيّ بـــن يوســـف (أميـــر المرابطين) بغزو مدينة بقوطرة من عمل صاحب صقليه ، ففتحها وسبى نـــساءها وأطفالها . عندها لم يشك رجار أن السبب الباعث على ذلك والمحرك له صـــاحب المهدية فاستنفر أهل بلاد الروم قاطبه واستجاش وحشد ، وأمر بمنع الـــسفر إلـــى سواحل المسلمين(٦٩).

ثم تابعت الرواية إنه في سنة ٥١٧هـــ / ١١٢٣م حاصر أســـطول صـــاحب صقليه مدينة المهدية ونزل عليها في جمادي الأول في نحو ثلاثمائة مركب حمـــل على ظهورها ثلاثين ألف راكب وزهاء ألف فارس فأرسل الله عليهم ريحاً صيرت جمعهم إلى الاندثار وأصلتهم مع بر الماء حر النار ، فلما عاينوا ما نزل بهم أنزلوا عن ظهور مراكبهم ما كان أنجاه الغرق من أفراسهم فصدموا بها جيوش المـــسلمين خيب الله آمالهم وجعل الدائرة عليهم لا لهم ، واقلع جميع الأسطول خاسرين إلـــى بلادهم . وبعد ذلك لم يزل صاحب صقليه يحيل على المهديه إلى أن استولى عليهـــا بعد ذلك(٧٠).

أجملت هذه الرواية الباعث على تحرك النورمان ضد المهديه بهجوم أسطول

المرابطين على سواحلهم . وقد أوردت رواية أخرى بعض التفاصيل الهامة منها أنه لما اعتزم رجار على حصار المهديه ، كان الحسن قد استعد لحربهم فأمر باتخاذ العدة وتجديد الأسوار وجمع المقاتلة فأتاه من أهل البلاد ومن العرب جمع كثير . ولما خرج الأسطول الفرنجي من مرسى عليّ(*)، فرقتهم الريح وغرق منهم مراكب كثيرة ونازل من سلم منهم جزيرة قوصرة(**)، ففتحها وقتل من بها وسبى وغنم ، وساروا عنها فوصلوا إفريقيه ونازلوا حصن الديماس ، وهو حصن منيع في وسطه حصن آخر وهو مشرف على البحر ، ومكثوا بالحصن ستة عشر يوماً حتى أفناهم المسلمون[٧١].

وجاءت رواية ثالثة لتضيف مزيداً من التفاصيل ، فذكرت انه ما أن نزل الأسطول إلى ساحل المهدية وضربوا الأبنية وملكوا قصر الديماس وجزيرة الأحاسي (*) وتكرر القتال بينهم إلى أن غلبهم المسلمون ، وأقلعوا راجعين إلى صقليه بعد أن استحر القتل فيهم . وأضافت أنه وصل بأثر ذلك محمد بن ميمون قائد المرابطين بأسطوله فغاث في نواحي صقليه . واعتزم رجار على إعادة الغزو إلى المهديه[٧٢].

أكدت هاتان الروايتان إقدام النورمان على الثأر من صاحب المهدية بعدما تعرضت سواحلهم لهجوم من جانب أسطول المرابطين . وجاء الانتقام بمحاصرة المهديه وإن لم يسفر سوى عن مداهمة أحد حصونها . وبعد قتال عنيف تمكن المسلمون من التغلب عليهم وبالتالي فشلت هذه الغزوة ، التي أعقبها هجوم أسطول مرابطي مرة أخرى على سواحلهم مما زاد من عزم النورمان على معاودة غزو المهديه .

وقد أشارت المصادر الغربية بدورها إلى هذا الهجوم المرابطي الثاني وإن أعطته تاريخاً متأخراً هو عام ١١٢٧م / ٥٢١هـ . وحددت أنه استهدف مدينتي

باتي وسرقوسة(**) وأنه كان بقيادة محمد بن ميمون فنهبهما وأحرقهما . وأضـــافت أن أهل قطانية(***) أوشكوا على التعرض لنفس المصير لو لم يقع تنبيههم إلى ذلك حتى يأخذوا الاستعدادات اللازمة للدفاع عن مدينتهم[٧٣].

وإذا كان الأسطول المرابطي قد ظهر في تلك الآونة ليجول بتلك الأنحـــاء ، إنما كان ذلك استنصاراً لأهل المهديه حيث أكدت رواية رابعـــة علـــى أن الحـــسن كاتب بالفعل أمير المسلمين بـــالمغرب علـــيّ بـــن يوســـف [٧٤] . وإن الأســـطول المرابطي وإن لم يشتبك مع الأسطول النورماني مباشرة إبان وقوع الحصار إلا أنه رد على هذا الاعتداء بالتوجه نحو سواحل بلاد النورمان ذاتها . وان مدينة نقوطرة التي قصدها الأسطول المرابطي في الهجوم الأول على الرغم مـــن كونهـــا مدينـــة صغيرة إلا أنها تقع في إقليم كلابريا – قلب مملكة النورمان . ولعل قصدها لم يكن اتفاقا أو من قبيل المصادفة . بل أنه له دلالة كبيرة تنم عن وعي القيـــادة البحريـــة المرابطية وقصدها توجيه رسالة إلى النورمان بأنها قادرة على الوصول إلى قلـــب مملكتهم. قصد الأسطول نواحي صقليه في الهجوم الثاني فكان يهدف أيـــضاً إلـــى جانب الرد على الاعتداء الذي وقع على المهديه ، يهدف على إفهام النورمـــان أن الأسطول المرابطي بإمكانه أن يصل إلى تلك الأنحاء حول قاعدة ملكهم .

وهكذا استطاعت البحرية المرابطية أن تهب لنصرة إخوانهم فـــي إفريقيـــة. وتثبت قدراتها كقوة بحرية في عالم البحر المتوسط تستطيع أن تصل إلى الحـــوض الأوسط وتمارس نشاطاتها فيه .

وسواء فهم النورمان هذه الرسالة أم لا . يبدو أن هذه التحركات من جانـــب المرابطين قد أحدثت أثراً ، إذ لم تسجل المصادر أي هجوم على ســـواحل إفريقيـــه بعد هذه الهجمة – وإن أشارت إلى أن رجار في تلك الأثناء كان يعمـــر الـــشواني ويكثر عددها وآلاتها [٧٥] – حتى عام ٥٢٩هـ / ١١٣٥م وفيـــه قـــصدوا جزيـــرة

جربة إلى الجنوب من المهديه . وهي الفترة التي عاصرت دخول دولة المـــرابطين في دور الانحدار إبان انشغالهم بالثورات التي قامت عليهم بالأندلس ومواجهتهم مع قوة الموحدين .

إذا ما انتقلنا إلى آخر ظهور للقوة البحرية للمرابطين . الذي شـــاء القـــدر أن تمثله الجزائر الشرقية بنشاطها البحري وعلاقتها مع القوى المسيحية فـــي البحـــر المتوسط نجد أن الجزائر الشرقية ظلت تتمتع بالأمن والاستقرار طيلة عهـــد أميـــر المسلمين عليّ بن يوسف تحت حكم عاملها محمد بن عليّ من أسرة بنـــي غانيـــة . وكان عليّ بن يوسف قد وكل إلى عماله على الجزر الإشراف على أساطيل ثغـــر دانيه بشرق الأندلس منذ بداية خضوع الجزائر لولاية المرابطين . (٧٦)

وزاد تولي أسرة بني غانيه الحكم (٥٢٠ – ٦٠٠ هـــ/١١٢٦ – ١٢٠٣م)، ارتباط الجزائر بشرق الأندلس وولاته من نفس الأسرة . فاستمرت الجزائر دعمـــاً ودرعاً لمدن شرق الأندلس . وصار الارتباط بين الجزائر وهذه المدن – من خلال العمل المشترك – يسهم بدور كبير في إبعاد خطر وتهديد قوات أراجون وبرشلونه عن شرق الأندلس . مما أدى إلى تمكن يحيى بن عليّ بن غانيه والى مرسيه منـــذ عام ٥١٥ هـــ / ١١٢١م ، ثم بلنسيه عام ٥٢٤هـــ / ١١٢٦م مـــن هزيمـــة تلـــك القوات في معركة " إفراغه " عام ٥٢٨هـــ / ١١٣٤م.(٧٧)

كما توجه محمد بن عليّ من ميورقه على رأس بعض قطعاته البحرية إلـــى بلنسيه لمناصرة أخيه عام ٥٣٧هـــ / ١١٤٢م (٧٨) عنـــدما بـــدأت الثـــورة علـــى المرابطين في الأندلس .

وهكذا ظلت الجزائر الشرقية عوناً لمدن شرق الأندلس ، إلى أن تعرضـــــت المريـــه – الثغر البحري المرابطي – لهجمة شرسة عام ٥٤٢هـــ / ١١٤٧م مـــن قبل القوات الإسبانية النصرانية متمثلة في قوات برشلونه بالتحالف مع أسطول مـــن

جنوه وبيزا ، مستغلين تحرج موقف المرابطين بالأندلس ، دون أن تتلقى المريه عونا من أي جانب . ويبدو أن من نجا من أساطيل المريه بعد سقوطها لجأ إلى الجزائر ، حيث ذكر اسم قائد البحر بها " لب بن ميمون " على أساطيل الجزائر في بداية عهد إسحق بن محمد بن غانيه . (٧٩)

في ظل تلك الظروف اضطر محمد بن عليّ إعلان استقلاله بهذه الجزر عام ٥٤٣هـ / ١١٤٨م أسوة بما قام به ابن مردنيش * في شرق الأندلس . (٨٠)

ثم تبع سقوط طرطوشه عام ٥٤٣هـ / ١١٤٨م – بعد بضعة أشهر من سقوط المريه – بعد هجمة من قوات الحلف ذاته . وكان يخرج منها المجاهدون من رواد الحملات البحرية التي تثخن شواطئ الدول النصرانية المجاورة (٨١) . ليتوالى بعد ذلك سقوط ما تبقى للمسلمين في الثغر الأعلى مثل لاردة ومكناسة وإفراغه على التوالي (٥٤٣ – ٥٤٤هـ / ١١٤٨ – ١١٤٩م) – وجميعها على حدود برشلونه – في يد حاكمها رامون برنجير الرابع (١١٣١ – ١١٦١م) . وطيلة هذه الفترة لم ينقطع توافد فلول حاميات وأساطيل المرابطين من مدن الثغر الأعلى إلى الجزائر الشرقية ، إذ لجأ إليها عام ٥٤٤هـ / ١١٤٩م " ابن هلال" – عامل الثغر الأعلى الأندلسي – بفلول حاميات تلك المدن (٨٢) . وقد تقوت الجزائر بقوات هؤلاء المجاهدين مما مكنها من الصمود .

وكانت الجزائر إبان فترة ابن مردنيش ، الذي استنزف قوات الموحدين طيلة عهده في حروب متواصلة بشرق الأندلس ، كانت بعيدة عن تطلعات الموحدين فشغلوا عنها ، مما جعل بعض المعلقين يذهبون إلى أنهم – أي الموحدين – طيلة صراعهم مع ابن مردنيش كانوا يستصغرون شأن الجزائر . (٨٣)

وجاء تولي إسحق بن محمد (٥٤٧هـ / ١١٥٢م) الذي أشارت المصادر أنه استقل بالملك استقلالاً حسناً (٨٤) . وعلقت إحداها بأنه اهتم بالبناء والغراسة (٨٥)

، وأهمل الجهاد البحري لأول أمره مما أغضب لب بن ميمون عليه فتخلى عنه ولجأ للموحدين ، وكرهه الناس فحاول استرضائهم وكسب ولاءهم بإعلان الجهاد وحشد الأساطيل لغزو قطالونيه وجنوب فرنسا وسردانيه وقورصقة [٨٦] . وأخذ يدعم مركزه ويقوي قدراته البحرية وزاد إقباله على الغزو وصرف عنايته إليه ، فلم يكن له هم غيره ، فكان له في كل سنة سفرتان إلى بلاد الروم يغنم ويسبي وينكى في العدو أشد النكاية ، إلى أن امتلأت أيدي أصحابه أموالاً فقوى بذلك أمره وتشبه بالملوك[٨٧].

وقد كان مجال نشاطه إمارة قطالونيه (برشلونه) وجنوب بلاد فرنسا وجزيرتي سردانيه وقورصقة – كما سبقت الإشارة – .

ومن أسف أن المصادر العربية لم تحفل بذكر هذه النشاطات . في حين وجد في المدونات المسيحية كثير من التفصيلات عن هذه الغزوات . ويذكر Campaner بعد إطلاعه على تلك المصادر بعضاً من تلك التفاصيل عن إحدى هذه الغزوات على جنوب فرنسا سنة ١١٧٨م / ٥٧٣ – ٥٧٤ هـ ، إذ يذكر أن الميورقيين قاموا بمهاجمة مدينة طولون الفرنسية .* واحتلوها احتلالاً كاملاً . وأسروا منها عدداً من كبراء المسيحيين منهم نائب قومس مرسيليا . [٨٨]

وفي عام ١١٧٨م / ٥٧٤هـ قام رعايا أمير جزر البليار بنهب كنيسة سانتا ماريا دي أوليانو – وكانت تقع على مقربة من مدينة جيرونة (أو جرندة في إمارة قطالونية) وحملوا معهم أسرى من رجال الدين . [٨٩]

ويعرف أن دير سانتا ماريا ، كان أهم مراكز تجمع فرسان الداوية ، وتحت رعاية أمراء قطالونية من عهد برنجير الثالث ، ثم تعهدهم ابنه برنجير الرابع ، الذي تمكن بالاستعانة بهذه القوات من الاستيلاء على طرطوشه وأعمالها . أي أنهم قاموا معه بدور بارز في القضاء على المرابطين ، ثم بدأ يعطي هؤلاء الفرسان

نصيباً من المدن التي انتزعت من المسلمين في مقابل أن يتعهدوا بـأن يخصصوا خدماتهم لحماية النصرانية . [٩٠]

ومما يدل على سطوة أساطيل البليار ونجاح هجماتهم في عهد اسحق بن محمد ، أنها كانت تقوم خلالها بعمليات إنزال بحري أثناء الليل وتهاجم المناطق التي تحددها هجوماً واسع النطاق في وسط النهار – كما ذكرت المصادر المسيحية–[٩١].

مما اضطر الجمهوريات الإيطالية البحرية إلى الحرص على تجديد العلاقات التي بدأتها مع مسلمي البليار في صورة معاهدات واتفاقات منذ عام ٥٤٤هـ/١٠٧٧م[٩٢].

وقد جدد البيزيون هذه المعاهدات مع إسحق بن محمد عام ١١٧٧م / ٥٧٣هـ ، حين أرسل قناصل بيزا سفيراً إلى ملك البربر في ميورقه لعقد اتفاقية سلام معه ، فقبل توقيع اتفاقية السلام[٩٣].

وفي عام ١١٨١م / ٥٧٧ هـ وقعت جمهورية جنوة معاهدة سلام واتفاقيات تجارية مع إسحق ثم جددوها عام ١١٨٥م / ٥٨١ هـ [٩٤].

ويعلق Campaner على هذه الاتفاقات بأن الجانبين المتعاقدين اتفقا فيها على ألا يتعرض أحدهما للآخر بسوء لا في البر ولا في البحر . ويضيف بأن هناك تماثل بين وضع جزر البليار وهاتين الجمهوريتين ، فقد كانوا جميعاً يعملون بالتجارة . وكانوا يعرفون الوسائل الكفيلة بتنمية مصالحهم وزيادة مكاسبهم [٩٥] . ثم يخلص إلى أنه ما كان البيزيون ولا الجنويون ليسعوا إلى التعامل مع هؤلاء المسلمين إلا إذا كانوا يعرفون مدى قوتهم العسكرية وقدرتهم على الإضرار بهم نتيجة للحملات البحرية التي كانت تقوم بها أساطيل البليار على سواحل بلادهم[٩٦].

وقد أشارت الدراسات إلى أن هذه العمليات من جانب أساطيل البليار التي كانت تطارد أساطيل القوى المسيحية عبر الحوض الغربي وتوقع بها الخسائر قد

أدت إلى إعاقة أساطيل تلك القوى عن تقديم الدعم إلى القوات الصليبية في ثغور الشام ومصر ، مما أدى إلى تخفيف هذه الهجمات الصليبية عليها نتيجة قلة الدعم(٩٧).

وقد استمر الحال على ما هو عليه من انشغال كل من إسحق بن غانيه بجهوده البحرية وانشغال الخليفة الموحدي بأمر الأندلس والمغرب حتى وفاة العاهلين في نفس العام ٥٨٠هـ / ١١٨٤م (٩٨) . عندئذ دخلت العلاقات بين حكام البليار والموحدين في طور العداء والمواجهة المباشرة ، والتي أدت في النهاية إلى استيلاء الموحدين على الجزر عام ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م . وبذلك سقط آخر معقل مرابطي شهد الفاصل الأخير من مسيرة الجهاد المرابطي البحري ضد القوى البحرية المسيحية . حيث اتخذت المواجهة بين المرابطين في جزر البليار وهذه القوى طابعاً آخر أدى إلى إقامة علاقات بين الطرفين على أساس من تقدير قوة الخصم وحرصاً على المصالح .

الخاتمـة :

تابعت النقاط التي تناولها البحث التحديات التي واجهها المرابطـون وكيفيـة مجابهتهم لها بدءاً بذلك الموقف الذي شكل منعطفاً في مـسيرة الدولـة المرابطيـة وصارت باجتيازه دولة ذات حدود بحرية حين امتدت حدودها إلى البحر المتوسط . ليصبح هؤلاء القوم الصحراويون يمثلون قوة بحرية عليها أن تلعب دورها في عالم البحر المتوسط .

كان فتح سبته أول تلك التحديات . وعند متابعة كيفية مواجهة المرابطين لهذا الموقف تبين أن مسألة إخضاع سبته وقفت عقبة أمام عملية إتمام فتح المغرب ، إذ تطلب إخضاعها اللجوء إلى القوة البحرية لتنفيذ مهمة حصارها بحراً .

وعلى الرغم من تلقي المرابطين معونة بحرية من المعتمد بن عباد صـاحب إشبيليه إلا أن إقدامهم على إخضاعها كان يعني وجود بعض السفن تحت أيـديهم ، ثم ساعدت تلك المعونة على إنجاز العملية واجتياز العقبة .

أما وقد واكب مسألة إخضاع سبته صريخ أهل الأندلس ، فقد ثبت أنها كانت خطوة ضرورية لإتمام فتح المغرب من جهة ولتأكيد سيادة المرابطين على سواحله بالقضاء على أعمال القرصنة التي كان يمارسها منها حاكمها سقوط البرغـواطي ، ومن جهة أخرى للعمل على مواصلة ما حملوه من رسالة الجهاد في ميدان صـار يلح عليهم الجواز إليه وراء العدوة .

وقد قدر لتلك السفن التي تمت بها هذه العملية أن تكون النواة التي نشأ حولها الأسطول المرابطي ، إذ تنبه المرابطون إلى أهمية وجود العنـصر البحـري فـي معارك الجهاد.

حقيقة أن أسطول ملوك الأندلس استطاع أن يمد العون لقـوات المـرابطين وهي تجتاز البحر لأول مرة ، لكن انفتاح ميدان الجهاد بالأندلس الـذي بـدا منـذ

الوهلة الأولى أنه سيكون طويل الأمد جعل المرابطين يحرصون منذ البداية على تأمين طرق ووسائل الإمداد الدائم لجيوشهم هناك بان تكون هذه الوسائل في أيديهم وتحت سيطرتهم ، الأمر الذي أبداه ابن تاشفين حين أصر على امتلاك الجزيرة الخضراء أقرب نقطة للعدة المغربية ، ثم سعيه للسيطرة على ممالك جنوب الأندلس وشرقه .

نعم لقد أتاح ملك الأندلس للمرابطين قوة بحرية حين ملكوا غرناطة سنة ٤٨٤هـ / ١٠٩٣م ، ثم ملكوا المريه في نفس العام . غير أن اهتمام ولاة المرابطين بما تملكه تلك القواعد البحرية من إمكانات جعلهم ينهضون بدور صناعتها ويعملون على تنميتها في الوقت الذي حرصوا فيها على تأمين تلك الثغور نظراً لانشغالهم بمعارك الأندلس من جهة وطبيعة دولتهم من جهة أخرى ، فأنشئت الرباطات والمحارس على امتداد السواحل .

من هنا أمكن لبحرية المرابطين بعد توافر عوامل النمو المطرد اصطناع سياسة بحرية دخلت بها عالم البحر المتوسط . وقد أوضحنا مظاهر تلك السياسية حيث كان على بحريتها أن تقوم بدورها في تأمين تجارة المغرب الذاهبة إلى الأندلس أو إلى سائر الموانئ المنتشرة على السواحل في ذلك الوقت . كما تحتم عليها مقاومة أعمال القرصنة ، التي كانت تمارس على ضفتي هذا البحر . ويبدو أنها أدت هذا الدور . يشهد بذلك ازدهار التجارة الخارجية في عهد المرابطين .

عندئذ اتسع هذا الدور ليشمل دورها الأساسي القائم على الجهاد لدفع غائلة الأعداء عن الاعتداء على حدود دولة الإسلام .

وخلال هذا الدور تحتم عليها مواجهة القوى البحرية المسيحية الناهضة في تلك الأونة . فقد كانت شخصية المدن البحرية الإيطالية قد برزت ، فراحت بيزا وقد تعرضت للهجمات الإسلامية سنوات ٩٣٥م ، ١٠٠٤م ، ١٠١١م ، وتحالفت

مع جنوة لصد الغارات الإسلامية أولاً ، ثم محاولة الاستيلاء على الجزر التي تأتي منها هذه الغارات ثانياً . وهي جزر سردانية وقورصقة والبليار . وقد لعبت البابوية دوراً هاماً في التشجيع على ذلك ، حين أعلن البابا سنة ١٠٠٤م أن جزيرة قورصة هي ملك لأية قوة مسيحية تستطيع إبعاد المسلمين عنها . وقد ووقعت هذه الجزيـــرة بالفعل في يد الحلف البيزي الجنوي سنة ١٠١٥م .

هذا فيما يتعلق بالجزر أما علاقتها بالقوى الإسلامية الواقعـــة علـــى طـــرق التجارة الدولية فكانت تحكمها مصالحها فتسعى للارتباط معها بمعاهـــدات تجاريـــة ضماناً لتلك المصالح ، إذا ما لمست منهم القوة ، أما إذا ما آنست منهم ضعفاً فـــلا تتردد في الضغط عليهم حتى تحصل منهم على تنازلات أو امتيـــازات تجاريـــة . وهذا هو النهج الذي كان يحكم علاقتها مع إفريقية وصقلية الإسلامية .

أما القوة الأخرى فكانت قوة النورمان وهذه كان أكبر همها أن تحصل علـــى مكاسب على حساب المسلمين منذ استطاعت أن تجد لنفسها مكاناً في جنوب إيطاليا بحلول النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي . وكـــان الاســـتيلاء علـــى صقليه يعد حلماً من أحلام النورمان نظراً لخوفهم من مجاورة أملاكهـــم للمـــسلمين .وما لبثت أحوال صقلية أن مهدت لسقوطها التدريجي في أيـــديهم مـــن ١٠٦٠م – ١٠٩١م ومنها بدأوا يوجهون أنظارهم نحو سواحل المغـــرب وإفريقيـــة يرقبـــون أحوالها ، انتظاراً لأية فرصة لوضع أيديهم على أية بقعة منهـــا . تلك كانت طبيعة العلاقة التي تحدد تصرفات النورمان تجاه السواحل الإسلامية .

في ظل تلك الظروف صارت المواجهة بين هذه القـــوى وبـــين المـــرابطين حتمية .

عند التعرض لأحداث هذه المواجهة لوحظ أن المعلومـــات التـــي يمكـــن أن نخرج بها من المصادر العربية كانت في أغلبها مقتـــضبة خاليـــة مـــن التفاصـــيل

وبعضها مكرر . فكان لا بد من البحث عن الرواية التي تمثل الطرف الآخر من أطراف المواجهة – أي المصادر المسيحية – أو المراجع الغربية التي اعتمدت على مصادر مسيحية ، لعلنا نستطيع استيفاء معالم الصورة. غير أنه تبين أن المعلومات التي تقدمها هذه المصادر إما مغلوطة ، إذ كثيراً ما كانت تخلط بين الأحداث ، أو منحازة إذ تبالغ في إظهار ضعف المسلمين وقد تنسب إليهم أفعالاً تتصف بالوحشية . في مقابل المبالغة في إظهار قوة الجانب المسيحي أو إضفاء هالة من البطولة على ما يقومون به من أفعال . من هنا كان الأمر يتطلب التعامل معها بحذر .

حانت لحظة المواجهة حين أقدمت كل من بيزا وجنوة على إعداد حملة بحرية لمهاجمة جزر البليار سنة ٥٠٨هـ / ١١١٤ – ١١١٥م بعد أن عقدتا حلفاً مع كونت برشلونه رامون برنجير الثالث (١٠٦٩ – ١١٣١م) الذي كانت برشلونه في عهده من أكبر المراكز التجارية على الساحل الشمالي الشرقي لشبه الجزيرة . بالإضافة إلى أطماعه في أملاك المسلمين ، إلى جانب قرب بلاده من جزر البليار . وقد تحالفوا جميعا بدعوى القضاء على أعمال القرصنة التي تمارسها هذه الجزر .

أحاطت المصادر العربية الإسلامية بطرف من أحداث هذه الحملة في عبارات مقتضبة ظلت تتناقلها المصادر عن بعضها فجاءت مكررة . دون أن تضيف شيئاً جاء فيها : " أن مبشر بن سليمان " ، ناصر الدولة ، حاكم ميورقة (٤٨٦ – ٥٠٩هـ / ١٠٩٣ – ١١١٥م) كتب إلى أمير المسلمين عليّ بن يوسف (٥٠٠ – ٥٣٧هـ / ١١٠٦ – ١١٤٢م) يستصرخه ويستنصره ووجه كتابه مع القائد أبي عبد الله بن ميمون . وكان إذ ذاك قائد غراب بين يديه ، فلم يشعر العدو حتى خرج الغراب ليلاً ... ووصل ابن ميمون بالكتاب إلى أمير المسلمين ، فأمر

في الحين بتعمير ثلاثمائة قطعة ، وأن تلقي بعد شهر . فامتثل أمره في ذلك واندفعت بحملتها من هنالك . فلما شعر العدو بخروج ذلك الأسطول أخلى وصدر عن الجزيرة ... فلما وصل الأسطول وجد المدينة خاوية على عروشها محترقة سوداء مظلمة . فعمرها قائد الأسطول " ابن تافرطاس " بمن معه من المرابطين والمجاهدين .

والرواية على هذا النحو المقتضب لا تنسب لأسطول المرابطين أي دور في إنقاذ الجزيرة ، على العكس صورته على أنه لم يقدم على فعل شئ للدفاع عن الجزيرة ، بل وصل بعد فوات الأوان .

ولكن عند مراجعة ما ورد بالمصادر المسيحية نجدها قد قدمت رواية مفصلة لتلك الأحداث ساعدت على استجلاء الأمر . فقد أشارت أن الحلف المذكور عندما همَّ بتجهيز الحملة عقد لواءها لكونت برشلونه ، وأنها خرجت من بلاده . وعندما وضعت الحصار على الجزيرة واشتدت فيه وأصبحت المدينة على وشك السقوط أتت أنباء من برشلونه تخبر حاكمها بقيام قادة المرابطين بمدن شرق الأندلس بالإغارة على حدوده وأنهم على مشارف برشلونه . فهمَّ بالعودة سريعاً تاركاً مهمة إسقاط الجزيرة على عاتق البيزيين والجنويين وحدهم . غير أن بعض المصادر قد أخرجت جنوة من هذا الحلف . وذكرت أنها أعربت عن رفضها الاشتراك. وقد تبين أنها على صواب في هذا الشأن على عكس ما أوردت المصادر العربية .

وبمتابعة أحداث ما وقع من قتال بين قادة المرابطين وكونت برشلونه على حدوده – وهو ما ذكرته المصادر العربية – تبين أن هذه العمليات الهجومية قد نجحت في إشغال الكونت وإبعاده عن مواصلة حصار الجزيرة – في ذات الفترة التي يتم فيها إعداد الأسطول المرابطي لإنقاذ الجزيرة – مما كان له أكبر الأثر في رفع الحصار عنها . بعد أن اضطرت قوات بيزا بعد مفارقة قوات برشلونه لهم إلى

الإسراع بمغادرة الجزيرة . وهكذا يمكن أن ينسب لتلـــك التحركـــات مـــن جانـــب المرابطين دور في تخليص الجزيرة . وبذلك حق لهم أن يتولوا أمرهـــا ويعيـــدوها سيرتها الأولى لتكون الدرع الواقي لمدن شرق الأندلس وخاصة بعد تعيين عليّ بن يوسف محمد بن غانيه حاكماً للبليار في الوقت الذي كان أخوه يحيـــى بـــن غانيـــه حاكماً على بلنسيه ومرسية من مدن شرق الأندلس فتم التعاون بينهما . كذلك وجد أن المرابطين قد صادفوا تحدياً آخر حتى يجدوا من بين قادتهم من يـــصلح لإدارة هذا الثغر ، وقد نجحوا في ذلك – حسبما تابعنا – بعد بعض التعثر .

أما المواجهة الثانية فكانت مع قوة النورمان في صقليه ، حين زاد ضـــغطهم على سواحل إفريقية تحت حكم أمراء بني زيري ومدن ساحل المغـــرب الأوســـط تحت حكم الحموديـــن ، وكليهما من أبناء عمومة المرابطين الذين تركوهم علـــى إماراتهم بعد أن أعلنوا لهم الولاء .

وكان رجار الثاني ملك النورمان (١١٠١ – ١١٥٤ م / ٤٩٤ ٥٤٩هـــ) يتحين الفرص للانقضاض على أية بقعة من هذه الـــسواحل ، علـــى الـــرغم مـــن ارتباطه معهم بمعاهدات إلا أنه لم يزل يتردد إلـــيهم بـــالغزو – حـــسبما أشـــارت المصادر العربية – حتى نزلوا الساحل عام ٥١٦هـــ / ١١٢٤م في ثلاثمائة مركب فيها ألف فارس وافتتحوا جزيرة الأحاسي وملكوا قصر الديماس وقصدوا المهديه . وتكرر القتال بينهم إلى أن غلبهم المسلمون وأقلعوا راجعين إلى صقلية . ووصـــل بأثر ذلك محمد بن ميمون – قائد المرابطين – بأسطوله فعاث في نواحي صقلية .

وفي محاولة لتفصيل ما جاء في هذه الرواية المقتضبة . يمكن أن نتبين مـــن اسم القائد محمد بن ميمون أنه قائد أسطول المرابطين في المرية . ممـــا يعنـــي أن هذه الحملة خرجت من قاعدة المرية البحرية – إحدى قواعد الأسطول المرابطـــي بالأندلس – وأن المدينة التي نزل بها من مدن صقلية تبـــين بمراجعـــة المـــصادر

الأخرى أنها مدينة نقوطرة – من أعمال إقليم كلابريا على الساحل الجنوبي لإيطاليا. وعلى الرغم من أنها مدينة صغيرة إلا أن أهميتها ترجع إلى وقوعها في هذا الإقليم الذي يعد قلب مملكة النورمان . مما يفهم منه أن قصد الأسطول المرابطي هذه المدينة لم يأت اتفاقاً أو من قبيل المصادفة . بل ينم عن وعي القيادة البحرية المرابطية التي أرادت بهذا إيصال رسالة إلى النورمان لعله يفهم منها أن الأسطول المرابطي بإمكانه أن يصل إلى تلك البقاع من قلب مملكتهم . وأن هذا الأسطول يمكن أن يكون له وجود في الحوض الأوسط للبحر المتوسط ويمارس فيه نشاطاته . وسواء فهم النورمان هذه الرسالة أم لا . لكن يبدو ان هذا التحرك من قبل البحرية المرابطية قد أحدث أثراً ، إذ لم تسجل المصادر إقدام النورمان على مهاجمة سواحل إفريقية بعد هذه الغزوة إلا عام ٥٢٩هـ / ١١٣٥م وقصدوا فيها جزيرة جربة . وهي الفترة التي عاصرت دخول دولة المرابطين في دور الانحدار إبان إنشغالهم بالثورات التي قامت عليهم بالأندلس ومواجهاتهم مع قوة الموحدين.

أما آخر ظهور للقوة البحرية المرابطية حتى بعد أن فقد المرابطون ملكهم في المغرب والأندلس بسقوط عاصمتهم مراكش وآخر أمير من أمرائهم على يد الموحدين عام ٥٤٢هـ / ١١٤٧م . فكان من جزر البليار ، حيث بقيت هذه الجزائر الشرقية في أيديهم كآخر معقل مرابطي تحت سلطة أمراء المرابطين من أسرة بني غانية الذين توالوا على حكمها من عام ٥٢٠هـ حتى ٦٠٠هـ/١١٢٦–١٢٠٣م قبل أن يسيطر عليها الموحدون .

وطيلة هذه الفترة لم ينقطع لجوء المرابطين إلى البليار من بلاد المغرب أو الأندلس . وممن أشارت المصادر بلجوئه إليها ابن هلال عامل الثغر الأعلى الإسلامي بفلول حاميات لاردة وإفراغه ومكناسة . بعد استيلاء رامون برنجير الرابع (١١٣١–١١٦١م) عليها على التوالي أعوام ١١٤٨م–١١٤٩م/٥٤٣ – ٥٤٤هـ.

ويبدو أن حكام البليار قد استفادوا من وجود هذه القوات والحاميات التي لجأت إليهم وتقووا بها .

وفي متابعة أحوال هذه الجزر في عهد بني غانية يتبين أن جزر البليـــار قـــد حسنت أحوالها ، فتقول المصادر أن إسحق بن محمد بـــن غانيـــه اســـتقل بالملـــك (٥٤٧هـ / ١١٥٢م) استقلالاً حسناً . وفي رواية أخرى " صرف إسحق بن محمد عنايته للغزو البحري ... وكان له كل سنة سفرتان إلى بلاد الـــروم " وقـــد وردت بالمصادر المسيحية أنباء عن هذه الحملات منها ما قـــام بـــه " الميورقيـــون عـــام ١١٧٨م / ٥٧٣ – ٥٧٤هـ من هجوم على مدينة طولون الفرنسية " .

وفي رواية أخرى " قام رعايا أمير جزر البليار عام ١١٧٨م/ ٥٧٤هـ بنهب كنيسة سانتا ماريا دي أوليانو في قطالونيا ، وكانت كنيسة سانتا ماريا هذه في بلدة جيرونه – أو جرندة – أحد مراكز تجمع فرسان الداوية – أي كانت مركزاً لحـــشد القوى العسكرية وكان رجال الدين فيها أشد المقاتلين عنفاً ودوراً فـــي تعبئـــة تلـــك المراكز بالحقد على المسلمين .

وهكذا ظلت أساطيل البليار تغزو سواحل الدول المسيحية في الحوض الغربي للبحر المتوسط . وقد خشيت تلك الدول سطوتها . ولم تجد سبيلاً لتفادي اعتـــداءاتها سوى مهادنتها ، وعقد معاهدات واتفاقات تجارية معها . فقد أقامت كل مـــن بيـــزا وجنوة – أكبر القوى البحرية المسيحية في غرب البحر المتوسط – علاقات رسمية مع حكام البليار منذ عام ٥٤٤هـ / ١١٤٩م فتذكر المدونات الإيطالية أنه في عـــام ١١٧٧م / ٥٧٣هـ أرسل قناصل بيزا سفيراً إلى ملك البربر فـــي ميورقـــه لعقـــد اتفاقية سلام معه . وحرصوا على تجديدها عام ١١٨٥م / ٥٨١هـ . وفـــي هـــذه المعاهدات اتفق الجانبان على الا يتعرض أحدهما للآخر لا في البر ولا في البحر .

وقد أثبت هذا النهج الجديد في العلاقات بين هذه القوى والقوة البحرية التـــي

تمثلها جزر البليار أن هذه القوى المسيحية لم تكن لتضطر للتعامل مع المسلمين إلا إذا كانوا يعرفون مدى قوتهم العسكرية وما كانوا عليه من قدرة على الإضرار بهم بشكل بالغ ، نتيجة للحملات البحرية التي كانت تقوم بهـا أسـاطيل البليـار علـى سواحل بلادهم – على حد قول أحد المعلقين الغربيين – . هكذا استمر آخر معقـل مرابطي يسهم بدوره في ردع القوى البحرية المسيحية حتـى اضـطرت لإقامـة علاقات معه حرصاً على مصالحها .

بعد هذه المتابعة لدور الأسطول والبحرية المرابطية في رد اعتداءات القـوى المسيحية على السواحل الإسلامية في البحر المتوسط .. يمكن أن نصل إلى تقييم لهذا الدور .

فبعد أن عانت الدويلات المسيحية من هجمات المسلمين من مراكـزهم فـي جزر البليار وصقليه وثغورهم على سواحل إفريقية حتى اوائل القرن الثاني عـشر الميلادي / أوائل القرن الخامس الهجري ، ثم استطاعت هذه القوى أن تتخلص من هذه الهجمات خلال ذات القرن بعد أن أخرجت المسلمين مـن سـردانيه ١٠١٦م / ٤٠٦هـ . واستطاع النورمان انتزاع صقلية نهائياً ٤٨٤هـ / ١٠٩٢م .

أتيحت الفرص أمام هذه الدويلات أن تثبت مراكزها وتدعم قوتهـا البحريـة لتقوم بدور رئيسي في تغيير ميزان القوى في البحـر المتوسـط . فقـد جمعـت الأهداف كل من النورمان والبيزيين والجنويين والمغامرين المسيحيين في جنـوب فرنسا وإسبانيا ، بالإضافة إلى التشجيع القوي الذي بذلته البابوية جمعـتهم جميعـاً على التحرش بالحدود الإسلامية ، بعد أن خيل إليهم انهم أزاحوا السيطرة الإسلامية نهائياً عن ميدان البحر المتوسط . لكن ظهور البحرية المرابطية والنمـو الـسريع الذي شهدته ، وإيمانها بالدور الجهادي الذي قامت من أجله جعلها تسهم بدور فـي رد اعتداءات هذه القوى عندما نجحت في رد قوى تلك المدن عن جزر البليار فـي

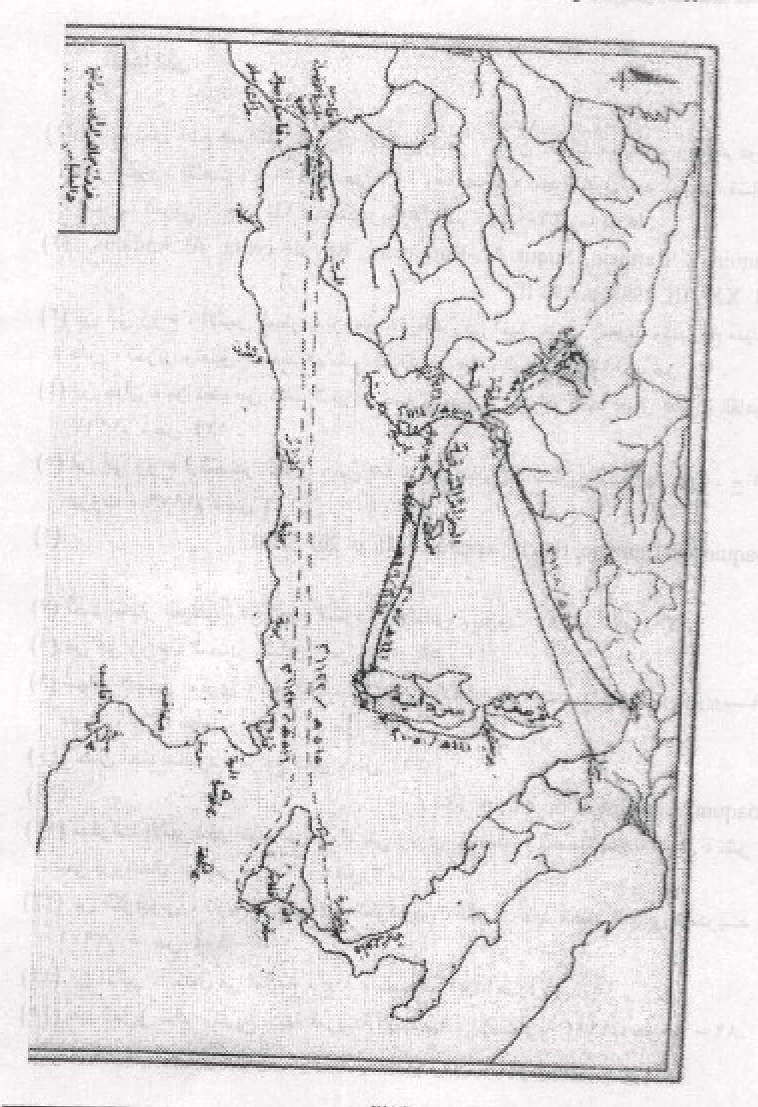
غربي البحر المتوسط ، وسعت من أجل الحفاظ عليها كقاعدة أمامية للمسلمين ، كما استطاعت بظهورها في وسط البحر المتوسط وممارسة نشاطها فيه أن ترد قوة النورمان عن الانقضاض على سواحل إفريقيه . وتمكنت بذلك من وضع تلك القوى في موقف المراقب الذي يحجم عن الهجوم حين يستشعر وجود قوة يمكن أن ترده ، ليظل يتحين الفرصة حتى يأنس منها ضعفاً .

وإذا كانت قدرة أية قوة بحرية تقاس بقدرتها على حماية حدودها ، فرض الأمن على تلك الحدود ، وكذا قدرتها على دفع غائلة الأعداء عن الاعتداء على تلك الحدود . فإن قوة المرابطين قد أدت دورها كقوة بحرية في ميدان البحر المتوسط تستطيع حماية حدودها والقضاء على خطر القرصنة وتأمين طرق التجارة المارة عبر هذه الحدود . ثم قامت بدورها حين تقوت بوجودها ثغور المسلمين حيث كانت تلبي نداءات مستصرخيها .

غير أن انشغالها بميدان الصراع مع القوى النصرانية في الأندلس لم يتح لها إلا أن تكون قوة دفاعية رادعة ، لا تعمد إلى الهجوم بغرض فرص السيطرة . ويبدو أنهم حسناً فعلوا إذ كرسوا جهودهم لتحقيق هدف كبير وهو المحافظة على الوجود الإسلامي في الأندلس . فظلوا على هذا الدور الرادع دون ان يقدموا على التورط في ميدان آخر مع القوى المسيحية من شأنه ان يشتت جهودهم .

وحتى آخر أطوار نشاطهم البحري لم يمعنوا في إظهار عدائهم لهذه القوى طالما لمسوا منها تقديراً لقوتهم فقبلوا سلمها والارتباط بمعاهدات تحدد العلاقات بينها وبينهم عندما سعت تلك القوى إلى ذلك حرصا على مصالحها .





الهوامش :

(١) عن مراحل الفتح المرابطي للمغرب الأقصى أنظر : حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، القاهرة ، ١٩٥٦م، ص ١٥٣ وما بعدها ؛ سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربي ، ج٤ ، ط١ ، الإسكندرية ١٩٩٥م ، ص ٢٦٠ وما بعدها .

(٢) Joaquin V. Bermejo, Suqut AL-Bargawati, Rey de ceuta, Al Andalus, vol. XXVIII, 1963, p. 195 ff.

(٣) ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، تحرير وتعليق : محمد الهاشمي الفيلالي ، ج٢ ، الرباط ، ١٩٣٦م ، ص ٥١ .

(٤) ابن حيان ، من نصوص كتاب المتين ، جمع وتحقيق : عبد الله محمد جمال الدين ، القاهرة، ١٩٩٧م ، ص ١٢٤ .

(٥) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ٤٥ ؛ وابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ، بيروت ، ١٩٧٩م ، ص ١٨٦ .

(٦) Joaquin. V. Bermejo, op.cit., apendice III, p. 201 □ 202 .

(٧) أحمد مختار العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس ، بيروت ، د.ت ، ص ٢٨٤ .

(٨) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، ص ٥١ – ٥٢ .

(٩) شهاب الدين المقري ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، نشر : مريم ويوسف طويل ، ج٢ ، بيروت ، ١٩٩٥م ، ص ٦٧٥ .

(١٠) حسن أحمد محمود ، مرجع سابق ،ص ٢٦٤ .

(١١) Joaquin V. Bermejo, op.cit., p. 184 .

(١٢) مذكرات الأمير عبد الله ، آخر ملوك بني زيري بغرناطه ، المسماة بكتاب التبيان ، نشر : ليفي بروفنسال ، مصر ، ١٩٥٥م ، ص ١٠٣ .

(١٣) ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ، نشر : أحمد مختار العبادي ، مدريد ، ١٩٧١م ، ص ١٠٤ – ١٠٥ .

(١٤) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، مصر ، ١٣٥٣هـ ، ص ١٥٠ .

(١٥) عبد العزيز سالم ، تاريخ مدينة المرية الإسلامية ، الإسكندرية ١٩٨٤م، ص٨٨ – ٨٩.

(١٦) L.T.Balbas, Atarazanas Hispano - musulmanas, ALAndalus, vol. XI, 1946, p.183.

(١٧) Idem,p. 182.

(١٨) Idem, p. 179 .

(١٩) حسن علي حسن ، الحضارة الإسلامية فـــي المغــرب والأنـــدلس – عـــصر المـــرابطين والموحدين – القاهرة ، ١٩٨٠م ، ص ٣٩٣ .

(٢٠) ابن عذاري ، البيان المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب ، قطعة تتعلق بتاريخ المـــرابطين ، نشر : هويثي ميراندا ، Hasperis Tamuds, vol. II,Fas. I 1961, p. 75 .

(٢١) المصدر نفسه ، p. ٨٦ .

(٢٢) L.T.Balbas, Rabitas Hispano - musulmanas, ALAndalus, vol. XIII, 1948, p.486 – 489

(٢٣) Ibid.

(٢٤) الإدريسي ، وصف الأندلس ، نشر كوندي ، مدريد ، ١٩٧٩م ، ص ١٩٧ ؛ الحميـــري ، الروض المعطار في أخبار الأقطار ، نشر ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٣٧م ، ص ١٨٤.

(٢٥) M. Lombard, The golden Age of Islam, trans, Joan spencer, Amsterdam, 1975, p. 140 .

(٢٦) Idem. P. 225.

(٢٧) حسن أحمد محمود ، المرجع السابق ، ص ٤١٢ .

(٢٨) ابن عذاري ، المصدر السابق ، ص ٧٢ – ٧٣ .

(٢٩) ارشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، ترجمـــة : أحمـــد محمد عيسى ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٣١٤ .

(٣٠) نفس المكان .

(٣١) أرشيبالد لويس ، المرجع الساق ، ص ٣١٤ .

(٣٢) ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ١٦٥ .

* الغراب جمعها أغربة وغربان . وهو نوع من السفن أخذه العرب عن القرطاجيين والرومـــان من أمم البحر المتوسط . وبقيت حتى العصر العثماني . وسمي بهذا الاسم لأن مقدمـــه يـــشبه

رأس الغراب وكان يحمل الغزاة ويسير بالقلع ، كما يسير بالمجاديف . ويستخدم في الأغراض العاجلة لسرعته . أحمد رمضان أحمـــد ، تاريـــخ فن القتـــال البحري في البحر المتوســـط " العصر الوسيط " ، القاهرة ، ١٩٧٧م ، ص ٦٢ ، حاشية ١٦١ .

(٣٣) ابن الكردبوس ، المصدر السابق ، ص ١٢٣ – ١٢٤ .

(٣٤) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، ص ٨٧ .

(٣٥) Alvaro Campaner, Bosquejo Historico de la dominacion Islamita en las islas Baleares, Palma, 1988, appendice 4, p.280.

(٣٦) Catholic Encyclopedia, New York, 1911, vol. XII .

(٣٧) A. Campaner, op.cit., ap. 5, p. 283 – 284.

(٣٨) A. Ballesteros y Beretta, Historia de Espana y su influencia en la Historia universal, Barcelona, 1944, p. 497.

حيث نقلا رواية المؤلف المجهول لأعمال الكونتات gesta comitum .

(٣٩) Idem, p. 498

(٤٠) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، ص ٨٣ .

(٤١) ابن الكردبوس ، المصـــدر السابـــق ، ص ١٠٥ . أو مـــا تـــسميها المـــصادر الغربيـــة معركة Martorell, Ballesteros Y Bertta, op.cit., p. 497.

(٤٢) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، ص ٨٤ .

(٤٣) محمد عبد الله عنان ، دولة الإسلام في الأندلس ، ج ٤ ، القاهرة ، ٢٠٠١م ، ص ٧٦ .

(٤٤) ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٤٢ .

• إذ ذكر ابن الكردبوس أنه كان قائد البحر بثغر دانيه ، المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

(٤٥) عنان ، المرجع السابق ، ص ١٥٢ – ١٥٣ .

(٤٦) ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٤٢ .

(٤٧) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

(٤٨) نفســـه .

(٤٩) D. Mathew, The Norman Kingdom of Sicily, Cambridge, 1992, p. 58 .

(٥٠) Chalandon, F. Histoire de la dominacion normande en Italie at en Sicile, Paris, 1907, T.I., p. 381 – 332

(٥١) Idem, p. 334

(٥٢) Courtois, C., " Gregoire VII et l' Afrique du Nord " Revue Historique, 1945, p. 221

(٥٣) Idem, p. 222 .

(٥٤) Lopez, R. " The Norman Conquest of sicily " , in Setton. ed., A History of the Crusades, Pennsilvania, 1958, p. 64

(٥٥) Cowdrey, H., " The Mahdia campaign of ١٠٨٧ ", English Historical Review, cccLXII, 1977, p. 8 – 9

(٥٦) Idem,p. 10

(٥٧) ابن عذاري ، البيان المغرب في أخبار الأنـــدلس والمغـــرب ، نـــشر ج. كـــولان ، ج٢ ، بيروت، ١٩٥٠م ، ص ٣٠٢ – ٣٠٣.

(٥٨) الهادي إدريس ، الدولة الصنهاجية – تاريخ إفريقيه في عهد بني زيري ، نقله إلى العربيـــة حمادي الساحلي ، ج١ ، بيروت ، ١٩٩٢ م ، ص ٣٦٣ .

(٥٩) ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١٦٠.

* قابس : مدينة على ساحل إفريقيه إلى الجنوب من المهدية قبالة جزيرة جربة . انظر الخريطة.

(٦٠) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٢٧٨.

(٦١) التيجاني ، المكتبة العربية الصقلية ، نشر أماري ، بيروت ، عن طبعة ليبسك ، ١٨٥٧م ، ص ٣٨٢ – ٢٨٣ .

(٦٢) الهادي إدريسي ، المرجع السابق ، ص ٣٧٧ .

(٦٣) التيجاني ، المصدر السابق ، ص ٣٨٣ .

(٦٤) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج٨ ، ص ٢٧٨ .

(٦٥) التيجاني ، المصدر السابق ، ص ٣٨٣ . اعتماداً على رواية أبي الصلت المؤرخ الرســمي لبني زيري .

(٦٦) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

(٦٧) نفســه .

(٦٨) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج٨ ، ص ٢٧٩.

(٦٩) ابن عذاري ، المصدر السابق ، ص ٨١ ؛ وابن خلدون ، ج ٦ ، ص ١٦١ ؛وابن الأثير ، ج ٨ ، ص ٣١٢ ، الذي أشار إلى أن نقوطرة بساحل بلاد قلوريه .

(٧٠) نفســه ، ص ٨٣ .
* مرسى عليّ : ميناء على الساحل الغربي لصقليه . انظر الخريطة .
** قوصرة : جزيرة في مياه إفريقيه قبالة المهديه . انظر الخريطة .
(٧١) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج٨ ، ص ٣١٢ .
* جزيرة الأحاسي : جزيرة على بعد عشرة أميال من المهديه . والأحاسي : جمع حِسي وهــي البئر الموجودة في أرض رملية .
(٧٢) ابن خلدون المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١٦٢ .
** سرقوسة : على الساحل الشرقي لصقليه . انظر الخريطة .
*** قطانيه / على ذات الساحل . انظر الخريطة .

(٧٣) Chalandon, op.cit., p. 378 – 379

(٧٤) التيجاني ، المصدر السابق ، ص ٣٩٣ .
(٧٥) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٣٥٠.
(٧٦) عنان ، المرجع السابق ، ص ١٥٢ – ١٥٣ .
(٧٧) ابن عذاري ، المصدر السابق ، ص ١٠٠ ؛ وابن الأثيــر ، المــصدر الــسابق ، ح ٨ ، ص٣٥١ .
(٧٨) ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٤١ .
(٧٩) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
* محمد بن مردنيش : كان والده سعد بن محمد والياً على إفراغه مع أعمال الثغــر الأعلــى . اشترك مع ابن غانيه في معركة إفراغه . استولى محمد هذا على شرق الأندلس عام ٥٤٢هــ / ١١٤٧م وظلت مملكته التي امتدت من طرطوشه إلى قرطاجنة الخلفاء جنوباً سداً منيعاً أمام الموحدين حتى وفاته ٥٦٧هــ / ١١٧١م . وقد عقد محالفات مع ملوك النصارى وقدم لهــم الجزيه من اجل تقديم العون له للتصدي للموحدين . حسين مؤنس ، معالم تــاريخ المغــرب والأندلس ، القاهرة ، ط٣ ، ٢٠٠٤م ، ص ٤٣٦ – ٤٣٧ .
(٨٠) عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ، ١٩٦٣م ، ص ٣٤٤ .
(٨١) أشباخ ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة محمد عبــد الله عنــان ، القاهرة ، ج١ ، ط٢ ، ١٩٩٦م ، ص ٢٢٧ .
(٨٢) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٥٠٠ .

(٨٣) اشباخ ، المرجع السابق ، ص ٣١٨ ؛ عنان ، المرجع السابق ، ص ١٤٦ .
(٨٤) المراكشي ، المصدر السابق ، ص ٣٤٤ .
(٨٥) ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٤٢ .
(٨٦) Campaner, op.cit., p. 104.
(٨٧) المراكشي : المصدر السابق ، ص ٣٤٤ .
* مدينة طولون : على الساحل الجنوبي لفرنسا ، بالقرب من خليج سان تروبي بين نيس ومرسيليا قريبة من الموقع الذي كان لقلعة فراكسينتوم أيام الوجود الإسلامي بها . أنظر الخريطة .
(٨٨) Campaner, op.cit., p. 144 .
(٨٩) Idem., p. 144 – 145 .
(٩٠) أشباخ ، المرجع السابق ، ص ٢٦٣ – ٢٦٥ .
(٩١) عصام سالم سيسالم ، جزر الأندلس المنسية ، التاريخ الإسلامي لجزر البليار ، ط١ ، بيروت ، ١٩٨٤م ، ص ٣٣٧ وما بعدها ، اعتمادا على Alfred Bel, les Benou Ghania, Paris, ١٩٠٣, p.٢٣ .
(٩٢) عصام سيسالم ، المرجع السابق ، ص ٣٢٠ ، اعتماداً على De Mas latrie, Traites de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chretiens avec les arabes de l'afrique septentrionale, vol. II, Paris, 1866, p. 102 .
(٩٣) Campaner, op.cit., p. 145 .
(٩٤) Idem, p. 145, Bel, op.cit., p.23
(٩٥) Idem, p.145 – 146 .
(٩٦) Idem, p. 146.
(٩٧) عصام سيسالم ، المرجع السابق ، ص ٣٤٤ .
(٩٨) ابن عذاري ، البيان المغرب ، قسم الموحدين ، نشر هويثي ميراندا ، محمد بن تاويت ، تطوان ، ١٩٦٠م ، ص ٩٨ .

قائمة بأسماء المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية :

- ابن أبي زرع (علي بن محمد ، ٧٢٦هـ) : **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس** ، تحرير وتعليق : محمد الهاشمي الفيلالي ، جزءان ، الرباط ، دار النشر المغربية ، ١٩٣٦م .
- ابن حيان (أبي مروان ، ت. ٤٦٩هـ) : من نصوص كتاب المتين ، جمع وتحقيق : عبد الله محمد جمال الدين ، القاهرة ، المكتبة العربية ، المجلس الأعلى للثقافة ، ١٩٩٧م.
- ابن خلدون (عبد الرحمن بن علي ، ت. ٨٨ هـ) : **تاريخ ابن خلدون** ، ٨ أجزاء ، بيروت ، مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، ١٩٧٩م .
- ابن الكردبوس (أبو مروان عبد الملك ، ت. أواخر ق. ٩ هـ) : **تاريخ الأندلس لابن الكردبوس** ، نشر : أحمد مختار العبادي ، مدريد ، ١٩٧١م .
- ابن الأثير (أبو الحسن عليّ ، ت. ٦٣٠هـ) : **الكامل في التاريخ** ، ١٠ أجزاء، المطبعة المنيرية ، مصر ، ط١ ، ١٣٥٣هـ .
- ابن عذاري (أبو العباس أحمد ، كان حياً ٧١٢هـ) : **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب** ، نشر ج. كولان ، جزءان ، بيروت ، ١٩٥٠م .
- ــــــــــــ : **قطعة تتعلق بتاريخ المرابطين** ، نشر هويثي ميراندا ، Hesperis Tamuda, vol. II, fas. I, ١٩٦١ .
- ــــــــــ : **قسم الموحدين** ، نشر هويثي ميراندا ، محمد بن تاويت ، تطوان ، ١٩٦٠م .
- الإدريسي (أبو عبد الله محمد ، ت. حوالي ٥٤٨هـ) : **وصف الأندلس** ، نشر كوندي ، مدريد ، ١٩٧٩م .
- التيجاني (أبو محمد عبد الله ، ت. حوالي ٧١٧هـ) : **المكتبة العربية الصقلية** ، نشر ميخائيل أماري ، بيروت ، عن طبعة ليبسك ، ١٨٥٧م .

- الحميري (عبد المنعم ، ت. أواخر ق. ٩ هـ) : الروض المعطار في أخبار الأقطار ، نشر ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٣٧م .
- المراكشي (عبد الواحد) : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ، ١٩٦٣م .
- المقري (شهاب الدين ، ت. ١٠٤١هـ) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، نشر : مريم ، ويوسف طويل ،١٠ أجزاء ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٩٩٥م .
- مذكرات الأمير عبد الله ، آخر ملوك بني زيري بغرناطه ، المسماة بكتاب التبيان ، نشر ليفي بروفنسال ، مصر ، دار المعارف ، ط١ ، ١٩٥٥م .

ثانياً : المراجع العربية والمعربة :

- أحمد رمضان أحمد ، تاريخ فن القتال البحري في البحر المتوسط ، العصر الوسيط ، القاهرة ، هيئة الآثار المصرية ، ١٩٧٧ .
- أحمد مختار العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس ، بيروت ، د.ت .
- ـــــــــــــــ ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر المتوسط ، جزءان ، الإسكندرية ، ط٢ ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٩٣ .
- ارشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، ترجمة : أحمد محمد عيسى ، القاهرة ١٩٦٠ .
- ج. أشباخ ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ج١ ، ط٢ ، مكتبة الخانجي ، ١٩٩٦م .
- السيد عبد العزيز سالم ، المغرب في العصر الإسلامي ، الإسكندرية ، ط١ ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٨٢ .
- ـــــــــــــــ ، تاريخ مدينة المرية الإسلامية ، الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٨٤م .

- الهادي إدريس ، الدولة الصنهاجية ، تاريخ إفريقيه في عهد بني زيري ، نقله إلـى العربية حمادي الساحلي ، جزءان ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، ١٩٩٢ م .
- حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين – صفحة مشرقة من تاريخ المغرب فـي العصور الوسطى ، القاهـرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٥٦م .
- حسن علي حسن ، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس ، عصر المـرابطين والموحدين ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٩٨٠م .
- حسين مؤنس ، معالم تاريخ المغرب والأندلس ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتـاب ، ط٣ ، ٢٠٠٤م .
- سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربي ، ٦ أجزاء ، الإسكندرية منـشأة المعارف ، ١٩٩٥م .
- عصام سالم سيسالم ، جزر الأندلس المنسية ، التاريخ الإسلامي لجـزر البليـار ، بيروت ، ط١ ، دار العلم للملايين ، ١٩٨٤م .
- عصمت دندش ، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين ، عصر الطوائف الثاني ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، ١٩٨٨م .
- محمد عبد الله عنان ، دولة الإسلام في الأندلس ، ٦ أجزاء ، القاهرة ، ط٢ ، الهيئة العامة للكتاب ، ٢٠٠١م .

ثالثاً : المصادر والمراجع الأجنبية :

- **Balbas L.T,** " Atarazanas Hispano – musulmanas" , ALAndalus, vol. XI, 1946.
- ------------, " Rabitas Hispano – musulmanas" , ALAndalus, vol. XIII, 1948.
- **Ballesteros y Beretta** A., Historia de Espana y su influencia en la Historia universal, Barcelona, 1944.
- **Bel. A. Les Benou Ghania**, Paris, 1903 .
- **Bermejo, Joaquin**, Suqut AL-Bargawati, Rey de ceuta, Al

Andalus, vol. XXVIII, 1963.

- **Campaner Alvaro**, Bosquejo Historico de la dominacion Islamita en las islas Baleares, Palma, 1988.
- **Chalandon, F.** Histoire de la dominacion normande en Italie at en Sicile, Paris, 1907.
- **Courtois, C.**, " Gregoire VII et l' Afrique du Nord " Revue Historique, 1945,
- **Cowdrey, H.**, " The Mahdia campaign of 1087 ", English Historical Revue, CCCLXII, 1977 .
- **De Mas latrie,** Traites de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chretiens avec les arabes de l'Afrique septentrionale, T. II, Paris, 1866 .
- **Lombard M. ,** The golden Age of Islam, trans, Joan spencer, Amsterdam, 1975.
- **Lopez, R.** " The Norman Conquest of sicily " , in Setton. ed., A History of the Crusades, Pennsilvania, 1958.
- **Mathew M.**, The Norman Kingdom of Sicily, Cambridge, 1992.
- **Picard, c.,** le monde musulman du XI e au XV e siecles, Parise, 2000.
- **Vida, Jacinto**, Los Almoravidos, Tetuan, 1956 .

رابعاً : الموسوعات :

- Catholic Encyclopedia, New York, 1911 .

صورة العربي في كتابات الأوروبيين
خلال الاحتلال الفرنسي للجزائر
(١٨٩٨ - ١٩٤٠)

مسعودة يحياوي

جامعـــة الجزائـــر

مقدمة :

يعد هذا الموضوع الذي سنتطرق إليه في هذه المداخلة المتواضعة من بـــين المواضيع الحساسة التي ما تزال تثير إلى حد الآن الكثير من الجدل، لأنـــه يعـــالج تاريخ مجتمعات لها أصول وثقافات مختلفة في نظام استعماري يسود فيه النزاع .

فهذا البلد العربي ينتمي إلى الحضارة العربية الإسلامية، قـــد فـــرض عليـــه حصار بحري سنة ١٨٢٧ انتهى بالاحتلال سنة١٨٣٠ .

هذه الأرض المسلمة ، حولتها فرنسا إلى أرض لها بمقتضى مرســـوم ١٨٣٤ وأصبح بذلك سكانها بمثابة رعايا فرنسيين لأن الحصول على الجنسية الفرنسية لـــم يكن ممكنا إلا بشرط تخلي الفرد الجزائري العربي المسلم عن أحواله الشخصية ، يعني أن يتخلى عن الشريعة الإسلامية ولغته العربيـــة حـــسب قـــانون Sénatus Consulte لعام ١٨٦٥ ، في حين الشعب الجزائري رفض رفضا قاطعـــا التخلـــي عن دينه ولغته ، ولذا كان شغله الشاغل هو العمل على استرجاع سيادته الوطنيـــة وهويته العربية الإسلامية المسلوبتين ، ولم يجد في ذلك وسيلة سوى العمل المسلح، ولذا أعلن المقاومة المسلحة ضد الغزاة .

هذا البحث الذي أنجزناه ذو طابع اجتماعي – تاريخي ، اعتمدنا في إعـداده على مصادر كثيرة منها الأبحاث والاستجوابات والروايات والتحقيقـات الميدانيـة وكذا المجلات التي كان يصدرها بعض الكتاب المعمرين .

سنحاول من خلال هذا البحث المتواضع أن نعالج صورة العربي المسلم فـي الجزائر من خلال أفكار لكتاب فرنسيين ينقسمون إلى تيارات:

١- تيار متطرف قدم العربي المسلم في الجزائر في صورة لا تليـق بالإنـسان الجزائري على الإطلاق ، يتشكل هذا التيار من مجموعة من الكتاب الـذين أطلقوا على أنفسهم اسم الجزائرانيين Les algérianistes ، نـذكر مـنهم : أوقيست روبيني Auguste Robinet المدعو ميزات Musette ، والكاتب الويس بيرترون Louis Bertrand.

٢- تيار متعاطف نسبيا ، حيث قدم العربي المسلم الجزائري في صورة مقبولـة إلى حد ما ، يتشكل هذا التتيار بدوره من مجموعة من الكتاب الفرنـسيين ، نذكر منهم : إليزابيث إيبرهاردت Elisabeth Eberhardt والكاتب Jean Albert Thruphémus.

٣- تيار حاول من خلال الكتابات والروايات والقـصص أن يعـالج الوضـعية الجزائرية ويتشكل معظمه من النساء الأوروبيات.

I ـ صورة العربي في نظر بعض الكتاب الذين ينتمون إلى التيار المسمى: الجزائرانيين Les Algérianistes :

رفض الجزائريون للوجود الفرنسي على أراضيهم ظل قائما ومترجمـا فـي الميدان من خلال العمل المسلح الذين لم يروا له بديلا ، فارضـين أنفـسهم بقـوة الحديد والنار في وجوه الجيوش الاستعمارية القوية عدة وعـددا ، مكبـدين إيـاهم

خسائر في كل محاولة عسكرية تقوم بها هذه الجيوش التي لم تتمكن من فرض سيطرتها حتى على المناطق الصحراوية القليلة السكان ، وإن ما تلقاه العقيد ليوطي Lyautey سنة ١٩٠٣ من مقاومة شعبية من قبل سكان منطقة عين الصفراء الواقعة في الجنوب الغربي للبلاد ، حالت دون تحقيق مبتغاه المتمثل في العمل على ضم قسم كبير من الصحراء الذي لا يزال خارج النفوذ الفرنسي ، وكذا حملة فلاتيرس Flatters الفاشلة التي شنها سنة ١٩١١ على منطقة الهقار بأقصى الجنوب الجزائري لدليل قاطع على رفض الشعب الجزائري للوجود الفرنسي على أراضيه .

كما عرفت الجزائر أيضا هجرة أوروبية واسعة النطاق بتشجيع من السلطات الفرنسية في إطار سياسة الاستيطان سنة ١٨٧٠، عندما انهزمت الجيوش الفرنسية أمام قوات الألمان واحتلال منطقة الألزاس و اللورين وكذا سقوط نابليون الثالث، ومجيئها بأعداد كبيرة من الأوروبيين من أصل إسباني ، إيطالي ، مالطي ومن جنوب فرنسا ، الذين سرعان ما نظموا أنفسهم ، وعملوا على الإفلات من أيدي السلطات الفرنسية بحصولهم على الاستقلالية المالية وبذلك انفردوا بالتصرف في ميزانية الجزائر لفائدة الأوربيين في الجزائر ، مما زاد ضررا في الوضعية الاقتصادية للمسلمين الذين صدرت منهم أراضيهم عنفا وقوة .

في خضم هذه الظروف صدر أوقيست روبيني مجلة شبه فكاهية (١٨٩٥ــ ١٩٢٠)، أبرز فيها شخصية بطل القصة المدعو كقايوس Cagayous ، أحد أبناء الحي الشعبي " باب الواد " بالجزائر العاصمة ، الذي يمتهن حرفة بيع الأسماك ، وهو من أصل إسباني حسب روبيني ، جعل منه نموذجا "للشعب" الأوروبي الذي يسمي نفسه الشعب الجزائري ، متكون من الأوروبيين القادمين من إسبانيا وإيطاليا ومالطا وجنوب فرنسا ، مقصيين بذلك العنصر الأصلي الأهلي من حقهم الشرعي

في المواطنة .

عندما طرح السؤال الآتي على كقايوس: " هل أنتم فرنسيون ؟ "

كانت إجابته : لا ، نحن الجزائريون ، والآخرون هم العرب واليهود ". فكان الهدف من فكرة هذه المجلة وأمثالها، خلق شعب جديد تندمج فيه هذه الأخلاط الآتية من شواطئ البحر الأبيض المتوسط عن هوية واحدة التي ستكون في نظرهم هي الهوية الثقافية للمعمرين . فهذا " كقايوس وهو بائع السمك كان في الهرم الاجتماعي الاستعماري في مرتبة أعلى من العربي نظرا لانتمائه للحضارة الحقيقية في نظرهم ، ألا وهي الحضارة الغربية ، أي حضارة المستعمر طبعا ، المتفوقة على حضارة العربي-في نظرهم- هكذا جاء الأوروبي إلى أرض الجزائر " بإيجابيات الحضارة " ، حسب زعمهم ، ودامت صورة هذا الشخص الخيالي متغلبة على أذهان المعمرين إلى غاية اندلاع الحرب العالمية الثانية .

في عام ١٨٩٨ نشر لويس بيرترون Louis Bertrand وهو أستاذ بجامعة الجزائر وعضو بالأكاديمية الفرنسية (١٩٢٥)، وكان قد قدم من مقاطعة الألزاس واللورين Alsace – Lorraine (التي كانت قد استولت عليها ألمانيا في حرب ١٨٧٠). وشرع في نشر عدة روايات قصصية وكان يبث حلمه في المشروع السياسي الاستعماري الذي رسمه جول فيري Jules Ferry المبني على فكرة وهمية، أن الجزائر أرض جديدة و شاغرة وهي لاتينية منذ الوجود الروماني في عصور القياصرة، و ليست عربية إسلامية اعتبار الجزائر أرضا شاغرة العمران ذات جذور لاتنية وليست عربية إسلامية ولكنها أرض لاتنية منذ الاحتلال الروماني في عصور القياصرة .

وهكذا تكونت الأسطورة الخيالية ، أسطورة شمال إفريقيا اللاتنية والرمز لهذه الأرض ليس المسجد حسب تعبيرهم ، بل أقواس النصر لأباطرة الرومان

والصليب المسيحي ، وهو الأمر الذي يـضفي علـى الوجـود الفرنـسي الطـابع الشرعي، وعدد كبير من الكتاب أمثال لويس لوكـوك Louis Lecoq و شـارل كورتان Charles Courtin من الجزائرانيين Les algérianistes وافقوا هـذه الايديولوجية متبنين شعاره الذي صار شعارهم يقولون عن الجزائر خاصـة وكـل المغرب عامة : " الزخرف عربية وإفريقيا الشمالية اللاتينية " ، واصفون الوجـود العربي الإسلامي مجرد زخرفة ، كما تبنى هذا التيار التـاريخي الـسياسي كتـاب يدعون بروح علمية في معالجة تاريخ الجزائر مثـل قاسـتون بواسـيي Gaston Boissier ، مؤلف كتاب إفريقيا الرومانية ١٨٩٥ و قيستاف بواسيير Gustave boissiere ١٨٩٠ مؤلف كتاب الجزائر الرومانية ١٨٩٠ الجزائـر الرومانيـة ، ولويس بيرترون المؤيد للأفكار العنصرية للأدباء الفرنسيين منهم موراس بـاراس Maurras Barrès و جوزيـف أرتـور قوبينـو Joseph Arthur Gobineauمصنف كتابه الشهير ، كتاب عدم التساوي العناصر البـشرية ، ففـي نظريتهم الاحتلال صار ليس اعتداء على الغير ولكنه مهمة حضرية.

لقد سبق للأهالي العرب أن تعرضوا إلى محاولات التنصير من بينها محاولة لافيجري Lavigerie في ١٨٦٧ ، لكنهم بقوا متمسكا بلغته ودينه وتقاليـده ، ممـا دفع بلويس بيرترون للقول في كتاباته بأن إخضاع العربي للأوروبي أضحى أمـرا مستحيلا يظل "عدو لا يقهر"، فهو " المتمرد الدائم" الـذي لا ينتظـر إلا الفرصـة والوقت المناسب للإلقاء على الأجنبي في البحر ".

والجدير بالذكر أن النخبة الجزائرية المتمثل في الأمير خالد ، ابـن بـاديس، فرحات عباس وغيرهم ، قد رفضوا هذه الأفكار الايديولوجية (الجزائر بلد عربـي لها لغتها ودينها وأرضها) .

نشر لويس بيرترون Louis Bertrand في كتابه " السراب المـشرقي" Le

mirage oriental الصادر سنة ١٩٠٩، يروي في رحلة قام بهـا إلـى البلـدان العربية الإسلامية (تركيا ، سوريا ، فلسطين ، مصر ...) ولخص نظرته عن هـذه البلدان قائلا: "لم أجد فيها بلدانا خلابة ساحرة كما رسمها لنا شعراؤنا ، ولا بلـدان متعطشة للحضارة العصرية ، على أية حال فإن الناس في البلدان العربيـة سـواء كانوا من النخبة أو من عامة الناس ، كلهم يكرهون الأجنبي المسيحي ".

هذا الإحساس بالعداء من طرف العربي تجاه الأوروبي مـا هـو إلا نتيجـة شعوره بذاته بالظلم الذي ارتكبه الاستعمار في حق العربي ، فهو يشعر وكأنه دائما محاصرا ومهددا من كل الجوانب ، إلى أن حصر بمركب " الحصار والخوف " .

إن لويس بيرترون، لا يرى المرأة العربية إلا في صـورة أشـباح بيـضاء ومقنعة (ارتداء المرأة للحايك الأبيض والخمار).

أما الرجال فهم عبارة عن " أكوام من البرانيس والشواشي "، يعنـي يـراهم كأشباح بدون وجوه، إن لم يصفهم و لكنه يـشرح ردود أفعـال العربـي (حـسب برترون) الذي احتل أرضيه

ويصف وضعية المستعمر بعبارة " السيد غيـر المطـاع " Lemaitre non obei ، فالشعور بهذا "العداء الصامت" من طرف العربي ، يظهر في العديد مـن روايات وقصص الكتاب المعمرين بالجزائر إلى غاية نهاية الاستعمار أمثال شـارل كورتان Charles Courtin و لويس لوكوك Louis Locoq و روبير رونـدو Robert Randau، هذا الأخير فهو من أصل فرنسي ولد في الجزائر، تقلد منصب حاكم بلدية مختلطة (يقطنها جزائريون وأوربيون) ، ثم ترقى في سنة ١٩١٩ إلى منصب الحاكم العام للمستعمرات، ثم عاد إلى الجزائر العاصـمة يتـولى منـصب رئيس ديوان عمالة الجزائر العاصمة سنة ١٩٢٥ ثم رئيسا لديوان الحـاكم العـام للقطر الجزائري سنة ١٩٣٥ ، وهو مـن مؤسـسي الحركـة الأدبيـة المـسماة "

الجزائرانيين Les algérianistes " ،مؤسسة لا تزال موجودة بفرنسا إلى يومنـــا هذا ، أعضاءها احتكروا لفظة جزائري لأنفسهم ولصالحهم وأقــصوا الجزائـــريين الأهالي منها.

II - صــورة العربـــي في نظــر بعــض الكتــاب الــذين ينتمــون إلى التيــار المتعاطف مع الجزائريين :

لمعرفة صورة العربي عند هذا التيار سنتطرق إلى أربعة كتاب فرنسيين من الجزائر كانوا يمتازون بتعاطفهم مع الشعب العربي المسلم الجزائـــري ، أو أنهـــم كانوا على الأقل يظهرون بعض الميل للعرب ، منهم :

١- ايزابيل إيبارهاردت Esabelle Eberhardt : هـــي امـــرأة أوروبيـــة لهـــا جنسيات متعددة (روسية ، سويسرية ، فرنسية) ، عاشت كثيرا في واحـــات الجنوب الجزائري مما ساعدها على التعرف أكثـــر وعـــن قـــرب بـــأحوال المجتمع الجزائري لا سيما في واحات الجنوب بين الرحـــل ، ففـــي كتابهـــا lesTrimardeurs عبرت عـــن ملاحظاتهـــا بتقـــدير للعـــادات والتقاليـــد الإسلامية، إذ تقول إن المسلمين كرماء يمتازون بالتواضع الاجتمـــاعي بـــين الفئات المختلفة ، ففي كتاباتها اعتنت كثيرا بالجنوب الجزائري ، الذي كانـــت تجوبه على فرسها .

وفي قصة أخرى وهي قصة " ياسمينة " تروي قصة استحالة الـــزواج بـــين بنت بدوية من الأوراس وضابط شاب فرنسي ، والغرض من هـــذا هـــو لتظهـــر الحواجز التي كانت تفصل بين الفرنسيين المحتلين والعرب المسلمين الذين اعتـــدوا على بلادهم ودينهم وكرامتهم ، كما تطرقت للمجتمـــع النـــسوي وشـــهدت للنـــساء العربيات بالأخلاق الحميدة والوئام والتسامح ففي كتابها Doctorat تبرز الفـــرق

بين الأخلاق عند النساء الجزائريات المسلمات العربيات ، وأخلاق النساء الأوروبيات ، حين تروي قصة امرأتين أوروبيتين جارتين تنعدم بينهما الرحمة .

٢- الاخوة جيروم و جان تارود : Les frères Jérome et Jean Tharaud، نددوا في كتابهم المشترك " الفرح العربي " La fete arabe بهدم كل ما هو رمز للحضارة العربية الإسلامية على يد الجيش والإدارة الاستعمارية ولا سيما البنايات الأثرية والمعالم الثقافية الإسلامية .

٣- ايتيان نصر الدين ديني : Etienne Nasreddine Dinet : رسام فرنسي ولد وترعرع في باريس ثم قدم إلى الجزائر وهو رسام مشهور استقر ببلدة بوسعادة ليتولى رسم مناظر الجنوب الخلابة ، فتأثر بالثقافة العربية الإسلامية حتى اعتنق الإسلام ، وضريحه موجود ببوسعادة ، ورسم لوحات تظهر الحياة اليومية للمرأة والرجل في الجزائر.

٤- ألبير تروفيموس Albert Truphémus ، أستاذ ثم مفتش في التعليم الأهالي شاهد على جرائم الاستعمار التي دونها في كتبه الثلاثة : نزل سرسو l'Hotel du Sersou رواية الجنوب الجزائري ١٩٣٠، إخوان الأسد الأسود ١٩٣١، فرحات معلم في الابتدائي من الأهالي ١٩٣٥.

٥- ندد فيها بالظلم الاستعماري ، شارك في المقاومة السياسية التي قامت بها جمعية المعلمين من الأهالي في مجلتها " صوت المضطهدين " la voix des humbles، كانت له علاقات ودية مع المعلمين المسلمين .

٦- نشر بمناسبة الاحتفالات بالذكرى المؤوية لاحتلال الجزائر في ١٩٣٠ مصنفات عديدة ، ينتقد ويندد فيها بالأعمال التعسفية والظلم التي تقوم بها الإدارة الاستعمارية والأوروبيون الاستعماريون ، وكذا سوء المعاملة للجزائريين ، ما أثار غضب الكتاب من الجزآئرانيين les Algérianistes،

قال لهم أنا " أكتب من أجل الأهالي الذين جردوا من أملاكهم وطـردوا مـن أراضيهم وأراضي أجدادهم وصاروا يعملون بأجور ضعيفة ويموتون جوعا".

٧- كانت كتبه تعبر عن بؤس الجزائريين ، وفي كتابه إخوان الأسـود ، عالج وضعية الأطفال المسلمين المشردين في الشوارع بدون تعليم ، الـذين يلتقطون لقمة العيش بممارسة حرفة مسح الأحذية ، وفي كتابـه " فرحـات المعلم الأهلي " Ferhat instituteur indigène عـالج مـشكل النخبـة الجزائرية " المصدومة بفعل الفرق القائم بين القيم الفرنسية وبين الواقع المر للأهالي . فرحات معلم استقبله المجتمع الاستعماري كمواطن مـن الدرجـة الثانية وهو أهلي من الرعايا الفرنسيين . شارك في الحرب العالمية الأولـى، ولكنه ظل مهمشا في صفوف الجيش الفرنسي، كما لقب كل من تعاطف مـع الجزائريين أمثال ايزابيل ايبيرهالت و الإخوان تارود وايتيان نـصر الـدين ديني بحزب الأهالي ، من طرف بعض من الأوروبيين و الكتاب المذكورين سابقا، وصار شعار هؤلاء الغلاة من المعمـرين " الجزائـر للجزائـرانيين " les algérianistes.

III ـ تطور رؤية الروائيات في الفترة ما بين الحربين :

هل التقارب الفرنسي ـــ الإسلامي كان ممكنا ؟

هذه الفترة مرتبطة بمحاولة الحوار السياسي ما بـين الفئـات ومـع تطـور الحركة النسوية في أوروبا والجزائر ، فكانت فترة ازدهار نسبي لـلأدب النـسوي (١٩١٩ ـــ ١٩٣٩)، وكثر الاهتمام بالمرأة المسلمة ، من طرف بعـض الكاتبـات ومصنفاتها ، تحمل البعض منها أسماء عربية :

" قميرا " و " تاميلا " و " سعادة المغربية " و " بنت العربـي " و " حنيفـة "

Fille d'Arabe ، و نذكر من بين المؤلفات: لوسـيان فـافر Lucienne Favre وهي فرنسية، زوجة قاضي كانت تزور الأحياء العربية بالعاصمة وخصوصا حـي القصبة التي كانت تجوب شوارعه ، أما Jeane Faure Sardet ، فهي من تلمسان كانت مثقفة، و لها دراية على الحضارة العربية الإسلامية حاملة لشهادة ليسانس في الأدب العربي ، ودكتوراه في الحقوق ، امتهنت المحاماة بالجزائر العاصمة، مؤلفة: La fi!le d'arabe " بنت العربي ".

ماطيا قودري Mathea Gaudray لها دكتـوراه فـي الحقـوق ، محاميـة بالجزائر العاصمة ، مؤلفة كتاب المرأة الشاوية .

ماري بوجيجا Marie Bugeja المولودة بالجزائر تـتقن العربيـة الدارجـة الجزائرية لها دراية واسعة بالعادات والتقاليد الإسلامية ، مؤلفـة كتـاب بعنـوان " أخواتنا المسلمات ".

سيلاريي هونريات Célarié Henriette ألفت أيضا كتابا بعنوان " أخواتنـا المسلمات " وهي فرنسية صحفية ، قامت باستجواب النساء المسلمات ولا سيما فـي الجنوب.

ظهرت مجموعة من الكاتبات الفرنسيات اللواتي تميزن برفض أفكار لـويس بيرترون العنصرية المتعنتة وخصوصا فكرة أن عرب الجزائر من غيـر الممكـن إدخالهم في الحضارة الغربية: "عرب الجزائر لا يمكـن إدمـاجهم فـي الجزائـر الفرنسية"، وكان قد قال فيما يخص الجزائريين العرب وأوربي الجزائر : " لا يمكن أن يشكل شعبا واحدا ، سنبقى دائما غرباء لبعضنا لسبب بسيط كوننا نختلـف فـي البشرة وفي تكوين الجمجمة ، وبالتالي نختلف في طريقة التفكير ، ولو الأفكار التي نفكر فيها هي واحدة " ــ لأن أدمغتهم أغلقت في السن الرابعة عشر، رغم هـذه النقائص الموجودة عند العربي ، فإن النمو الديمغرافي ظل قائما ، وأن الفقر الـذي

يتخبط فيه العربي، هو نتيجة كسله، و ليس بسبب المعاملة السيئة للاستعمار تجاهه.

هؤلاء الكاتبات أردن كسب النساء اللائي يشكلن نصف المجتمع المسلم وإدماجهن في الوطن الفرنسي ، ومما ساعدهن على النجاح في رأيهن كونهم نساء أقرب من النساء الأهليات ، لحملهن على قبول سياسة الاندماج في الوطن الفرنسي، لأن المرأة هي المحور الأساسي للخلية العائلية ، ومن ثم كسب المجتمع المسلم لفكرة الاندماج في الوطن الفرنسي ، وفي هذا الصدد اقترحت بعض الكاتبات الفرنسيات الأوروبيات ، جعل تعليم النساء العربيات من أولويات المدرسة الفرنسية، كما اقترحت أخريات إدخال البنات العربيات في مدارس التعليم المهني والتركيز على تعليمهن الخياطة والطرز وأشغال البيت مثل الطبخ وتربية الأطفال، تفاديا للمنافسة.

وفي رأي هؤلاء الكاتبات ، فإن الدين الإسلامي وتعدد الزوجات لا يشكل عائقا للإندماج في المجتمع الفرنسي وإدماج المسلمين في المجتمع الفرنسي ، علما بأن السلطات الاستعمارية سبق لها وإن استعملت موضوع تعدد الزوجات، كحجة لمنع المسلمين من الحق السياسي على سبيل المثال ، أن رئيس المجلس الوزاري الفرنسي دلاديي Daladier قال بالحرف الواحد لفرحات عباس سنة ١٩٣٨ " إني لا أقبل بأي فوضى ، فالنواب الفرنسيون بالجزائر يرفضون الجلوس في البرلمان بجانب أناس يمارسون تعدد الزوجات ". هل كان دلاديي يقصد مسألة الأحوال الشخصية ؟

في الحقيقة إن المعمرين والجزائريين كانوا متفقين لأول مرة في شأن قضية الأحوال الشخصية . فالجزائريون رفضوا رفضا قاطعا أن يتخلوا عن الشريعة الإسلامية ، والمعمرون رفضوا تجنيس الجزائريين المسلمين ، ما يجعل حدا لامتيازاتهم ، ونددت هؤلاء الكاتبات في رواياتها بهذا الموقف المتعنت للمعمرين

ضد تعدد الزوجات قائلات : الفرنسيون أظهروا نفاقا كبيرا لما يرفضون المساواة في الحقوق مع المسلمين بحجة تعدد الزوجات ، لأن الأغلبية الساحقة من نوابنا وسياسيينا يتمتعون بعدة زوجات غير رسميات .

كما أعطت هؤلاء النساء صورا أخرى للشابة الجزائرية ، وكانت في معظمها إيجابية لمقاومة مشروع الكتاب الجزائرانيين، وكل هذا لتبقى الجزائر فرنسية ، لأنهن كن على وعي أن الوضعية كانت خطيرة ، وصار من الضروري اتخاذ إجراءات مستعجلة لأن الوجود الفرنسي بالجزائر كان في خطر، وتقول أن العادات والتقاليد بين الفئات الجزائرية من مسلمين ويهود ومسيحيين كانت متقاربة وكلها منبثقة من حضارات البحر الأبيض المتوسط ، وتضيف هؤلاء النساء للنظر إلى التقاليد كالاحتفال بعيد الربيع والزيارات للأضرحة المقدسة ، والذهاب إلى نفس الأسواق وحتى في الحروب التي قامت بها فرنسا ، كانت الآلام توحد المرأة المسلمة و المسيحية و اليهودية بسبب مشاركة أبنائهن في الحرب للدفاع عن الوطن الواحد وهو فرنسا ، وحتى في هذا الإطار كانت إجراءات غير عادلة إذ المسلم يفرض عليه قضاء سنتين في الخدمة العسكرية في حين الفرنسي يطلب منه قضاء سنة واحدة ، وكن ينددن بهذه الإجراءات غير العادلة .

وبالنظر إلى هذه النيات الطيبة التي عبرت عنها هؤلاء النساء الكاتبات ، يحق لنا أن نتساءل ، كيف كانت النتيجة ؟

إذ كانت مجرد وعود باشراك المسلمين في " التقدم الاجتماعي " التي صرح بها بعض المفكرين والسياسيين لإنقاذ مصالح فرنسا في الجزائر التي كانت مهددة بسبب مطالبة الجزائريين باستقلال بلادهم.

ملامح من صورة العرب
في كتابات الدبلوماسيين الألمان
من ١٨٨٨ الي ١٩١٨

أ.د. وجيه عبد الصادق عتيق

أستاذ التاريخ الحديث

قسم التاريخ – كلية الآداب – جامعة القاهرة

مقدمة :

تعد وثائق الأرشيف الألماني مصدرا هاما من مصادر تاريخنا العربي الحديث والمعاصر ، حيث تقدم مادة علمية غزيرة ، تكشف لنا الغموض عن كثير من جوانب هذا التاريخ . ومن أهم محتويات هذا الأرشيف التي اعتمدنا عليها في في إعداد هذه الورقة

١- مرسلات السفراء الألمان في العاصمة العثمانية مع قادتهم في ألمانيا .

٢- تقارير القناصل والمبعوثين الألمان في بلاد الشام .

٣- تقارير التجار ومؤلفات الرحالة الألمان ، الذين زاروا انحاء متفرقة من البلدان العربية .

وفي الحقيقة تعد صورة العرب في عيون غيرهم - ومنها تلك الصورة التي تكونت عند المسؤلين الأجانب في الربع الأول من القرن العشرين - واحدة من القضايا الجديرة بالاهتمام والبحث من خلال مصادرها الأصلية ، وذلك حتي يمكن لنا الوقوف علي العوامل والمكونات المختلفة التي رسمت معالم صورة العرب في عقل الأخر بصفة عامة ، والتي ربما تفسر لنا أسباب تلاعب هذا الأخر بمصير

ومستقبل المنطقة العربية في أثناء تلك الفترة المصيرية – التي تبحث فيها الورقـــة– من التاريخ الحديث ، إذ فيها عقدت اتفاقية سيكس – بيكو المشؤومة وصدر وعــد بلفور المهين. وفي حالتنا هنا فاننا نقدم في هذه الورقة تلك الصورة التي ارتـــسمت في اذهان المسؤولين الألمان للعرب قبل وأثناء الحرب العالميـــة الأولـــي بـــصفة عامة، والتي لعبت دورا مهما في اتخاذ هؤلاء المسؤولين لقراراتهم تجـــاه منطقتنـــا العربية.

ولقد فضلنا أن تبحث هذه الورقة في فترة زمنيـــة محـــددة . تبـــدأ بتـــولي الإمبراطور فيلهم الثاني مقاليد الحكم في ألمانيا عام ١٨٨٨، والتي من حينهـــا أزاد اهتمام حكومته بالمشرق العربي . ثم ينتهي البحث بانهيار الإمبراطورية الألمانيـــة مع نهاية الحرب العالمية الأولي عام ١٩١٨ .

وبداية لنا هنا عدة ملاحظات جديرة بالذكر، وهي :

أولا ، علينا أن نلفت الانتباه إلي مسألة جوهرية ، إلا وهي أن الألمان دخلوا المنطقة العربية من خلال البوابة العثمانية ، ولذا نلاحظ انهم تأثرا في كثيـــر مـــن الأحيان بالرؤية العثمانية للعرب . وقد أنعكس هذا بشكل واضح فيما كـــان لـــدي الألمان خلال الفترة التي نبحث فيها من تصور أو فهوم محدد لموطن العرب مفاده : ان العرب هم سكان المشرق العربي فقط ، أما بقي العرب مـــن ســـكان شـــمال أفريقيا، فهم عند الأتراك والألمان آنذاك ينتمون الي محيط جغرافي آخر غير ذلـــك المحيط العربي في المشرق ، وهذا ما يدعونا هنا الي جعل العـــرب مـــن ســـكان المشرق هم محور هذه الورقة، وذلك لأسباب تعود إلى المادة العلمية المتوفرة بـــين أيدينا في الوقت الحالي .

ومن ناحية ثانية، يلاحظ الباحث في هذه المرحلة التاريخية الهامة ان الألمان منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر وحتي قيام الحرب عـــام ١٩١٤ أهتمـــوا

بالمشرق العربي من عدة زوايا محددة هي : – الزاوية الاقتــصادية ، والزاويــة الثقافية ، ثم بدرجة اقل بالزاوية السياسية . والسبب في محدودية الزاوية الــسياسية آنذاك هو عدم رغبة الألمان في تلك المرحلة في أغضاب الدولة العثمانية .

ولكن مع اشتعال الحرب في النصف الثاني من عام ١٩١٤ وحتي منتــصف ١٩١٥ أتسع اهتمام الألمان بالمــشرق العربــي لكــي يــشمل المجــال الــسياسي والعسكري، بحيث تجاهلوا الدولة العثمانية في كثير من الحيان، وانخرطــروا فــي محاولات متعددة للقيام بعمل مشترك مع العديد من القوي العربيــة ضــد مــصالح بريطانيا وفرنسا في المنطقة العربية . أما منذ منتصف ١٩١٥ وحتي توقف الحرب في أواخر عام ١٩١٨فقد أنصب جل هذا الاهتمام الألماني بالمشرق العربــي فــي تلك السنوات الحاسمة من الحرب علي المجالين : الحربي ، والــدعائي ، بحيــث تراجعت مجالات الاهتمام الاخري مع تراجع عنفوان أدائهم في تلك الحرب وحتــي نهايتها .

وفي ضوء ما تقدم ومن خلال احتكاك واتصال الألمان بعرب المشرق طوال تلك الفترة يمكن لنا ان نحدد ثلاث مراحل لتطور معالم صورة العرب في كتابــات الدبلوماسيين الألمان كما عكستها وثائق الارشيف الألماني علي النحو التالي :–

المرحلة الأولي : **من ١٨٨٨ الي قيام الحرب في ١٩١٤** :

وخلالها كانت معالم تلك الصورة تتسم في معظم جوانبها بالايجابية . وهناك عدة عوامل ساعدت علي ذلك منها : – الاستقبال الحار الــذي وجــده إمبراطــور ألمانيا فيلهم الثاني في أثناء زيارته للمشرق العربي عــام ١٨٩٨ ، وكــذلك تــأثر العديد من رواد القومية العربية بالقومية الألمانية ، ثم التعاطف المتبادل بين العرب والألمان في مواجهة النفوذ البريطاني الفرنسي في المنطقة العربية ، الأمر الــذي

أدي بالدبلوماسيين الألمان لكي يصوروا العرب في تقاريرهم آنذاك فـــي صــــورة الشعب المضياف، والمعتز بديانتة وقوميته ، وانه شعب لديه طموح سياسي كبير .

المرحلة الثانية وتبدأ بقيام الحرب ١٩١٤ وحتي منتصف ١٩١٥ :

وهي فترة قصيرة نسبيا ولكنها حبلي بالإحداث ، بحيث كانت بـــدياتها تبـــشر بالنجاح للعديد من مظاهر التعاون بين الألمان وجميع القـــوي العربيـــة المناهـــضة للإنجليز والفرنسيين ، وفي أثنائها تبادل العرب والألمان الحماس المفرط في رسم خطط طموحة ضد القوي المعادية لهما . وبقدر ما كان الحمـــاس مفرطـــا كانـــت النتائج مفجعة ومخيبة لكل الآمال بشكل سريع ، الأمر الذي احـــبط مـــن عزيمـــة الجانبين معا ، حتي ان الألمان اندفعوا يحملون العرب الكثير من جوانب التقصير ، ثم الفشل الذي أل إليه مصير حملة التركية – الألمانية علي مصر.

أما المرحلة الثالثة فهي : **من منتصف ١٩١٥ وحتي توقف الحرب في ١٩١٨** :

و فيها وتحت وطأة ظروف الحرب ومشاكلها ومتطلباتها تبدلت تلك الصورة الايجابية للعرب التي كانت قد تكونت خلال المرحلة الأولـــي ، وخاصـــة بعـــد ان توالت الآثار السلبية لفشل الحملة التركية الألمانية المشتركة علـــي مـــصر أوائـــل ١٩١٥ ، وعندما اخذ الشريف حسين في عام ١٩١٦ يعد قواتـــه بالتعـــاون مـــع الإنجليز للثورة ضد الأتراك والألمان في المشرق العربي ، وما تلي ذلك من فـــشل زريع لما سمي بمشروع الجهاد المقدس ضد بريطانيا وفرنسا ، وهو المشروع الذي كانت تديره أجهزة المخابرات والدعاية الألمانية ، والذي عول عليه كثيرا الأتراك والألمان لإنقاذ المشرق العربي من الوقوع في يد البريطانيين والفرنسيين .

ومن هنا ارتسمت للعرب في هذه المرحلة الأخيرة صورة سلبية، بل وقاتمة للغاية في الوثائق الألمانية ، كان ابرز مفرداتها: أن العرب طعنوا الدولة العثمانيـــة من الخلف بالتعاون مع القوي المعادية للعرب والمسلمين .

وفي الواقع وبعد أن برزت ألمانيا بقوة علي الساحة الدولية في أعقاب تحقيق وحدتها القومية عام ١٨٧١، شهدت الصناعات الألمانية تطورا ملموسا وفائضا غزيرا في الإنتاج ، ومن ثم أخذت الحكومة الألمانية في عهد مستشارها الشهير بسمارك تبحث عن مناطق نفوذ لها في الخارج ، كما أخذت في البحث عن أسواق خارجية تبتاع فيه فائض منتجات شركاتها الصناعية . ولكن بسبب المشاكل المزمنة بين ألمانيا وفرنسا وجدت حكومة بسمارك أن المصلحة القومية لبلادها تتطلب آنذاك الحذر السياسي الشديد في التعامل مع الشؤون الخارجية ، وتتطلب أيضاً السعي الدؤوب لتجنب الصدام مع مصالح بريطانيا ، وكذلك تفادي مزاحمة النفوذ السياسي والعسكري للإنجليز في منطقة شرق البحر المتوسط بصفة خاصة، وذلك حتي لا تندفع الحكومة البريطانية للأنحياز لفرنسا ضد ألمانيا، وعلي اعتبار أن العرق السياسي قد أستقر على أن هذه المنطقة أصبحت منطقة نفوذ بريطانية بدون منازع .

ولتلك الأسباب السابقة استقر رأى بسمارك وحكومته علي انه من المفيد لألمانيا خلال تلك المرحلة الشائكة الابتعاد عن مجالات النفوذ السياسي والعسكري التي قد تثير حساسية بريطانيا في منطقة شرق البحر المتوسط ، وان يتم الانفتاح الاقتصادي فقط علي أراضي الدولة العثمانية – بما فيها المشرق العربي – لكي تصبح مجالا حيويا للاستثمارات الألمانية وأسواقا لمنتجات شركاتها الصناعية . وبالفعل طوال الربع الأخير من القرن التاسع عشر نجح الألمان في نسج شبكة واسعة من المصالح الاقتصادية في أنحاء مختلفة من الأراضي العثمانية . فعلي سبيل المثال وقع الباب العالي مع عدد من البنوك الألمانية في الرابع من أكتوبر ١٨٨٨ اتفاقا لتمويل بناء خط سكة حديد أسميد – انجورا ، الذي كان النواة لخط برلين – بغداد الشهير، والذي تولت عملية إنشائه منذ البداية الشركات الألمانية ،

وتفرع عنه فيما بعد عدة خطوط أخري كان اشهرها خط سكة حديد الحجاز . وفي وقت لاحق من ذلك العام وقعت ثلاث من كبري الشركات الألمانية اتفاقا ثانيا مع الحكومة العثمانية من اجل إنشاء عدد من الموانئ البحرية وفي مقدمتها ميناء حيدر باشا[1] .

وكانت الدولة العثمانية في ذلك الوقت متخوفة كثيرا من أطماع بريطانيا وفرنسا وروسيا في أراضيها ، كما كانت في حاجة ماسة لكافة أشكال الدعم وخاصة الاقتصادي . ولذا استقبل العثمانيون الاستثمارات الألمانية بترحيب وحماس واضحين لخلوها – من وجهة نظرهم – من شبهة الأطماع الاستعمارية ، وفتحوا أراضيهم وأسواقهم أمام مختلف التجار الألمان . وفي نفس الوقت أولت العديد من الشركات الصناعية الألمانية اهتماما واضحا للأسواق العثمانية بما فيها أسواق الشام والعراق ، وأخذت هذه الشركات في إرسال مندوبيها للتجوال في أنحاء الأراضي العثمانية بغرض التعرف علي أسواقها ودراسة احتياجاتها وحجم القوى الشرائية فيها . وقد عكست تقارير هؤلاء المندوبين مدي التفاؤل الذي شعروا به ومدي الحفاوة والتشجيع الذين استقبلوا به من قبل السكان في المناطق العربية خاصة[2] .

وبالفعل أخذت الصناعات والمنتوجات الألمانية في التدفق مع قوافل التجار الألمان منذ ثمانينات القرن التاسع عشر علي الأسواق العثمانية ، كما أصبح الشام الأوفر حظا من زخم هذا النشاط التجاري ، حيث استحسن التجار الألمان طبيعته ومناخه ، وسهولة الانتقال الأمن بين بلدانه ومدنه . ويذكر احد هؤلاء التجار في مذكرته التي رفعها إلي وزارة التجارة الألمانية في مارس ١٨٩٠ كيف استقبله اهل دمشق بحفاوة بالغة ، حيث منحة واحد من كبار رجالها حق الإقامة المجانية لمدة عام في جانب من منزله، كما أشاد في تلك المذكرة بأهمية أسواق الشام ورواج

المبيعات الألمانية فيها، والتي يفضلها السكان هناك علي غيرهـا مـن المنتجـات الأوربية الاخري ، وفي نهاية المذكرة لم يفوت كاتبها ذكر عرب الشام بالكثير مـن الصفات الحميدة والفضائل الكريمة ، ينصح زملائه من التجار الألمـان بالأقـدام علي التوجه الي مختلف أسواق الشام وبلاد الرافدين، والتجوال بحريـة فـي هـذه البلدان(٣) .

وكان قد طرأ علي اهتمام ألمانيا بالدولة العثمانية ومنطقة المـشرق العربـي تطورا مهما بعد ان تسلم الإمبراطور فيلهم الثاني مقاليد الحكـم فـي بـلاده عـام ١٨٨٨، حيث أولي هو شخصا المزيد من الاهتمام الي الجوانب الاقتصادية ، كما برز هذا الاهتمام في العديد من الجوانب الثقافية ، وخاصـة بعـد الـتخلص مـن المستشار بسمارك عام ١٨٩٠ والابتعاد عن سياسته الحذرة . ومن اجل التوسع في مد خطوط وتفريعات خط برلين بغداد، زار الإمبراطور العاصمة العثمانية استانبول في يناير ١٨٨٩ ووضع مع السلطان عبد الحميد الثاني الخطوط العريـضة لمـنح البنك الألماني Die Deutsche Bank حق امتياز في مد ذلك الخط وتفريعاته فـي أنحاء الأراضي العثمانية بما فيها الشام والحجاز(٤) .

ويري عدد كبير من المؤرخين أن ألمانيا أصبحت في عهد الإمبراطور فيلهم الثاني تسعي من خلال خط برلين بغداد إلي كسر سيطرة بريطانيا العظمـي علـي بحار العالم وتجارته بين الشرق والغرب. ومن اجل هذا الهـدف بـذلت حكومـة الإمبراطور جهودا مضنية ، ومنها السعي الدؤوب من أجل التقرب مـن الـشعب العربي في المشرق والتواجد الدائم في بلدانه . وفي هذا الإطار تعـددت البعثـات الأثرية الألمانية في لبنان وسوريا والعراق، حيث لعبت هذه البعثات دورا رياديا في الكشف عن الكثير من أثار تلك البلدان ، وتأسست خلال نفس تلك الفترة العديد من الجمعيات الألمانية التي تخصصت في الدراسات الشرقية والعربية منها علي وجـه

الخصوص ، كما جاءت رحلة الإمبراطور فيلهم الثاني الشهيرة عـام ١٨٩٨ الـي الشام ، حيث زار الإمبراطور أنحاء متفرقة منها ومكث في القدس وبعلبك ودمشق، وفي هذه المدينة الأخيرة وضع بنفسه اكليلا من الزهور علي قبـر صـلاح الـدين الأيوبي وسط تهليل السكان . وقد تركت هذه الرحلة أثارا طيبة للغاية فـي نفـوس عرب الشام ، بحيث أصبح كل ما هو ألماني يحل بالـشام محـل تقـدير واحتـرام الغالبية العظمي من السكان[٥] .

ومما لا شك فيه ان تأثر عدد من المفكرين الألمان البارزين من أمثال الأديب يوهان جوته بالإسلام والأدب العربي، قد لعب دورا هاما في تقديم العرب المسلمين في صورة ايجابية الي المجتمع والمثقف الألماني بصفة عامة . فقد احب جوته كما هو معلوم اللغة العربية وآدابها ، وتعلق بالمأثور الشعبي العربي ، كما تحمس كثيرا للشعر الجاهلي . وتذكر كاترينا مومزن عميدة الأدب الألماني في أكثر من جامعـة أمريكية في كتابها " جوته والعالم العربي " ان هذا الشاعر والأديـب الـشهير قـد تستعان بمخطوطات شرقية وكتبا في النحو العربي ، وان ديوانـه الـشرقي حفـل بأسمى معاني التبجيل للإسلام والقران الكريم ، وانه اقتبس في مؤلفاته حـوالي ٢٤ أية قرآنية[٦] .

وعلي الجهة الاخري نظر رواد القومية العربية الأوائل في الشام بكثير مـن الإعجاب الي التجربة الناجحة لمسيرة القومية الألمانية . ويسلم العديد من هـؤلاء الرواد بأن فكرة القومية العربية ولدت في الحقيقة بتأثير من الفكر القومي الألماني، كما أنها استلهمت النزعة الرومانطيقية من القومية الألمانية علي النحو الذي تجلـت فيه لدي الفيلسوف فيخته (١٧٦٢ – ١٨١٤) وكتاباته .

ويقف ساطع الحصري –المنظر الأول للقومية العربية– علي رأس من تـأثر بالنهج القومي الألماني ، الذي تعرف عليه عن قرب خـلال فتـرة دراسـته فـي

أوروبا في بدايات القرن العشرين ، وعندما تـولى الحـصري مـسوؤلية وزارة التربية والتعليم في حكومة فيصل الأول في سوريا كان يردد ما ذكـره الفيلـسوف فخته في مؤلفاته من ان برامج التعليم تمارس دورا كبيرا في إعـادة بعـث الأمـة وإشعارها بهويتها وكيانها، وعن طريق هذه البرامج يمكن لنا نشر الأفكار القوميـة ونغرسها في عقول التلاميذ منذ الصغر . ويؤكد بعض الباحثين ان جميع مفكـري القومية العربية من ساطع الحصري الي قسطنطين زريق الي ادمون رباط الي ذكي الارسوزي الي مشيل عفلق وغيرهم كانوا جميعا تحت تأثير الإيديولوجية القوميـة التي ازدهرت في اوربا في أثناء القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين(٧).

وفي تقديرنا ان تأثر وإعجاب المفكرين العرب بمسيرة القومية الألمانيـة لـم يكن غائبا عن أعين الألمان ودبلوماسييهم منذ مطلع القرن العشرين ، بل نظـروا إليه بتقدير ، وعملو علي إذكائه وتوجيه في الاتجاه الذي يخـدم مـصالحهم فـي المنطقة العربية والمتمثلة في مناهضة النفوذ البريطاني والفرنـسي فـي المنطقـة العربية ، وبعيدا عما يهدد تماسك حليفتهم الدولة العثمانية وسيطرتها علي الـشام . ومن المدهش أن البريطانيين سعوا في الوقت نفسه إلي اسـتغلال تـصاعد التيـار القومي العربي بما يخدم مصالحهم أيضا فـي المنطقـة ، حيـث أرسـلوا رجـال مخابراتهم ومن بينهم لورنس من اجل الاتصال بزعماء عرب المـشرق وإيهـامهم بأنهم سيتخلصون من الدولة العثمانية ويحصلون علي الاستقلال عندما يعملون مـع بريطانيا(٨) .

ولكن مع بدايات القرن العشرين حاولت ألمانيا من خـلال صـداقتها للدولـة العثمانية وسمعتها الطيبة بين سكان المشرق العربي تحقيق نجاح آخر في مجال هام إلا وهو : مجال استخراج وتسويق النفط في أراضي العراق ، وذلك حتـي تـؤمن لنفسها احتياجاتها من هذه المادة الخام التي أصبح واضحا بدون شك أنهـا ستـسير

عجلة الصناعة في ذلك القرن وما بعده . وفي عام ١٩١٢ حصل البنك الألمـــاني من الحكومة العثمانية علي حق استكشاف وإنتاج النفط في أراضي بـــلاد الرافـــدين التي تمر بها سكة حديد برلين بغداد ، وعلي مساحة تمتد ٢٠ كيلو مترا علي جانبي هذه السكة وتفريعاتها في تلك الأراضي(٩) .

ومن الواضح أن هذا التطور هدد بقوة مصالح بريطانيا في الخليج العربي ، ولذا أصبحت الحكومة البريطانية منذ ذلك الوقت وحتي قيام الحرب العالمية الأولي أكثر إصرارا علي حرمان منافسيها وخاصة ألمانيا من الوصول لتلك الثروة الكامنة في أراضي العراق وباقي بلدان الخليج العربي ، كما اشتد التنافس بين الجـــانبين – البريطاني والألماني – حول كسب ود شيوخ القبائل والعشائر من ســـكان المـــشرق العربي ، حيث أخذت بريطانيا سرا في تقوية أواصر روابطها مع شـــيوخ الكويـــت ونجد والحجاز وعسير ، في حين أخذت ألمانيا في تقوية صلاتها مع كبار زعمـــاء الشام والعراق حتي تضمن النجاح لاستثماراتها ، وكذلك التواجد الأمن لخبرائهـــا وفنييها بين السكان المحليين في المنطقة . وقد ساعد ألمانيا في هذا ما لمسته جيـــدا من تطلع زعماء الجناح التحديث والإصلاحي من عرب الشام إليها، علي أمـــل أن تساعدهم في التخلص من القبضة الحديدية للدولة العثمانية . ولعل حاجـــة ألمانيـــا بالدرجة الأولي لهذه الصلات يفسر لنا ذلك الود المتبادل بين الدبلوماسيين الألمـــان وزعماء الشام ، كما يفسر لنا عبارات الإطراء التي سجلها هؤلاء الدبلوماسيون عن تلك الزعامات في مراسلاتهم مع حكومتهم في بـــرلين ، والتـــي عكـــست صـــور وصفات ايجابية عن مجمل سكان المشرق العربي . وقد كشفت لنا الوثائق الألمانية ان هذه الصورة الايجابية التي ارتسمت في أذهان صناع القرار فـــي بـــرلين عـــن عرب المشرق في تلك المرحلة التي سبقت الحرب العالمية الأولي كانت مـــن بـــين

أهم الحوافز التي شجعت الحكومة الألمانية وشركاتها الصناعية وبنوكها الاستثمارية علي التوسع في المشاريع التجارية في منطقة المشرق العربي(١٠).

وبناء علي تلك الصورة الايجابية عن العرب تـصور المـسؤولون الألمـان عندما قامت الحرب العالمية الأولي في الأول من أغـسطس ١٩١٤ أن بريطانيـا سوف تواجه مأزقا صعبا للغاية في المشرق العربي ، كما تصوروا أن في مقدورهم الاعتماد علي القوي العربية في زعزعة النفوذ البريطاني في الخليج العربي . وفي الحقيقة لم يأت هذا التصور من فراغ ، آذان العديد من المؤشرات كانت توحي بأن العديد من تلك القوي العربية في المشرق وشمال أفريقيا سوف تنضم إلـي جانـب ألمانيا ، وأنها سوف تنتهز فرصة اشتعال الحرب لكي تهب بـالثورة ضـد قـوي الوفاق ، وخاصة بريطانيا وفرنسا منها، والمحتلة لأراضيهم . ففي الخـامس مـن أغسطس توجه الأمير سعيد حفيد عبد القادر الجزائري من مقر إقامة – في دمشق حيث كان يعيش آنذاك – إلي قنصل ألمانيا العام في الشام لكي يبلغه انه وأعونه في الشام والجزائر سوف يحاربون في صف ألمانيا ضد دول الوفـاق(١١). وفـي ١٣ أغسطس ذهب عدد من زعماء الحزب الوطني المصري المقيمين في جنيـف الـي القنصل الألماني هناك ليخبروه أن رجالهم المنفيين من قبل الإنجليـز فـي الـشام وغيرها من الأراضي العثمانية سوف يعملون علي إغلاق مجري قناة الـسـويس في وجه الملاحة البحرية، حتي لا تستفيد منـها بريطانيا وغيرهـا مـن أعـداء ألمانيا(١٢).

كما تؤكد لنا ملفات وزارة الخارجية الألمانية أن كبار المـسؤولين الألمـان التفتوا بقوة إلي أهمية الاستفادة من تعاطف عرب المشرق بصفة عامة معهـم منـذ قيام الحرب . ويعود الفضل في هذا إلي فنجنهـايم سـفير ألمانيـا فـي العاصـمة العثمانية، الذي توقع بتفائل منقطع النظير أن يكون هناك تعاونا كبيرا مـن جانـب

العرب مع ألمانيا في تلك الحرب ، ولذا نصح حكومته في تقرير مطـول لـه فـي أواخر أغسطس ١٩١٤ بالتقرب من الزعماء ورجال العشائر في الشام والجزيـرة العربية، عن طريق تقديم الهدايا لهم وتواصل الاتصال معهم ، وإعطائهم بريق من الأمل في مستقبل مشرق لهم في حالة انتصار ألمانيا في الحـرب، حتـى يمكـن كسبهم تماما إلي صف المجهود الحربي الألماني ضد بريطانيا في منطقـة شـرق البحر المتوسط ، خاصة وإنهم – طبقا لما جاء في التقرير – يتمتعون بالكثير مـن الصفات الحميدة التي تجعل الألمان يثقون في وعـوده ومـواقفهم. كمـا طالـب فنجنهايم حكومته في ذلك التقرير بالضغط بقوة علي الحكومة العثمانية لكي تحـسن معاملة السكان العرب ، حتي يمكن تفادي مخططات الإنجليز الرامية لإثارة هـؤلاء السكان ضد الدولة العثمانية . وقد احتل الشريف حسين في تلك المرحلة المبكرة من الحرب أهمية خاصة في تقرير فنجنهايم ، الذي لفت نظر حكومته بشدة الي المكانة الدينية الرفيعة التي يحتلها الشريف في نفوس سكان المشرق العربي وغيرهم مـن المسلمين ، وأشار فنجنهايم الي ضرورة وضع هذه المكانة موضـع اعتبـار عنـد إعداد خطط أثار الشعوب العربية والإسلامية ضد دول الوفاق(١٣) .

وفي هذه المرحلة المبكرة من الحرب ايد أحد المستـشرقين الألمـان ،مـن العارفين بشؤون المشرق العربي، والذي كان يعد من كبار مستـشارين الحكومـة الألمانية في شؤون تلك المنطقة ، ذلك الرأي الذي عبر عنه فنجنهايم وغيـره مـن كبار المسؤولين الألمان . ونعت هذا المستشرق الشريف حسين بأنه شديد الطمـوح والتطلع السياسي ، اقترح علي حكومته ان تسرع الي استقطاب الـشريف حـسين قبل أن تستقطبه بريطانيا ، بأن تتدخل الحكومة الألمانية لدي الحكومـة العثمانيـة لتعيين الشريف في منصب شيخ الإسلام لعموم شعوب المسلمين(١٤) .

ولقد اتخذ الدبلوماسيون الألمان في العاصمة العثمانية عدد من الخطوات التي تعكس مدي اهتمامهم بالإشراف العرب المقيمين في العاصمة العثمانية ، ففي مساء ٣٠ أغسطس ١٩١٤عل سبيل المثال استدعي فنجنهايم هؤلاء الإشراف الي مقر السفارة الألمانية حيث أهداهم بعض الهدايا القيمة باسم الحكومة الألمانية، وتعهدوا في المقابل وبحماس فائض وقوفهم في صف ألمانيا واستعدادهم لعمل كل ما في وسعهم لمناهضة الإنجليز . وفي أوائل نوفمبر، من ذلك العام طلب الجنرال ليمان فون ساندرس رئيس البعثة العسكرية الألمانية في الجيش الألماني عدد من القلادات والأوسمة الألمانية من اجل منحها لزعماء عرب المشرق . ووصلت هذه القلادات والأوسمة في منتصف نوفمبر حيث قام العقيد كريس فون كريسن رئيس هيئة الحملة التركية الألمانية – التي كان يجري الإعداد لها علي قدم وساق – بتوزيع تلك القلادات والأوسمة من مقر إقامة في دمشق باسم الإمبراطور فيلهم الثاني علي الزعماء العرب هناك(١٥).

إذاً نخلص من كل المؤشرات السابقة وغيرها ، ان الألمان كانوا يتوقعون من عرب المشرق التعاون الجدي معهم في مناهضة الإنجليز في تلك المنطقة . بل تصور الكثير منهم ان الشريف حسين سوف يقود ثورة عارمة ضد الوجود الإنجليزي في الخليج العربي ومصر . وقد تأكد ذلك التصور الي حد كبير بعد اللقاء الذي جري في ابريل من عام ١٩١٥ في العاصمة العثمانية بين الأمير فيصل بن الشريف حسين والبارون ماكس فون اوبنهايم رئيس والوكالة الألمانية لاستخبارات الشرق، حيث وضعا معا الخطوط العريضة لقيادة الشريف حسين ثورة عربية كبري ضد بريطانيا في الخليج بتمويل كامل من الحكومة الألمانية سواء بالخبرات والمعدات او الأموال . وقد اطنب تقرير اوبنهايم الي حكومته في الإطراء حول إخلاص الشريف حسن وأولاده لألمانيا ، ونفي أي علاقة له بالإنجليز ، وهذا

الذي جعل الكثير من المسؤولين الألمان يعتقدون أن العناصر التركية سيئة النية هي التي تقف من وراء تلطيخ صورة زعماء المشرق العربي باتهامهم بالعمالة للإنجليز (١٦).

إلا أن هذه الفترة المفعمة بالآمال والطموحات بشأن سبل التعاون بين العرب والألمان في الحرب تلاشت سريعا مع تكرار فشل محاولات الحملة العثمانية الألمانية لاجتياز قناة السويس طوال الربع الأول من عام ١٩١٥ ، ثم تلاشت كل تلك الآمال تماما عندما علمت المخابرات الألمانية في منتصف ١٩١٥ بصلات الشريف حسين السرية مع الإنجليز .

ومنذ ذلك الوقت تبدأ مرحلة مختلفة تماما عما سبقها عن صورة العرب عند الألمان عموما ودبلوماسييهم بصفة خاصة ، وهي مرحلة طغت عليها عدد من المظاهر السلبية التي انعكست بقوة عن تلك الصورة .

وفيما يتعلق بفشل الحملة التركية الألمانية علي مصر فوثائق وزارة الخارجية الألمانية تضم عددا وفيرا من تقارير مبعوثيها في الشام ، تتحدث بالتفصيل عن مراحل إعداد هذه الحملة والصعوبات التي أدت إلي فشلها ، وسوف نكتفي هنا بواحد من هذه التقارير ، الذي يعكس بشكل واضح الانقلاب الذي حدث لصورة العرب عند الألمان في هذه المرحلة الأخيرة وحتى توقف الحرب العالمية الأولي عام ١٩١٨.

فقد كتب واحد من هؤلاء المبعوثين ويدعي بروفر تقريرا شاملا حول ما فوجئ به الألمان من عراقيل بسبب عدم تعاون القوي العربية معهم منذ المراحل الأولي لإعداد الحملة التركية الألمانية علي مصر . فعلي سبيل المثال استحال علي الألمان والأتراك تدبير الدواب والجمال الأزمة لحمل أمتعة الحملة إلي قناة السويس، بسبب عدم وجود أي منها في الأسواق علي نحو متعمد ، حيث كان

العرب يهربون هذه الدواب والجمال بعيدا إلي داخل صحراء جزيرة العرب حتي لا تقع تحت أعين التجار الذين كان يتم إرسالهم من قبل الألمان والأتراك إلـــي هـــذه الأسواق لشرائها . وإذا تمكن احد من هؤلاء التجار من عقد صـــفقة مـــع أي مـــن الإعراب قد يبدي استعادة لإحضار عدد من الدواب والجمال مقابل اثمـــان مُبـــالغ فيها، فان هذا الإعرابي يعود بعد فترة من الوقت مصحوبا بجمـــال هزيلـــة ودواب مسنة لا تقوي علي القيام بالمهمة الشاقة التي تنتظرها . واذا صدق احد الإعـــراب في وعده بتنفيذ الصفقة – وهذا كان من النادر طبقا لما جاء فـــي التقريـــر – فـــان الألمان كانوا يكتشفون أن هذه الجمال لا تأكل إلا عشب الصحراء ، وتمتنـــع عـــن الإقبال علي العلف الجاف الذي تم تدبيره لتغذيتها في معسكرات الحملة في كبـــري مدن الشام(١٧) .

وعندما أخذت الحملة طريقها شمال سيناء في اتجاه قناة السويس وقعت هـــذه الحملة في مأزق ندرة مياه الشرب الضرورية لحياة أفرادها ، فقد كـــان العـــرب ، الذين تم إحضارهم من الشام علي اعتبار أنهم – كما ادعوا – يعرفون شبه جزيـــرة سيناء شبرا شبرا ، يضللون الحملة ولا يدلون رجالها الا الي مواقع الآبار المالحة أو الجافة . كما تعرضت الحملة لكثير من هجمات البدو ، التي نجحت فـــي ســـرقة معظم ما بقي في يد رجال الحملة من أمتعة وأسلحة وجمال . وعلي هـــذا النحـــو السيئ وصلت الحملة الي شواطئ قناة السويس لكي تواجه مصيرها المحتوم علـــي يد القوات الإنجليزية علي شواطئ القناة ، ودون أن يتحرك أي مـــن المـــصريين بالثورة علي الإنجليز كما كان زعماء القوي الوطنية المصرية من امثال محمد فريد والخديو عباس حلمي الثاني يرددون في كل مناسبة علـــي الـــدوام أمـــام جميـــع المسؤولين الألمان(١٨).

ومن رأينا ان يد الإنجليز ومخابراتهم النشطة في كل المشرق العربي في تلك الاثناء كانت ليست ببعيدة عن كل تلك العراقيل التي واجهت الألمان والدولة العثمانية منذ الإعداد لتلك الحملة ، وكذلك تلك المصاعب التي واجهت الدولة العثمانية في الاحتفاظ بسيطرتها علي الشام .

وكان من نتيجة تلك الصورة السيئة التي رسمتها تقارير الدبلوماسيين لألمان أن رفض الإمبراطور فيلهم الثاني استقبال عباس حلمي الثاني. كما اتخذت وزارة الخارجية الألمانية قرارا عاجلا في أوائل عام ١٩١٦ بتخفيض المخصصات المالية التي كانت تدفعها إلي محمد فريد ورفاقه في العواصم الأوربية. كما تفهم الكثير من المسؤولين الألمان لجوء الأتراك وعلي رأسهم جمال باشا إلي سياسة البطش بعرب الشام ، ونعتوا من ثبت عليه ومن لم يثبت اتصاله بالإنجليز أو الفرنسيين بالخونة، غير المدركين لمصالحهم الوطنية . كما أصبح العرب في نظر هؤلاء المسئولين مجموعة من القوى المشتتة التي لا يمكن الاعتماد عليها، كما يصعب جمعهم في عمل جماعي مشترك ومفيد لهم ولحلفائهم[١٩].

ونحن نري أن تلك الصورة التي استقرت في الوثائق الألمانية قد زاد من قتامتها تحالف الشريف حسين مع الإنجليز . حيث كانت ثورته ضد الدولة العثمانية في عام ١٩١٦ نهاية ما واجهه الألمان من مفاجئات غير سارة لهم في الحرب العالمية الأولي في المشرق العربي ، كما أن هذه الثورة هي التي أدت بالفعل لكل مظاهر الفشل الزريع لكل مخططات ألمانيا في المنطقة العربية ، حيث أن نجاحها ترتب علية القضاء علي الوجود العثماني في الشام عام ١٩١٧، ووصول الإنجليز إلي عمق الأراضي العثمانية، الأمر الذي عجل بسقوط الدولة العثمانية حليفة ألمانيا في هذه الحرب . وقد دفعت هذه التطورات القيادة الألمانية إلي نفض يدها تماما من العرب وشؤونهم حتي نهاية تلك الحرب ، وفضلت هذه القيادة في الفترة الأخيرة من تلك الحرب أن تركز كل جهودها علي أرض القارة الأوربية ، علي أمل أن يؤدى هذا التركيز إلي تحقيق ما فشلت فيه في الخارج .

الحواشي

(١) أرشيف الاتحاد في مدينة برلين . Bundesarchiv , R 901 , Bd. 11750 , s.36
وتجدر الإشارة هنا إلي أن نجاح الاستثمارات والتجارة الألمانية في الأراضـي العثمانيـة كان لابد وان يثير غيرة وحفيظة بريطانيا ، الأمر الذي انتهي بتقارب بريطانيـا وفرنـسا عام ١٩٠٤ فيما عرف بالاتفاق الودي من اجل التصدي معا للقوة الألمانية المتنامية علـي الساحة الدولية .

(٢) أرشيف وزارة التجارة في برلين .
Gst Apk , IHA , Rep 120 ,Ministerium fuer Handel , Sx 3 , Fach 15,Nr. 8

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق .
للمزيد حول النفوذ الاقتصادي الألماني في الدولة العثمانية انظر : وجيه عبد الـصادق عتيق ، " تطور التجارة بين مصر ألمانيا " ، مجلة كلية الآداب ، جامعة حلوان ، العدد الثالث ، القاهرة ١٩٩٨ ، ص ١٦٩ وما بعدها .

(٥) Artikel aus der jungen Welt vom 12.07.2003 ; Die Kaiser Reise in den Orient .

(٦) انظر جريدة البيان " بيان الكتب " العدد ٢٦٠ ، الاثنين ٢٨ أبريل ٢٠٠٣ .

(٧) للمزيد انظر :
Arab nationalism in the twentieth, Adeed Dawisha, Princeton university press 2003

(٨) أنظر : محمود الورداني " كيف نهدم أسطورة لورنس ؟ " ، " أخبار الادب "، العدد ٣٨٩ .

(٩) مقال بقلم : حسين النديم ،" الملف السياسي " ٢٠٠٣/٢/١٤ ، العدد ٦١٣ .

(١٠) Bundesarchiv, R1501, Bd .103054, s.177–148.

(١١) أرشيف وزارة الخارجية الألمانية A.A.R21123,der Weltkrieg,A16180,s.1

(١٢) Ebenda,A18294,s.12–15

(١٣)A.١٩٥٩٢,s.٤٩, ٢١١٣ .A.A,R برقية رقم ٦٥٠ بتاريخ ٣٠ أغسطس ١٩١٤ من فنجنهايم إلي برلين .

(١٤) Ebenda,R 21124,A 21910,s.58

(١٥) Ebenda,A 30868,s.103

(١٦) Ebenda,R 21133,A 18460,s.90–105

للمزيد حول أصول الحملة التركية علي مصر أنظر ' وجيه عبد الصادق عتيق ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة مجلد ٥٩ عدد٢ القاهرة ١٩٩٩ .

(١٧) Ebenda,R.21129,8561,s.103–108

(١٨) المصدر السابق .

(١٩) Ebenda , R 21128, A6858,s.12–14

المحتويات :

الموضـــــوع	الصفحة
العولمة والأمن الثقافي العربي، أ. فشار عطاء الله	٥
حرب الثغور بين الدولة العباسية والبيزنطيين، أ.د. عطية القوصي .	٣١
حقيقة دعاوى المؤرخ الصليبى توديبود حـول إرتـداد بعـض المسلمين عن الإسلام خلال الحملة الصليبية الأولى، د. محمد عبد النعيم محمد ...	٥١
مرحلة حاسمة في تاريخ الحروب الصليبية في شـرقي البحـر المتوسـط وشرقي أوروبا (١١٧١ - ١٢٠٤م)، أ.د. محمد مؤنس عوض	١٢١
النتائج التى ترتبت على الغزو والمغولى فى عـالم الإسـلام، د. عصام الدين الفقى	١٤٩
مشروع حملة لاتينية مغولية بيزنطية مشتركة ضد الشرق الإسلامي ١٢٦٩م / ٦٦٨ هـ، د. نادية مرسى السيد صالح	١٧٩
دور الأسطول المرابطي في مواجهة اعتداءات القوى البحرية المسيحية على السواحل المتوسطية الإسلامية، د. إيناس أحمد السيد عباس	٢٣١
صورة العربي في كتابات الأوروبيين خلال الاحتلال الفرنسي للجزائر (١٨٩٨ - ١٩٤٠)، مسعودة يحياوي	٢٨٥
ملامح من صورة العرب في كتابات الدبلوماسـيين الألمان مـن ١٨٨٨ الي ١٩١٨، أ.د. وجيه عبد الصادق عتيــق	٢٩٧